مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق



تراجم الأعيان

من أبناء الزمان

تأليف

الحسن بن محمد البوريني

١٠٢٤ / ١٦١٥

الجزء الثاني

تحقيق

الدكتور صلاح الدين المنجد

دمشق

١٩٦٣

٧٨

صاحبنا المرحوم سيدي الشيخ ابراهيم بن محب الدين الدمشقي الأصل والمنشأ والوفاة[١]

هو الشيخ ابراهيم بن محمد بن منصور بن ابراهيم بن محب الدين [ناظر الجيش][٢] . ومحبُّ الدين هذا هو جدُّهم الأعلى الذي أسلم أوّلاً من هذا البيت . وكان سامريّاً قاطناً بمحلّة السامرة في نواحي دمشق . وكان قبل الإسلام يسمّى سلامة ، والى ذلك أشار مَنْ قال :

الأَسْلَمِيُّ سلامَـــهْ لا صادَفَتْه سلامَـــهْ
محبُّ دينِ أبيـــهِ لا تَرْتَجي إسلامَـــهْ

قلتُ : وما أنصفه صاحبُ هذا الشعر . فإنه قد شاع وذاع أنّه كان صالحاً ديّناً متجنّباً للمحارم قبل الإسلام وبعده . حتى أخبرني حفيدُه محمد والد صاحب الترجمة أنه ما شرب الخمر لا قبل الإسلام ولا بعده . مع أنّه يجوز قليلُه الذي لا يُسكر في دين السامرة .

قلتُ : ومحبُّ الدين هذا هو صاحب الفتنة التي اقتضت أنّ العلماء أُخِذوا من الشام الى مصر مقيّدين في أواخر دولة الجراكسة . وبيانُ ذلك إجمالاً أنّ محب الدين هذا بنى لولده ابراهيم حين مات في حياة أبيه

---

(١) العنوان في هـ ، ب « ابراهيم بن محمد بن منصور » ونص هذه الترجمة هنا يختلف عما هو عليه ترتيباً في هـ ب . ونصها ناقص ، والنص هنا أتمّ .

(٢) الزيادة من هـ .

ُقبةً خلف مزار سيّدي الشيخ أرسلان (١) ُقدِّسَ سرُّه العزيز . وباب القبة الى الآن موجود . فثار الناسُ لذلك وقالوا : كيف ُتبْنى قبةٌ في مقبرةٍ مُسَبَّلَةٍ ؟ وهذا لا يجوز . واستفتوا على ذلك مفتي الشافعيّة إذ ذاك ، وهو السيّدُ كمال الدين بن حمزة الحسينيّ مفتي دار العدل ، واستفتوا على ذلك أيضاً شيخ الإسلام تقيّ الدين بن قاضي عجلون شيخ الشافعيّة في زمانه (٢) . وسعى في ذلك جماعةٌ من المتعمّمين أيضاً . فأفتى السيد كمال الدين باستحقاق القبة المذكورة الهدم لكونها ُبنِيَتْ في مقبرة مُسبّلة .

وبلغني أنّ التقيّ ابن قاضي عجلون أفتى بعدم استحقاق القبة الهدم .

فعند ذلك ثارت فرقةٌ من العوام وأخذوا الفؤوس والمعاول وذهبوا الى القبّة المذكورة فهدموها . فاستشاط لذلك محبُّ الدين المذكور . وكان من كبار أرباب الدولة في زمانه ، لأنّه كان ناظر الجيش . وأخذ معه عظام الموتى الى باب السلطان الغوريّ بمصر وقال له : يا مولانا ! وجدتُ لك كنزاً موقوفاً على بخور . فقال له السلطانُ : عندي بخور . فألقى بين يديه كثيراً من العظام وقال : هذه عظامُ والدي استخرجها فلانٌ وفلان ، بمساعدة فتوى فلان وفلان ، وأعانه في ذلك فلان وفلان . وما فعلوا ذلك إلاّ لكوني منسوباً إليك ومعتمداً عليك .

فرسم السلطانُ بأن ُيؤْتى بالجماعةِ كلّهم مقيّدين الى مصر . فأُخذوا كذلك . فلمّا وصلوا الى مدينة مصر نزل كلُّ واحد عند صاحبٍ له من

---

(١) في شرق باب توما . ما يزال المزار قائماً . انظر ذيل ثمار المقاصد ، ٢٣٣ ؛ المنجد ، مخطط دمشق القديمة .

(٢) ذكر الغزي هذه الحادثة في ترجمة تقي الدين بن عجلون . انظر الكواكب السائرة ١١٦/١ ، ثم أشار اليها في ترجمة علي بن ميمون . المصدر السابق ٢٧٦/١ .

مشايخ الإسلام . وعقد السلطان لذلك مجلساً عظيماً حضره شيخُ الإسلام قاضي القضاة زين الدين زكريا شارح « الروض » و « البهجة » ، وغيره من فقهاء عصره ، وعلماء مصره . وعلماء الشام المذكورون حاضرون . فسأل السلطانُ العلماءَ عموماً عن هذه المسألة وقال : كيف ساغ هَدْمُ عمارةِ رجلٍ مسلم في مكانٍ مباحٍ للخاص والعام من أهل الإسلام ؟ ومع ذلك كيف شاع في الدين المحمّدي إخراجُ عظامِ مَيْتٍ مُسلمٍ من قبره بعد دفنه ؟

فعوّل الجميعُ في الجواب على شيخ الإسلام القاضي زكريا . فاتفق أنه قال : هذه مسألة وقع عليها الإجماعُ باستحقاق القبة المذكورة الهدم ، لأنّ في بنائها تحجيراً على بقية المسلمين ، لكلّ واحدٍ منهم فيها استحقاقٌ خاص . فلزم أنّ بقية الجماعة الحاضرين وافقوا القاضي زكريا على جوابه .

فاستشاط السلطانُ لذلك غَيْظاً وقال : كلّكم متفقون على الباطل ومتعصّبون مع بعضكم .

وقام من مجلسه مُغْضَباً ، ودخل الى داخل حرمه .

فرسم على الجماعة حتى حملوا ما يقدرون عليه من الدنيا الوافرة . بحيث أنّ بعضهم أُخِذَ منه ما يزيدُ على عشرة آلافِ دينار . ولكن ما أخذ من أحـــدٍ شيئاً إلاّ وجبر خاطره بمنصبٍ يليقُ به . فرجعوا إلى أوطانهم بدمشق .

ويُقال ان هذه القصّة أوجبتْ زوال ملك الجراكسة لما فيها من إهانة العلماءِ .

وانضمّ إليها مثلها أيضاً ، وهي إهانةُ شيخ الإسلام قاضي القضاة البرهان ابن أبي شريف بقتل رجلٍ على بابه . كان ذلك الرجل أقرّ بالزنا وهو مُحْصَن . ثم ادّعى أنه أقرّ كاذباً . فحكم قاضي القضاة المذكور

بحقن دمه . لأنّ الحدود تُدْرَأُ بالشّبهات . ودعواه أنّه أقرّ كاذباً يورث شبهةً في إقراره بالفعل . فحقن لذلك دمه . فما رضي السلطانُ بحقنِ دمه بل أمر بإتلافه على باب قاضي القضاة المذكور نكايةً فيه [١] .

قلتُ : وقد وقع الاتفاقُ على أنه ما أُهينَتِ العلماءُ في دولةٍ إلاّ ذهبتْ وزالتْ وما أُكْرِموا في سلطنةٍ إلاّ تَبَتَّتَتْ وزادت . ويشهد لذلك وإن كان فيه خروجٌ عن الصدد – إلاّ أنَّ الحديثَ ذو شجون – ما ذكره الحافظُ أبو بكرٍ البغداديّ في تاريخه أنّ الفقيه المرْوَزيّ ذهب الى مجلس الأميرِ اسماعيل السامانيّ ، وكان سلطانَ وقتِه . فقام إليه الأميرُ اسماعيل واستقبله ومشى له سبع خطواتٍ في توديعه . وكان الأميرُ اسحاق أخو الأمير اسماعيل المذكور حاضراً عند أخيه . فلمّا رأى ما فعل أخوه من إكرام الفقيهِ المروزيّ قال له : لهذا تستخفّكَ رعاياك ، ولا تبقَى لك هيبةٌ عندهم . هذا رجلٌ من رعيتك يأتي اليك فتعظّمُه وتمشي له سبع خطوات ؟ هذا لا يناسب حشمة الملك ولا حُرْمَةَ السلطنة .

فتحيّر الأمير اسماعيل لمقال أخيه ، وقال : والله أنا ما عظّمتُ إلا علمه .

فنام في تلك الليلة الأميرُ اسماعيل ورأى النبي ﷺ في نومه وهو يقول له : يا اسماعيل ! أكرمتَ الفقيه المروزيّ لكونه حاملاً شريعتي ، ومشيتَ له سبع خطوات ، فلك على ذلك أنْ جعل الله – جلّ وعلا – في ذرّيتك سبعة بطون يتولّون السلطنة . ولو زدْتَ زدناك . وأما أخوك اسحاق فلا يصيرُ من ذريّته سلطانٌ أبداً لتحقيره العلم وأهله . اهـ بمعناه .

---

(١) انظر هذه الحادثة في ترجمة « ابراهيم بن محمد بن أبي شريف » في الكواكب السائرة ١٠٣/١ . وقال الغـزي : « وكانت هذه الوقعة سبباً لتكدّر دولة الغوري وتبادي انحلال ملكه » .

ومثلُ هذا على ألسنة الفضلاء مذكور .

قلتُ : ولقد أفرطنا في الخروج عما نحن بصـــدده ، ولكنّ الشيء بالشيء يُذكر . والحديثُ شجون ، والكلامُ يسوق الكلام .

فلنرجع الى ذكر صاحب الترجمة ، وهو سيّدي ابراهيم بن محمد الشهير بابن محب الدين . نشأ في تربية والده . وكان ملازماً على طلب العلم من حين تمييزه إلى حين وفاته . تفقه أوّلاً على والده محمد المذكور . وقرأ عليه بعض المقدمات النحويّة والصرفيّـــة . فترعرع ومهر ، وظهر بين إخوانه واشتهر . وحضر مجلس شيخ الإسلام النجم البهنسيّ الحنفي سنين عديدة ، يقرأُ عليه من فروعٍ وأصولٍ ومقدّماتٍ وتاريخ . وقرأ أيضاً علم البلاغة على شيخنا شيخ الإسلام العماديّ الحنفي ، وكان شريكاً لي في شرح « التلخيص المختصر » للعلاّمة السعد التفتازاني . واشتهر بالفضايل ، وصار معدوداً من جملة الأماثل . ونظم الشعر الحسن ، ودرّس بالمدرسة الشريفيّة [1] بدمشق ، وكذا درّس بالغزاليّة . وكان لي رفيقاً ، ومحباً صديقاً . وراسلني وراسلتُه ، وكاتبني وكاتبته . ولم يزل يخدم العلم بهمّةٍ سامية ، وعزمة نامية ، حتى اشتهر في الآفاق ، وفات على أقرانه وفاق . فبينا هو صاعد في تلك السعادة إذْ أفَلَتْ شموسُ كماله . وأدبرتْ نجومُ إقباله . ففارق دنيـــاه ، وواصل أُخراه . وعُمرُه ما زاد على ثلاثٍ وثلاثين سنة .

وكانت وفاته في سنة ثمانٍ وثمانين وتسع مئـــة . ودُفن في مقبرتهم المشتركة بينهم وبين بني تاج الدين قبليّ المدرسة الصابونيّة [2] . وكانت له

---

(١) انظر الدارس ١ : ٢١٦ .

(٢) الدارس ١ : ١٣ ؛ المنجد : دور القرآن بدمشق ص ٤٢ .

جنازةٌ جامعة للكبير والصغير ، والمأمورِ والأمير . وطال عليه تأسّفُ الناس . ووجدوا من فراقه غاية الباس ، وخلف أولاداً غالبُهم ذهب ، وماتوا صغاراً ، إلاّ أحمد چلبي فإنّه باقٍ إلى اليوم .

وابراهيم چلبي صاحب الترجمة ، له شعرٌ لطيفٌ . من ذلك سلسلة شاعت بين الناس .

ولما حجَّ نظم قصيدةً تائيّة في منازل الحج . وقد وازنتُه في ذلك ، ونظمتُ عندما حججتُ قصيدةً تائيّة في المنازل أيضاً .

ومن محاسِن هذه القصيدة قوله :

وما بعد عبّادان[1] يا صاحِ قرية   فأسأل من سكّانها عن أحبّتي

وكان شيخنا العلامة العماد الحنفي متزوّجاً خالة ابراهيم چلبي المذكور ، فيكون ابن خالة الفاضل العلاّمة الشيخ عبد الرحمن الحنفي . ولد شيخنا المذكور .

وقد طلعنا مرّةً الى المرج في صحبة شيخنا العلامة العماد ، وكان ابراهيم چلبي صاحب الترجمة معنا . فأنشد كلٌّ منا شيئاً يتعلق بذهاب رونق دمشق وانقضاء الصفاء لفسادِ الأمور بها .

فقال الأستاذ العماد :

أمّا دمشق فوجهها البسّامُ   لم يَبْقَ فيه بَشاشةٌ تُسْتامُ

وقلتُ :

كُسِيَتْ دمشقُ كآبةً وسآمةً   وغدا بها بعد الضياء ظلامُ

فغدوتُ أُنشدها ودمعي سائِلٌ   يادارُ ما صنعتْ بك الأيّامُ ؟

---

(١) لم أهتد الى أيّ عبادان يقصد .

فقد ضمّن شيخنا المصراع الثاني ، وضمّنتُ المصراع الأوّل .
والبيت لأبي نواس .

وقال ابراهيم چلبي صاحب الترجمة :

أمّا أنا فإن اُستمرّ الحالُ في جورِ الهوى فعلى دمشق سلامُ

وطلب مني وقد نظم قصيدةً فريدة مطلعُها :

من ذا الذي يا كحيلَ العينِ أفتاكا بأن تكونَ برمحِ القدِّ فتّاكا

وأرسلها إليّ وطلب مني موازنتها فقلتُ :

بحقِّ منظومِ دُرٍّ من ثناياكا رِفْقاً ، فإنّيَ عبدٌ من رعاياكا

وأكملتُها وأرسلتُها اليه .

قلتُ : ومن نظم ابراهيم صاحب الترجمة هذه الأبيات من بحر السلسلة :

من يوم فراقي لأهل رامة والبانْ واصلت سهادي، وفرط هجري[1] قد بان

فالطرفُ غريق، بفيض دمع جفوني والقلب حريق، من الغرام وأشجانْ

سقياً لليالٍ ، مضت كطيف خيالٍ مع بدر كمال، وما تُشان بنقصان

والحب قريب ، وليس ثَمّ رقيب يخشاه حبيب، يزور منزل ولْهَانْ

هل كان مناما ، أم الزمانُ غُلاماً او ثقت زماماً ، يجيء منه بحرمان

والآن لبعدٍ ، من الديار وصدٍّ أمسيت بوجدٍ، على الحبيب وأوطان

---

(١) هـ « صبري » وهي أحسن .

والجسمُ عليل ، وفي الفؤاد غليل　　والصبرُ قليل، ودمع عيني غُدْران

مَنْ لي بسبيلْ ، الى لقاء جَليل　　أو صِدْقِ خليل، يبثّ عني أحْزان

مُذْ بِتّ كليماً ، وقد بعثْتُ نسيما　　أوصيتُ سقيماً ، وقلتُ قولةَ هيمان

بالله رسولي ، إذا وصلت لسُولي　　عَرّض بنحولي، على مسامعِ نشوان

إن شِمْتَ[1] قبولاً، فقلْ أتيتُ رسولاً　　واُعْتِبْه طويلاً، على الصدودِ وهجران

وابدأ بسلامٍ ، يفوق سَحّ غمامٍ　　مع حفظ ذمامٍ، وذكرِ سالفِ أزمان

واُسْأل[2] إذاما ، فهمتَ منه غراما　　بالله على ما ، هجرت صَبّك ياجان

أوصدّ ملالا ، ولم يجبْك سُؤالا　　غالِطْهُ مقالا، وغضّ عني أجفان

واْحذَرْ هفوات، تديم طول فوات　　تسعى بمماتِ، الى المحب وخسران

وانعم بصريح، من المقال فصيح　　في وصف مليح، وفضلِ سَيّد أكوان

مَنْ كان إماما، وفي الحروب هماما　　كم ماز حراما، عن الحلال ببرهان

أغنى بعطاء ، وشقّ بدرَ سماء　　من غير خفاء، عن العيون ليقظان

والجيشَ أتاهُ ، مبادراً فسقاهُ　　من بعد ظَمَاهُ، بكف سيّدِ عدنان

والعينَ شَفَاها ، وكَلّمَتْهُ شِفاها　　أرضٌ وظباها، وشَقّ شاهِقَ إيوان

أسرى بظلامٍ ، به لنيل مقامٍ　　مع طيب كلامٍ، بقرب حضرة رحمن

---

(١) س « سمعت » ، أثبتنا رواية هـ ، ب .

(٢) هـ « واسأله »

واختم بصلاةٍ ، على شفيعِ عُصاةٍ تأتي بصِلات ، لدي الحساب وميزان
مَنْ خُصّ بقربٍ ، من الإله وحبّ والآل وصحب ، وتابعيه بإحسان

قلتُ : والقصيدةُ التي نقلها صاحب الترجمة في بيان منازل الحج مطلعُها قولُه :

لك الحمدُ يا ربي على كلِّ نعمةٍ وشكرٌ لما أوليتَ من غَيْرِ نقمةِ
وأزكى صلاة مع سلامٍ تتابعا على خيرِ مبعوثٍ إلى خَيْرِ أمّةِ
وبعدُ فإنّ اللهَ أوجبَ حمده عليّ بتوفيقٍ لأوفرِ حجـــة
وأجزل لي النعماء لمّا تعدّدَتْ منازلُها فضلاً بقـــدرِ المشقّةِ
وما كنتُ أهلاً كي أنالَ ثوابَها بمالٍ ولا جاهٍ ولا فضلِ همّةِ
ولكنّ فضلَ اللهِ يؤتيه مَن يَشا ويغمرُه جوداً بواسعِ رَحمةِ
وكنتُ أشدَّ الناس شوقاً لأن أرى بعيني ضريحاً حَلّ أشرفَ بُقعةِ
فلما دنا مِنْ أَن تسيرَ رِكابُنا وكادتْ دموعي أن تسيلَ بمهجتي
ترحّلتُ من أرضِ الشآمِ ولم أبتْ كمابات بعضُ الركب في أرضِ «قبّةِ»[1]
وأصبحتُ في «ذاالنون»[2] صبّاً متيّماً وأصبحتُ ذا وجدٍ بأرض «كتيبة»[3] (٩٣ آ)

---

(١) قبة : صوابها (قنية) وهي من قرى حوران شمال (كتيبة) بناحية الصنمين بمنطقة ازرع ، على بعد (٣٠) كم شمال درعا (أذرعات) .

(٢) لعله يريد دير أيوب ، قرية بحوران زعموا أن أيوب صاحب الحوت كان بها وبها ابتلاه (انظر : مراصد الاطلاع ٢ ــ ٥٥٢) .

(٣) كتيبة : جنوب قنية بناحية مركز منطقة درعا ، على بعد (١٩) كم من درعا .

وعيني بتقطير «المُزَيْرِيب» [١] جانست   تقاطرَ دمعي مُذْ تَوالتْ وَوَلّتِ

ومدّتْ سريعاً بالسرى «أذرعاتها» [٢]   فلاحَ لها نورٌ «بمفرق» [٣] جبهة

ومرّتْ على «الزرقا» [٤] ففاضت عيونُها   وحلّتْ من «البلقا» [٥] فؤاداً فأرْوَتِ

وقلعة «قطران [٦] الطريق» تأوّهت   لذلك نيراناً من «الجوف» [٧] أ أَلْقَتِ

وأرض «الحسا» [٨] فيها الحشا زادوَقْدُه   فأحرق حتى عشب أرضٍ عزيزةِ

وبت «مَعاناً» [٩] حيث بتّ معاينا   لوجدٍ وتبريحٍ وشوقٍ وفرقةِ

[١٠] | وبالجملة فقد كان من محاسن الزمان . ولو بلغ من العمر مبلغ أبيه ، لفاق كلّ فاضلٍ نبيه ، لكنّ الدهرَ أسرع بأخذه وهو شاب ، وما ابيضّ عارضُه ولا شاب . فعليه الرحمةُ والرضوان ، من الملك الرحمن | [١٠] .

---

(١) مزيريب : غرب درعا وتبعد عنها (١٥) كم ، وكانت من منازل ركب الحج الشامي .

(٢) اذرعات : مدينة في حوران تبعد عن دمشق ١١١ كم جنوباً ، وهي درعا اليوم ، وهي مركز محافظة حوران . (انظر التقسيمات الإدارية ص ٢٠) .

(٣) مفرق : تقع على الطريق ما بين درعا وعمان في شرق الأردن .

(٤) الزرقاء : بلدة بناحية معان (معجم البلدان) وهي في المملكة الأردنية اليوم .

(٥) البلقاء : كورة كانت بين الشام ووادي القرى قصبتها عمّان (معجم البلدان) .

(٦) قطران الطريق : وهي (قطرانة) في الأردن وهي محطة على طريق القطار دمشق ـ المدينة ، وعلى بعد (٣٢٧) كم من دمشق و (٩٧٦) كم من المدينة .

(٧) الجوف : ناحية في شمال جزيرة العرب على الحدود السعودية الأردنية قاعدتها دومة الجندل .

(٨) بالفتح والقصر موضع قرب الكرك أظنه وادٍ (معجم البلدان) .

(٩) مَعَان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء (معجم البلدان) .

(١٠) ما بين الخطين ساقط من هـ ، ب .

٧٩

ابراهيم [١] بن أبي اليمن الحلبي البتروني

فاضلٌ وابن فاضل ، كاملٌ وابنُ كامل . أنشدني له الفاضلُ العلاّمة لطفي چلبي الشهير بابن المنقار الحلبي ثم الدمشقي مضمّناً ، في منزلي بدمشق ، سنة اثنتيْن وعشرين بعد الألف من الهجرة | النبوية ، على صاحبها ألفا ألف صلاةٍ وتحيّة | [٢] :

ولي [٣] رشأٌ أحوى إذا مَاس في الرُّبى ... وهزّ قواماً منه تحتجبُ القُضْبُ

علقتُ به حتّى هلكتُ صبابةً ... ومَنْ ذا يرى هذا الجمالَ ولا يَصْبُو

ولوالده الشيخ أبي اليمن على ما أنشدنيه المذكور في التاريخ المزبور :

يلومونني في حبّ مَنْ بجماله ... صَبَوْتُ ولا لَوْمٌ عليَّ ولا عَتْبُ

وكيف يلوم العاذلون أخا الهوى ... ومَنْ ذا يرى هذا الجمال ولا يصبُو

---

(١) هذه الترجمة كتبت مرتين متتابعتين في هـ .

(٢) ساقط من ب .

(٣) ب ، س « وبي » خطأ .

٨٠

سيدي الشيخ ابراهيم الحلبي
الشهير بابن الملا ّ[١]

هو الشيخ الفاضل ، جامع أشتات الفضائل ، الأصيـــلُ العريق ، وارثُ علومِ الأسلاف بالتحقيق ، نتيجةُ البيت القديم ، صاحب الفضل الجسيم . اجتمعتُ به لما وردتُ الى حلب المحروسة في سنة سبع عشرة بعد الألف ، فتفضّلَ علينا بلطفه ، ولإحسانه أولى . وكتب إليّ أوّلاً هذا اللغز في حسن رعاية لإسم الفقير ، وهذا نظمه الخطير ، وكتب قبل النظم قوله :

هذا ما سمح به الخاطرُ الفاترُ ، مُهْدِياً ذلك الى العلاّمة الفهامة ، منِ افتخرتْ به على الأوائِلِ الأواخرُ . والمرجو منه والمسئول ، الإقبالُ عليه تفضّلاً والنظرُ اليه بعين القبول .

قال ذلك وكتب مَنْ لا يُذْكَرُ بين أهل العلم والأدب ، ابراهيم بن أحمد بن الملا تغمده الله برحمته ولوالده وأولاده . (٩٣ ب) ولأحبابه وأحفاده . آمين . آمين .

---

(١) هـ ، ب « الشيخ ابراهيم الشهير بابن الملا الحلبي » . وهذه الترجمة المثبتة هنا أوسع بكثير مما هي عليه في هـ ، ب . وهي مبدأ في هـ كما يلي : « هو ابراهيم الذي ورث الفضائل ، كابراً عن كابر ، وروى خبر الفتوى ، عن جهابذة أكابر . حجّ في سنة عشرين بعد الألف . . . » وقوله حجّ في سنة عشرين سيأتي في ترجمتنا فيما بعد . وكل ما ورد هنا قبله فهو ساقط من هـ ، ب .

عفا الله ما مدح حب بَسَنْ بل فرضُ عَيْن والوجه فيه حسن
فعينُ فرضٍ حمــدُ مولىً أتى عبداً تَمَنّى طَيْفَه في الوَسَنْ
فمرحباً أهلاً وسهــلاً بمَنْ قد عقد الألسنَ منه اللَّسَنْ
قدمتَ بالأيمان واليمـن إذ قديمَ فَضْلٍ كنتَ في كلّ فن
لكنّني عن سوقِ شوقٍ بدا مِنيَ رمزٌ فيه لُغزٌ رَعَن
فانعم وأمعن اين يحلو فمن سواك نرجوه لذا القَصْدِ مَنْ
يا عَلَمٌ مفهومُــه عالمٌ ولفظُه بالفضلِ منــه اقترن
أبعاضُه في الحسن قد رُكِّبَتْ وذكرُه في كلِّ قطرٍ حَسَن
وآخرٌ مقلوبه المستــوى صحف بالمدح بنسخٍ إذن
وإن تشقَّ قلبـه تَلْقَــهُ نَجْساً كـذا في سرّه والعَلَن
وحرفُه الثاني إذا أنت قــد اسقطتَه مع ذا ترى ذاكَ حن
فهل لخــلٍّ حلٌّ اغزٍ أتى وأنتَ أوْلى مَنْ بذا الحلّ مَنّْ
بقيتَ آدابَ الأُلىٰ مُحْيِياً منهـا فُروضاً مُحِيَتْ والسُّنَنْ

فكتَبْتُ إليه الجواب بعون الملك الوهاب . وقد اجتَنَبْتُ الإجابة على أسلوب رويّه ، لكن الرويّ المقيّد يَرِدُ فيه الكلامُ مختلاً ركيكاً فاسداً بحسب قبول الطبيعة المستقيمة . فأجبتُه في رويّ النون ، لكن من بحر البسيط ، مع تحرّكِ حرف الرويّ ليرد النظم فيه مستقيما .

وقد سبقني الى هذا الصنيع بعينه الشريف الأجَلّ أبو محمد الرضا الموسوي الفاضل ذو المجدين وصاحب المنقبتين ابن الشريف الأجلّ السيد الحسنُ بن ابراهيم الحسيني البغدادي رحم الله روحه ، ونوّر ضريحه ، عندما كتبَ اليه الأديبُ البليغُ أبو اسحاق الصابي الشير بابن هلال قصيدةً من البحر الطويل ، لكن أورد نظمه على قافيةٍ مقيّدةٍ ، فجاء نظمه ركيكاً فغيّر الأسلوبَ الشريفُ في نظم الجواب .

فأما قصيدةُ أبي إسحاق الصابي فمطلعها :

أبا كُلّ شيءٍ قيل في وصفه حَسَنْ ‏ ‏ ‏ لذلك يُغني من كُناك أبا الحسن [1]

وأما جواب الشريف الرضيّ فمطلعه :

دَعْ من دموعِكَ يومَ البيْنِ للدِّمَنِ ‏ ‏ ‏ غداً لدارِهمُ واليومَ للظُّعُنِ [2]

واعتذر اليه بما اعتذرتُ به .

وهذا جوابي :

سِرّي غدا بدموع العين كالعلنِ ‏ ‏ ‏ وكان سِرّاً قُبَيْل البين لم يبِنِ

وأظهرتْ زَفَراتي ما أكتّمه ‏ ‏ ‏ لَيْتَ الهوىٰ زال عن قلبي ولم يكنِ

بعضي لبعضي مذيعٌ ما يُستّرهُ ‏ ‏ ‏ فكان طرفي لقلبي جالبَ المِحَنِ

يا منزلَ الحيّ حيّاكَ الهنا وبكتْ ‏ ‏ ‏ على طُلولك أجفانُ الحيا الهَتِنِ

(٩٤ آ) كم في فنائك من وقتٍ نعمتُ به ‏ ‏ ‏ وليلةٍ أخرجتْ من ناظِري وَسَني

---

(١) انظر القصيدة في رسائل الصابي والشريف الرضي ص ٢٧ وفيه :
إلى ذاك ينحو من كناك أبا الحسن

(٢) انظر القصيدة في رسائل الصابي والشريف الرضي ص ٣٢ .

ما إنْ نسيتُ زماناً فيك قد ضحكتْ ثغورُه كابتسام الزهر في الغُصُنِ
والدهرُ يضحك لي بالسعد مبتسماً وكان بالوعد قبل اليوم يمطلني
دهر مضى بر بيب في الصبا قشب ونسمة الحظّ في الأسحارِ توقظني
ما إنْ أسفتُ على ما كان حين مضى ولا على سكني في ذلك السكنِ
يا ليت شعري وهل في ليت لي أربٌ هل يسمحُ الدهرُ لي بالجمع في وطني
والأذنُ تسمعُ ما تهواه من فرحٍ والعينُ تُبْصِرُ ما تختارُ من حَسَنِ
أبى فؤادي سوى ذكري لما سلفتْ من الليالي وأشواقي تؤرّقُني
سقاكِ دفقُ الحيا مغنى الهوى وعلتْ على الممالك من مصرٍ ومن يمنِ
ولا عَدَتْها غوادي المُزْنِ وانسكبت دموع عيني بما تربو على المُزَنِ
وحيث كان بعيني سحب مدمعها فكيف حملي يداً للسحب تُثْقِلُني
إذا سقى الدمعُ أطلالَ الديار فلا أكونُ ممن يرى للسحب من مِنَنِ
دِمشقُ داري وأوطاري بساحتِها أدواحُها منعشاتُ الروحِ في البدنِ
وفي مواطنها ما رُمْتَ مِنْ مِنَحٍ تُريح روحي من الأكدارِ والحَزَنِ
أقمتُ في ظلّها جذلانَ أرفل في أرجائها خالعاً بين الورى رَسَني
لا أخْتَشِي من رقيبٍ ما يُزخرفُه من الحديثِ الذي يدعو إلى الفِتَنِ
والآن زالت ومالي بعد فرقتها سوى المديح لربّ الجودِ والفِطَنِ

للكاملِ المرتضى في كلِّ ما رضيتْ ... به المكارمُ من فرْضٍ ومن سُنَنِ
يعطي[1] الهدى والندى والمجد مَنْ غُرستْ ... أُصولُهُ في حِمى الأفضال والَّسَنِ
برهانُ كلِّ دليلٍ للكمال فقد ... حاز الفضائل من بادٍ ومكتمنِ
أرسلتَ تسألُني عني فواعجباً ... ممن يُسائلني بين الأنام عَني
أوضَحْتَ لغزكَ تسهيلاً لسامعه ... فها هو اليوم عن كلِّ البيان غني
اللّفظُ بين الورى إنْ رُمْتَهُ حَسَنٌ ... لكنّ معناه عندي ليس بالحسنِ
من أين لي حُسْنُ معنىً يبتغي ويُرى ... والروحُ في غربةٍ والجسمُ في محَنِ
أُعانِقُ الهمّ في ليلٍ وأسفحُ مِنْ ... عيني دموعاً بلا إثْمٍ تُغَسِّلني
(٩٤ ب) قد أشرقَ الحسْنُ عقداً في محاسنكم ... فصارَ ذلك مثل القرط في أذني
جاءت قصيدتكم للخلّ ضامنةً ... ما يونق النفس من عجبٍ ومن دَرَنِ
أخرجتَها من محارِ الفكرِ غاليةً ... فأصبحتْ دُرَراً تغلو بلا ثمنِ
جازتْ إلى خاطري عفواً ومتّعني ... منها الزمانُ بأوصافٍ تجمّلني
وقد وجدتُ بها صفوَ الودادِ على ... عَرْفِ الورود وطيب العيش في زمني
فاسلمْ وكُنْ سابقاً في كلِّ مكرمةٍ ... والناسُ من بعدكم تمشي على السنن
والبس جديداً من الحظّ الجديدِ وسرْ ... الى المكارم مأموناً من الإحَنِ
ما لاح برقٌ وما هَبّ النسيمُ وما ... ناحتْ حمامُ اللّوى صُبْحاً على فَنَنِ

(١) في الأصل : يهب ، وبها لا يستقيم الوزن .

قلتُ : وكان جوابي المذكور تأخّر عن الشيخ ابراهيم وتقدّم مني جواب للشيخ أبي الوفاء ابن شيخ الإسلام الشيخ عمر الفرضي وسيأتي ذكره . فكتب إليّ الشيخ ابراهيم المذكور هذه الأبيات عاتباً على تأخّر جوابه فقال :

سألتُكَ أيّها المولَى المهابُ ‏ ‏ وكان القصدُ منك هو الجوابُ
لنُحيي سنّةَ الأدباء قِدماً ‏ ‏ ويُفْتَحَ بيننا من ذاك بابُ
ونسقي من رُبى الآداب ما قَدْ ‏ ‏ ذوى شحّاً به سحّ السحابُ
وتحريكُ الطباعِ بعذبِ نَظْمٍ ‏ ‏ له يحلو السماعُ ويُستطابُ
فلم أرَ جاءني منكم جوابٌ ‏ ‏ فزاد بِيَ الجوى والالتهابُ
فأشبهتُ الصدى قالاً وحالاً ‏ ‏ وكنتُ أنا المُجيب كذا المُجابُ
إذا هضمٌ لقدري ليت شعري ‏ ‏ وإلا البالُ مَشغولٌ مُعابُ
وليس العزّ أولى باعتناء ‏ ‏ اترجيحٍ ولي مَعْ ذا عتابُ
فحقّ بأن أقول مضمّناً ما ‏ ‏ لبعضهمُ وذلك لا يعابُ
وفيه بعضُ تغييرٍ للفظٍ ‏ ‏ وتعبيرٌ به المعنى صوابُ
إذا انقطع الخطاب فليس ودّ ‏ ‏ ويبقى الودُّ ما بقي الخطابُ

فكتبت اليه معتذراً عن جوابه ، مجيباً عن عتابه ، وتأخير خطابه :

عتابٌ منكَ قولٌ مستطابٌ ‏ ‏ وفرض أن يُراد لك الجوابُ
أيرضى عاقلٌ فَطِنٌ لبيبٌ ‏ ‏ بأنّكَ عن سؤآلكَ لا تُجابُ

معاذَ الله يا ابن شهابِ فضلٍ   علا حتى دنا منـــه الشهابُ
إلى نحوي نظــام منك أعلى   وأعلى أن يقاس به الشبابُ
نظـامٌ ما نظـام الدرِّ يبــدو   على نحرٍ تُزان به الكعــابُ
نعم مـــرآة فك النظم تخفى   بكربةٍ غربةٍ وهي الحجــابُ
(٩٥ آ) وقد يستفتح الأبواب مثـــلي   فيُغْلَقُ دونـــه في السعي بابُ
فصبراً فالغنـاء إلى افتقـــارٍ   ومرجعُ ما نعمّره خــرابُ
ومَنْ هو مثلكم في وصفِ فضلٍ   مناهلُه يروقُ بهــا الشرابُ
ومَنْ هو يدّني منكمْ بدعوى   مزخرفةٍ وليس لها صوابُ
ظننتم بالفقير ظنونَ خــيرٍ   وجاء بذاك لي منكم كتــابُ
وما أبديتُ في عمري قصوراً   فينشأ عنه في الدنيا عتــابُ
أنا الراعي عهودَ الصّحْبِ دهري   وعُذْري ما شكا منه الصِحابُ
نعم أنا حافظٌ ألطــافَ خِلّي   بهــا عندي وإن قلّت حساب
ومَنْ يرعى ودادَ الخلّ مثلي   ويحفظُه ولو نُسي الثــوابُ
فياموليَّ رقى رتبَ المعــالي   وأضحى دونَ مرتبه السحابُ
لكَ المجدُ القديم يرفّ منـــه   على العذباتِ نشرٌ مُسْتَطابُ
ومنك كمالُ من يبغي كمالاً   وأوصافُ الدواء لمن يصابُ

لقد مَلَأتْ دفاترَ كلَّ مدحٍ مناقِبُكم وليس بها نقابُ
جَرَرْتُمْ فوق مَتْنِ النجم ذيلاً على مَتْنِ السحاب له انسحابُ
فدام لكم ثناءٌ ليس يُنسى ومِنْ سَعْدِ السعود لكم خِطابُ
مدى الأيامِ مالاحت بروقٌ وما همعت بناديكم سحابُ

قلتُ : وقد كان الشيخ ابراهيم المذكور عرض عليّ كتاباً منظوماً نظمه وهو كتاب « الدُّرَرُ والغــرر » في مذهب الإمامِ الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه . وهو شرحٌ ومتن . ونظمها معا . وعندي أنه لو نظم المتن فقط لكان أولىٰ وأحْرَىٰ ، وكان ينفع في الدنيا والأُخرىٰ . لكنه اختار ذلك فنظم من بحر الرجز ، ولعلّ الله أن ينفع به ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

ولما عزمت على النظم المذكور لوّح بطلب الكتابة عليه ، على عادةِ العلماء في تعريف ما يقفون عليه من المصنفات . فكتبتُ هذه الأبيات من بحر الرجز طالباً للمناسبة ، فإنّ نظمه للكتاب المذكور من بحر الرجز أيضاً فقلت :

حمداً لمن جلّ عن الأشباهِ سبحانَه من آمرٍ وناه
تقدستْ صِفاتُه القديمهْ وعظمتْ هباتُه العميمه
فهو الإلٰهُ الصَّمَدُ القديمْ وهو الرؤوفُ الخالقُ العظيمُ
ثم الصلاةُ والسلامْ سرمداً على شفيعِ المذنبين أحمدا
وآلهِ وصحبه الكرامِ ما ظهرت عجائبُ الأيّامِ

وَبَعْدُ فالعلمُ عظيمُ النفعِ   منــوِّرٌ لناظرٍ وسَمْعِ

قد اصطفى اللهُ له الخيارا   وأظهرَ الحقُّ به الأسرارا

فعالمٌ من أمّة الرسول   محمدٍ مثلُ النبي الجليلِ

كما أتى في صادق الأخبارِ   مسلَّماً من وصمة الإنكار

وإنّ مِمّن حفظ العلوما   وحقّق المنطوقَ والمفهوما

العالمَ المحقّقَ المِنْطيقــا   مَنْ لم يَزَلْ بسؤددٍ خليقا

نجلَ الموالي <حاية> الأيّامِ   عينَ المعالي واحِد الأنامِ

هو الكريمُ ابنُ الكريم الفاضلُ   وهو الذي دانَتْ له الأفاضلُ

فاقَ على الناس بحسنِ الفهم   وكثرةِ العلمِ ووَصْف الحلمِ

وهو الشهيرُ في حمى الشهباء   بالجودِ والكمالِ والصّفاء

والدُهُ أحمدُ نجلُ المــلاّ   وهو الذي لكل فضلٍ أملى

ونجلُه البرهانُ ابراهيمُ   وهو الجوادُ الصادقُ الكريمُ

ومَنْ غدا محرّر الأحكامِ   نَظَّمَ فيها عُمدةَ الحكّامِ

أبرزه عقداً من الجواهرِ   منوّراً في سائر المظاهر

دلّ على التحقيقِ للعلومِ   محرّر الحدودِ والرسوم

ليس به من خَللٍ حاشاه   محــرّراً مهذّباً أبداهُ

رأيتُه بحراً غزيرَ الدّرر — وفي سماء المجد شمس الغررِ

يكاد من عذوبةِ الألفاظِ — تشربُه مسامعُ الحفّاظِ

ليس له في دهره مثيلُ — وما له في لطفه عَديلُ

فهو فريدٌ درُّه الثمينُ — وهو بما نمدحُه قَمينُ

صفاتُه مثلُ النجومِ الزاهرهْ — وكالعقودِ المُثْمناتِ الباهرهْ

يمدحُه العدوُّ والصديقُ — ويبتغيه الضدُّ والرفيقُ

لا يبصرُ الناقدُ فيه عيبا — ولا يرى الحاسدُ فيه رَيْبا

فكلُّ ناطقٍ له مَدّاحُ — قد أنِسَتْ بلطفِهِ الأرواحُ

أقسمتُ بالله العظيمِ الباري — ربِّ البرايا مُظْهِرِ الأسرارِ

لقد أتى بالعَجَبِ العجابِ — وبَيّن القشر من اللّبابِ

وفاهَ بالتحقيقِ والصوابِ — مبيّناً نتائجَ الألبابِ

ولم يدعْ من قدرةٍ للبشر — في غررٍ نظّمها ودُرَر

ومذ وردتُ حلب الشهباء — حققتُ في مديحه الأنباء

وعندما رأيتُهُ بالبصر — علمت أنّ الوصف فوق الخبرِ

وشمتُه فوق الذي قد قالوا — وحقّ فيه الوصفُ والمقالُ

لأنّهُ محرّرٌ مهذبُ — منقحٌ مقرّرٌ مرتّبُ

فأسألُ الله تعالى رحمهْ — من جودِه وأن يديم النعمه

وأن يُديم نعمة المؤلفِ ويجزيَ الإحسانَ للمصنّفِ
وأن يديم رحمة الآباء مكثّراً مواهبَ النعماء
وقلتُـه في لحظةٍ مرتجلا مُعْتذراً من القصور خَجِلا
في حلب الشهباء دارِ الخير لا مَسّها طول المدى بضيرِ[1]
وبقيتْ عامرةَ الأوطانِ ما غرّد الطيرُ على الأغصان

قلت : وقد كان الشيخ ابراهيم المذكور قد عرض عليّ « شروح والده لمغني اللبيب » ، (٩٦ آ) وهو في الحقيقة من محاسن الآثار ، ولطائف الأسفار . وطلب مني ولده المذكور الكتابة عليه . فكتبتُ عليه هذه الأبيات مرتجلا :

لقد سعدتْ لواحظُنا بشرحٍ ينهّض همةَ الفَطِنِ اللبيبِ
حوى كلّ الدقائق والمعاني مُصيباً سهمه غرضَ المصيبِ
تَفَرّدَ بالمحاسن حيث أضحى كِتاباً جامعاً أدب الأديبِ
إذا اعتلّت فهومٌ من علومٍ يعالجها بأدوية الطبيب
بدايتُه نهايةُ كلّ فضلٍ نعم هو منتهى أصل الأريبِ

وعرض عليّ لنفسه كتابه الذي سبق ذكره ، وكتب عليه ما ظهر نثره . فأرسل إليّ قصيدة أخرى من نظمه ملتزماً للوزن والقافية من قصيدتي التي كتبتُها له جواباً . ورأيت تغيير نظام سؤال له صوابا . وهذا ما كتبه اليّ وعرضه عليّ . ومن خطه نقلت :

(١) الأصل : من ضير ، وجاء (في محيط المحيط) أن مسّ : (يتعدى الى ثانٍ بحرف تقول مسست الجسد بماء) .

لابدْعَ إذْ لجوابٍ منك لاحَ سنى ... إنْ قلتُ ياحسناً قدجاء من حسنِ

فكم جلا إذْ حلا لي أن أكرّره ... لمّا انجلى في حُلى الآداب من حزن

انزلتُه من سويدا القلبِ منزلةً ... وصنتُه في عيوني صَوْنَ مؤتمن

وقلت يكفيك ذا ممّن شغفت به ... مذكّراً مُؤنساً في السرّ والعَلَن

ولا أقول كمن قد قال من شجنٍ : ... (بالله ربّكما عوجا على سَكَني[1])

ألاّ أُجِلَّ رسولاً عزّ مرسلهُ ... وفي سويدا الحشا، لاعاد، إن أُصن

لله ما نشرتْ هذي الرسالةُ من ... مطويّ آدابِ أربابٍ أولي فِطَنِ

نعم رسائل اخوان الصفا سلفاً ... كذا، وفي خَلَفٍ من سابغ المنن

فهي التي تبتغي إكرامَ وافدها ... وصونَ شأنٍ لها عن شَيْنِ ممتهن

وللغنيّ من الآداب[2] لم أر من ... غبيّ طبعٍ حسودٍ ضيّقِ العَطَنِ

وما درى أنّ من بالفضل يكرمه ... مولاه حاسده ماضر إن يُهن

لكن خطابي لكفوٍ خاطبٍ فإذا ... خاطبت أعني بقولي وَاعيَ الأُذُنِ

فلا يعي كلّ ما يعني اللبيب سوى ... أبناء نوعٍ وجنسٍ من ذوي اللّوَنِ

---

(١) في الأصل « سكن » والحقيقة انها : سكني مع الياء ، وهي من أبيات جمعت بها أبيات للوأواء الدمشقي وجاء قبل هذا الشطر قوله : « فيا نسيماً وبرقاً هيجا شجني » ومفهوم ان الشاعر يقصد نفسه في الشجن والسكن .

(٢) أصل الشطر « وللغنى من الآدب كم أر من » والتصحيف ظاهر .

لا يعرف الفضل إلا من تعرّفه بالجد والرسم ممن قد وعى وغني

واحيرتي كم أرى للعلم مدّعياً وفي امتحانٍ لمعنى اللفظِ لم يُبِن

فهل جبانٌ بحقّ السيفِ قام وهل يقوّمُ الدرَّ إلاّ عارف السنن

فما احتيالي لهم ممن[1] جفا زمني أقام والخِلُّ لم يسعف ولا زمني

(٩٦ ب) إذْ كنت لم أرَه بي سالكاً أبداً إلا على عِوَجٍ عن أعدل السنن

والدهر مع فاضل كالريح مع سُفُنٍ وشاهدي قول ذي فضل وممتحن

وإنّ في بعضِ ألفاظٍ تخيّل لي تصرّفاً فيه عنه لم أكن بِغَني

[2](ما كل ما يبتغي ذو اللّبّ يُدْرِكه تجري الرياحُ على عكس اشتها السفن)

لكنّ عن ذا أسلّي النفس صرت بما شكاه من سلفوا من دائه الزّمِنِ

أقولُ عيبٌ قديمٌ ظاهرٌ علن وذاك داءٌ عقيمُ الطبّ لم يكن

وما أرى أنّ في شكوى الأنام له جدوى سوى بثّ حزن القلب والشجن

هذا وعدّ بنا عن ذا المجاز وعُدْ الى الحقيقة تلق الروح في البدن

هل هذه الدار دار المؤمنين لكيْ يصفو بها عيشهم من غصّةِ الفتن

وهل رأيتَ بها من كان ذا خطرٍ أو قد سمعتَ به خِلْواً من المِحَنِ

وهل بها مؤمنٌ إلاّ على سَفرٍ وهل بها غيرُ مسجونٍ ومرتهنِ

---

(١) في الأصل « من » .

(٢) واضح ان هذا البيت مأخوذ من بيت المتنبي :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ففيم هذا العنا والقطن مع كفن فغاية أو بقاء[1] بالمهات هني
فقد كفى واعظاً هذا لمتّعظ يقول قطني قُطْني أوْ كفى كفني

وكتب بخطه بعد تمام كتابة النظم : حُرِّر ذلك بعد أن نظمه وكتب الخَجِلُ الوَجِلُ بما جنى واكتسب ، ابراهيم بن أحمد بن الملاّ الشافعيّ العبّاسيّ الحلبي تغمده الله برحمته فرعاً وأصلا .

و[2]حجّ في سنة عشرين بعد الألف من جهة الشام . كان الفقير قاضياً بالركب الشريف الشامي ، وكان يكاتبني ويراسلني وكنت أُجيبُه عن مكاتبته وأراسله في مخاطبته .

ولما سافرتُ الى حلب الشهباء في سنة سبع عشرة بعد الألف لأمرٍ مُهِمٍّ ، وخَطْبٍ ملم ـ وذلك لإخبار الوزير الأعظم مراد باشا المرحوم بما صدر من علي بك ابن جانبلاط في دمشق ، وعدم موافقة عسكر دمشق له ، بل خالفوه وقاتلوه وقابلوه ـ وجدتُ ابراهيم چلبي المذكور في حلب . فسلّم عليّ في مكانِ نزولي وأضافني ، وحمل إليّ هدية . فلما صادفتُه في الحج كنت ألاطفه عندما أصادفه . ولعمري إنه لأهلٌ لذلك ، وإنه مِمّن سلك في طريق الصالحين أقوم المسالك . ووالده الشيخ أحمد مذكور[3] في تاريخنا هذا وله ترجمة خاصة ، وعلى بعض أفعاله الكريمة ناصّة .

وولده هذا شافعي كأبيه وجدّه ، لكونهم أكراداً واستقرّوا بحلب ، وصاهروا فصارت لهم أوقافٌ وصلوا اليها من بعض من انتسبوا اليه بالمصاهرة .

وقد كتب اليّ (٩٧ آ) هذه العبارة وما بعدها من الأبيات المسطورة ، وذلك قوله ومن خطه نقلت :

باسمه سبحانه ، نرجو إحسانه .

---

(١) الأصل : عيش ، ومعها لا يستقيم الوزن .
(٢) كل ما سبق ساقط من هـ ، ب .
(٣) هـ ، ب « ... الشيخ أحمد تقدمت له ترجمة خاصة »

يقول كاتبُ هذه الأحرف السقيمه ، الراجي من مولاه أن يكون على طريقة مستقيمه ، الحاج ابراهيم بن الملاّ ، أحمد الشهير بابن الملا . وفقه الله تعالى وسدّده .

هذه تجربة خاطرٍ فاترٍ من وَعْثاء السفر ، واستنطاقُ فكرٍ جامدٍ خامدٍ عسى أن يأتي بمُسْتَمْلَحٍ من نتائج الفِكَر ، للعرض على حضرة مولانا زبدةِ العلماء الموالي ، ونخبةِ أكابر الدين الأعالي ، أقضى القضاةِ العاملين بين العالمين ، البدريّ الحسنيّ ، الشهير كالبدر المنير ، بحَسَن افندي البوريني ، لا زال ملحوظاً محفوظاً بنظـــر أحكم الحاكمين . فذلك قولي فيه مادحاً :

أيا بدرَ دينٍ قد قضى فرضَ حجّةٍ وأصبح مرضيّاً لدى الحقّ راضيا

وزانَ قضاءَ الحجّ إذ كان مُسْنَداً إليه وعن ماشَانَهُ مُتغاضيا

فيا حَسَناً في حَالتَيْه ومُحسِناً بعدلٍ وفضلٍ صرت للحج قاضيا

قلتُ : وقد حكم بذلك البيت الثالث لطافةٌ لا نظير لها . وذلك أنّ قضاء الحج بالنسبة إلينا معنيان : قضاءُ النسك لأنّ حجّنا هذا كان حجّ الإسلام ، والقضاء بين الخصوم في الركب الشامي ، وفيه أيضاً اللفُّ والنشرُ حيث قال : بعدلٍ ، وهو يرجع للقضاء ، بمعنى الحكم بين الخصوم . وقال : بفضلٍ ، وهو يرجع للقضاء ، بمعنى قضاء النسك . وقد كتبتُ له الجواب مرتجلاً ورسولُه واقف . غير أنّ جوابي بتمامه ليس في خاطري وإنما استحضرتُ منه هذين البيتين وهما من جملة الجواب :

فياسيّدي الأعلى ويا نجلَ سيّدي غدوتُ لأثواب الشبيبةِ ناضيا

وجئتُ لغسلِ الجسم من ماء رحمةٍ فياليتني لا كنتُ في الركب قاضيا

انتهى .

وبيني وبينه مراسلة[١] كانت قد صدرت سابقاً حين رحلتي إلى حلب في سنة سبع عشرة بعد الألف ، والكلُّ مذكورٌ في « رحلتنا الحلبيّة » . بعون الله رب البريّة .

وهو الآن من أحسنِ خلقِ اللهِ سلوكاً ، وأفضلهم وأكملهم وأعلمهم . وفّقنا الله تعالى وإياه ، لما يحبُّه ويرضاه ، إنه سبحانه سامع الأصوات مجيب الدعوات .

والشيخ ابراهيم هذا من محاسن أهل حلب وممن قضى من طلبه الأرب . وقد بلغني أنّه منزوٍ عن الناس ، وأنه يرى الوحشة بالانفراد خيراً من الجمعيّة والاستئناس . وقد نَظَمَ الكتاب الشهير بين فقهاء الحنفية « بالدرر والغرر » المنسوب للمولى مولانا خسرو أفندي من بحر الرجز | كما تقدم [٢] | ورأيته بحلب . وقرّظتُ له عليه مع أنه شافعي . ولعمري إنه دخل في لجّة النظمِ بالتعرّض لنظمِ الكتاب المذكور ، مع أنّ العادة في ما يُنظم أن يكون مختصراً مفيداً . ثم إنّ الغالب عليه معرفة الآداب ، وتحقيق البلاغة وفصل الخطاب . وهو الآن مقيمٌ بحلب الشهباء . أسمعنا الله عنه محاسن الأنباء .

---

(١) ب ، هـ « مراسلات » .

(٢) ساقطة من هـ ، ب .

٨١

الشيخ ابراهيم بن كسباي المهادي المقري

هو [1] الشيخ الذي وقع الاجماع بدمشق على أنه مقرئها درايةً وروايهْ ، وأنه المطّلعُ على وجوهِ القرآءات الى الغايهْ . وكان مشاركاً [1] في غير القرآءات من بقية العلوم كالنحو والصرف ، وكان يتكلّف نظمَ الشعرِ فيقعُ شعرُه مضحكاً . سمعتُ من لفظه مواليا بلسان التركيّة ، وهذا من العجب العُجاب ، الذي لم يُسمع بمثله فيما مضى من الأحقـــاب . بل لا يتخيلُه عاقلٌ ولا مجنون ، ولعمري إنّ الجنون فنون . والمواليا هو قوله يهجو امرأة بدمشق ، وكان متلفتاً الى طاقات الغُرَفِ بدمشق متطلّعاً الى صواحب يوسف وعواديه . ووقع من ذلك في البلاء الذي لا يُقال مَنْ عثر فيه . وذلك المواليا هو ما وعدنا به :

بِرْبَقْسَماطْجِي قِزى حَظْ ايتْمَـــدِمْ آنْدَنْ
آيْ بيقْلِي | سمَقْلِي نيجَهْ اُولُورْ شَرْدَنْ
دُوغُوردي كَدِى سَنْسَنَوْرْسَنْ بُواُوغُلْ سَنْدَنْ
سَكْسَانْ سَكِزْ | كَرّدَنْ حَاصِلْدَخِى بَنْدَنْ [2]

---

(١) تبدأ الترجمة في هـ ، ب بما يلي : « هو الشيخ الفاضل العالم الكامل المقرئ المحدث . ولد بدمشق الشام ، ونشأ في طلب العلم . وقرأ على شيخ الإسلام الطبي الكبير المتقدّم ذكره . ومهر في علم القراءات حتى صار منقطع النظير في ذلك العلم . وكانت له مشاركات في غير القراءات ... » .

(٢) ومعناهـــا :

لم آخـــذ حظاً من بنت بائع الكعك
ذي الشاربين المقوسين كالهلال وهو غير شرير
لقد ولدت هرة مولوداً يشبه صاحبهـــا
وصاحبها قد حمل مني ثماني وثمانين مرة

وكان قليلَ العقل قطعاً ، بل كان عديمه . لأنّه ذكر بيتين ما أظن أن في الدهر أحداً لا يعرفُهما ونَسَبَهما الى شعره ، وزاد في واحدٍ من المصاريع ألفاظاً تُخْرِجُه عن الوزن ، وكتبهما بخطه . ونسبتُهما الى نفسه بضبطه . وكانت كتابتُه لهما في مجموع المرحوم القاضي محب الدين الحموي نزيل دمشق الآتي ذكره إن شاء الله تعالى . ولعمري إن للقاضي المذكور اطّلاعاً على الشعر الخفيّ ، فما بالك بالجليّ . وهذان البيتان من أجلّ الجليّ ، وكتابتُهما عجيبة ، والزيادةُ فيهما ما يخرجها عن الوزن أعجب ، وكونها في مجموع هذا الرجل الموصوف بكمال الاطلاع من أعجب العجب . وهما قول الشاعر :

مَثَلُ | الرزق | [1] الذي تطلبُه مثل الظّلّ | الذي | يمشي معك
أنت لا تُدْرِكُه متّبعـاً وإذا وَلّيْت عنــه تبعك

| الزيادة انه كتب المصراع الأخير : وإذا أنت قد وليت عنه تبعك [1] | .

والمجموعُ موجودٌ الى الآن عند أولاد المرحوم القاضي محب الدين . وكان يعرض ذلك على غالب الطلبة عند دخولهم اليه بمكانه . وهو ابن عم شيخنا العماد الحنفي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى .

وكسباي جدّه كان من العسكرية بدمشق في زمن سلطنة الجراكسة . (٩٨ آ) وهو في الحقيقة كان صالحاً في حدّ ذاته ، تبع في آخر عمره الصلاح ، وسلك طريقَ الفلاح . ولازم تدريس القراءات في الجـامع الأمويّ غالباً ، ودرّس بدمشق في العادليّة الكبرى ، وكان ذلك بطريق الفراغ مني له لما درّستُ بالمدرسة الناصريّة الجوّانيّة .

---

(١) ما بين الخطين القائمين ساقط من هـ .

وتوفي رحمه الله تعالى | بدمشق | [١] في سنة سبع عشرة بعد الألف في ما أظن . ودُفن بالقرب من قبر أوْس بن أوس الصحابي في مقابلة المدرسة الصابونيّة رحمه الله تعالى .

وخطب مــدّةً طويلةً في المدرسة السيبائية [٢] خارج دمشق في باب الجابية .

قلتُ : وكان شيخُنا الطيبي الصغير قد توفي وانحلّت عنه وظيفةُ مشيخة القرّاء بالجامع الأمويّ . فطلبها الشيخ ابراهيم المذكور ، والشيخ شمس الدين الميداني ، وتنازعا في طلبها عند قاضي قضاة دمشق عبد الغني أفندي الرومي [٣] . وكان القاضي المذكور عالماً كبيراً ، لكنه كان لا يُحسن القرآءات المختلفة كما اعترف بذلك لمّا تنازعا بين يديه . فأرسلها الى منزلِ المرحوم شيخ الإسلام الشمسِ بن المنقار الحلبي الحنفيّ ، نزيلِ دمشق ، رحمه الله تعالى ، ليفصل بينهما ولينظر الأحق فيها [٤] بهــذه الوظيفة . ففتح لهما بحث التعريف للقرآءة التي يكون ما وراءها شاذاً في اصطلاح القوم . وهذه المسألة لها طَرَفٌ أصوليٌّ وطَرَفٌ من جانب القرّاء . وصاحبُنا الشمس الميداني يجيدُ الفقه وأصوله أكثر من الشيخ ابراهيم . فلما استفتحا الكلام على ذلك جرّه الشيخ شمس الدين الى الجانب الفقهي من جهة أن المصلّي لو قرأ في صلاته بالقرآءة الشاذة هل تصحُّ صلاتُه أم لا ، وهل تجوزُ القراءةُ بالشاذّ خارج الصلاة أم لا . وهلمّ جرّا .

---

(١) ساقط من هـ .
(٢) نسبة الى سيباي نائب الشام . انظر الدارس ١ : ٥٣٠ .
(٣) انظر الباشات والقضاة ص ١٨ و ١٩ .
(٤) هـ « منها » .

فوقف الشيخ ابراهيم وظهرت عليه أمارات الانقطاع : فندّد به وقرّعه ووبّخه المتداعي لديه الشمس المنقاري . وكان في الباطن لا يحبه ، لأنه كان قد كتب اليه قديماً قصيدة مطلعها :

أمنقار درٍّ في العلا عاد مُشرِفا [١]

فتخيّل من الذمّ قوله [٢] « منقار دُرٍّ » . ثم بعد ذلك أرسلت إلى الشيخ شمس الدين المنقاري ورقة شفاعة تتضمن مدح الشيخ ابراهيم بعلم القرآءات وذكره بالفقر وكثرة العيال ، وذلك لاستحقاقه في حدّ ذاته لذلك ، ولِقُرْبِهِ من شيخنا العماديّ الحنفـــي قدّس اللهُ سرّه . فأرسل الى قاضي القضاة يقول له : إنّ الصوابَ عندي أن تُشرِكَ بينهما في الوظيفة . فإنّ كلاًّ منهما عنده صفة استحقاق لذلك . ففعل ما أشار به وقسمها بينهما . وهي الى الآن مقسومة ، وما وصل الى واحدٍ منهما إلاّ ما قُسم له ، والرزقُ مقسوم ، والمقدّر مَحتوم . والله تعالى أعلم . (٩٨ ب)

---

(١) هـ « مشرقا » .
(٢) الأصل : بقوله .

٨٢

الشيخ أسد الدين بن معين الدين التبريزي
ثم الدمشقي الشافعي

(١) قدم من تبريز مع والده الخواجا معين الدين التبريزي الى ديار بكر ، ثم الى دمشق الشام . فسكن مع والده في صالحيّة دمشق مدة ، وترك ولده في دمشق وسافر الى باب السلطنة قسطنطينيّة . فصدرت من أبيه أحوال مخالفة لقانون الاستقامة من تلبيس في المعاملة ، وتزوير في المكاتبة في زمن وزارة الوزير الأعظم رستم باشا . فلزم أن الوزير المذكور

---

(١) تبدأ الترجمة في هـ ، ب بما يلي :
« الشيخ العلامة ، الكامل الفهامة ، فريد زمانه ، ووحيد أقرانه . الشيخ أسد الدين بن معين الدين التبريزي .
« ورد دمشق مع والده معين الدين المذكور من تبريز الى ديار بكر ثم الى حلب ثم الى دمشق ، واستوطنها ، وسار والده الى قسطنطينية دار السلطنة العثمانية حماها الله تعالى من كل بليّة . فجرى عليه أمر اقتضى صلبه ، ولم يجد خلاصة من هاتيك النكبة الصعبة . واستمر ولده أسد الدين المذكور بدمشق الشام ، فقرأ بها على العلماء الأعلام ، ولازم تحصيل العلم على العلماء الكرام ، ومهر في العربية والبلاغة والكلام . وصار مدرّساً بعدّة مدارس ، وقرأ عليه بها كل طالب دارس . الى أن درس بالمدرسة الشامية البرّانية بعد موت شيخنا الشيخ اسماعيل النابلسي مفتي الشافعية بدمشق . كتب إليّ وكتبتُ اليه ، وردّ عليّ ورَدَدْتُ عليه . فمن جملة ما كتبتُ . . . . »
وقوله فمن جملة ما كتبتُ اليه . . سيأتي في ترجمتنا فيما بعد . وكل ما ورد هنا في النص قبله فهو ساقط من هـ .

عرض أمره على حضرة السلطان فأمر بصلبه . فصُلِبَ في قسطنطينيّة . وورد خبره إلى ولده ملاّ أسد ، فقطع رجاءه من غير صلب . فشمّر عن ساق الاجتهاد ، ولازم الاشتغال فأفاد واستفاد . واشتهر صيتُه بالفضل بين العباد ، في جميع البلاد . حتى إنه كان يُضرب به المثل في فصاحة اللسان العربيّ مع أنه كان مولده في تبريز ، وكان أعجميّ الأصل . وكان يُحسن الألسنَ الثلاثة العربيّ والفارسيّ والتركي . وكان نظمُه بالعربيّة وكتابته بها فوق العربي الأصيل ، بحيث أنه لا تشمّ منه في ذلك رائحة التعجّم أصلاً .

كتب إليّ وكتبت اليه وراسلني وراسلتُه .

قرأ العربية والمعاني والبيان على المحقّق الشيخ علاء الدين بن عماد الدين الآتي ذكره إن شاء تعالى . وقرأ الفقه على الشيخ نور الدين السنفي المصري نزيل الشام . وقرأ بعض الفنون على شيخ الإسلام الشهاب الطيبي الكبير المتقدّم ذكره . وقرأ المنطق على المحقّق الشيخ أبي الفتح الشَّبِسْتَري(١) نزيل الخانقاه الشُمَيْصَاتِية (٢) . ودرّس وأفاد وأفتى وحرّر ، ونظم ونثر ، ودرّس في دمشق بعدّة مدارس منها الناصريّة البرانية ، ودرّس في بقعةٍ بجامع بني أميّة . قرأ عليه الشيخ أحمد المنقاري السابق ذكره ، وكان زوج عمّته ، واستفاد منه كما سبق ذكره . وقرأ عليه الشيخ محمود العدوي خطيب الماردانيّة (٣) بصالحيّة دمشق ، وكذا الشيخ محمود الدوماني الصالحي . وكان ملازماً على الإقرآء بالجامع الأمويّ . انتفع به خلقٌ

---

(١) نسبة الى شَبِسْتَر قرية في آذربيجان قرب تبريز .

(٢) انظر النعيمي ، الدارس ٢ : ١٥١ .

(٣) انظر النعيمي ١ :   ، وهي من مدارس الحنفيّة .

كثيرٌ من الطلبة لأنه كان ملازماً على الإقراء في غالب أيّامه . وحصل له نفعٌ كبيرٌ من مصاحبة المرحوم الأمير ابراهيم بن منجك السابق ذكره . فوقف عليه وعلى أولاده وذرّيته بيتاً حسناً لا نظـير له في باب الجامع الأموي من الجهة الشرقيّة ، ووقف عليه حوانيت من محلّة مَيْدان الحصا [١] ، وبستاناً في جهة الشَّرَفِ الأعلى ، في مقابلةِ القصر الأبلق [٢] . وكان إحسانُه اليه في حال حياته متّصِلاً لا منفصلا . ومَدَحه بعدة قصائد توجد في تذكرته . وحصل له في آخر عمره نوعٌ من التغفل أضرَّ بإدراكه كثيراً . فمنهم من نَسب ذلك لطعم النساءِ ، ومنهم من نسبه الى سحرٍ ، ومنهم من نسبه إلى كبر سنٍّ ، والله أعلم بحقيقة حاله .

كتبتُ اليه في سنة إحدى (٩٩آ) وتسعين وتسع مئة هذه القصيدة اشارة الى نكاية صدرت من أبناء الزمان [٣] | فمن جملة ما كتبت اليه مادحاً لأمر اقتضى ذلك ، وهو أنه سلك من مدحي عند قاضي دمشق الشام أقوم المسالك فقلتُ مادحاً جزاءً لمدحه ، وتحقيقاً لربحه ، في حدود سنة تسعين وتسع مئة من هجرة خير الأنام ، عليه من الله الصـلاة والسلام . وهي :

يا صاحِ ما بال رسوم الاطلالْ قضت على العين بدمعٍ هطّالْ
وما لثوبِ الربعِ أضحى أسمالْ وحاله بعد انتظام [٤] قد حالْ

---

(١) هو محلة الميدان اليوم عند جامع المصلّى .
(٢) هو القصر الذي بناه الملك الظاهر بيبرس . وقام مقامه التكية السليميّة .
(٣) إلى هنا ينتهي ما هو ساقط في ه .
(٤) ه ، ب « التيام » .

يا ربَّ يومٍ ماله من أمثال[1] قطعتُه فيه نجودُ مِكْسالْ

ألبسها شرف التصابي سربالْ فهي به بين البرايا تختالْ

سعياً لعيشٍ مَرَّ حلوِ الوصالْ لكن أبى الدهر البقا على حالْ

وَعْدُ الليالي بالأماني كالآلْ فلا تثقْ منه بظلّ ميّالْ

حُمِّلْتُ من جور الليالي أحمالْ تكِلُّ منها راسياتُ الأجبالْ

عليّ هذا الدهر ظُلماً قد مالْ فلم يدعْ لي جسداً ولا مالْ

عُوّضتُ من بعد السرور البلبالْ ولا صفا لي خاطرٌ ولا بالْ

أسامرُ النجم بدمعٍ سيّالْ وبين عيني والمنامَ أميالْ

يا قلب صبراً في جميع الأحوالْ فالصبرُ مذخور لوقت الأهوالْ

واجنحْ لمدحِ ابن المعين[2] المفضالْ تَنَلْ به ما ترتجي من آمالْ

فهو إمامٌ ما له من أمثالْ في مُعضلٍ تكثرُ فيه الأقوالْ

وهو أخو فكرٍ صحيح جوّالْ سارت به بين البرايا الأمثالْ

تراه في معركِ بحثٍ إنْ قالْ بلا ارتيابٍ أسداً به جالْ

يا طالباً ما حاز هذا الرئبال أقصرْ فقد قصّر عنه الأبطالْ

---

(١) هـ ، ب « أشكال » .

(٢) هـ « معين » .

ما كلُّ مَنْ رام الكمالَ قد نال   فانّه يُعطي لا بحوْلِ المحتالْ
يا أسدَ العلمِ وُقيتَ الأوجال   ودُمْتَ في ثوبِ النعيم مختالْ
بالله قل لي والحريصُ سآل   كيف احتيالي في زمانٍ مغتال
مُغْرًى باعلاء مقامِ الجُهّال   لا يرعوي[1] يوما لعذل العذّال
حظّ أخي الفضلِ،سلمتَ،الانكال   منه وحظُ الناقصين الافضال
أحلّ أهلَ الفضلِ دارَ الاهمال   فهل له قِدْماً عليهم أدخال
لكن يميناً بالنبي والآلْ   ما نقص الدهر وأنت الاكمال
بقيت يا من حاز خيرَ الأفعال   ليثاً وطُلّابُ العلوم أشبال
ما ناح طيرٌ في ضحىً وآصال   فهاج أشواقي لتلك الأطلال

قلتُ : وقد كتبَ اليّ الجواب ناطقاً بالصواب ، فاتحاً من المدح خير باب :

سقى ربوع الحب غيثٌ هطّالْ   متصلاً بالغدواتِ والآصالْ
وأنْبَتَتْ من كلّ غصنٍ ميّالْ   وأثمرتْ ما ترتجيه الآمالْ
عادتْ اليها الخودُ بعد ترحالْ   يزينها اثنان : وفاء وإقبالْ
لحاظُها مثلُ لحاظ الآجال |ترمي القلوبَ بسهامِ الآجال|[2]

---

(١) هـ « لا يرعى » .
(٢) ساقط من هـ ، ب .

قوامُها غصنٌ بروضٍ يختال　　أو أسمــر من الوشيج العَسّالْ (٩٩ ب)

وعمّ ذاكَ الخد حُسْنٌ بالخال　　والكوْثَرُ العَذْبُ بفيها سلسالْ

الشعرُ ليلٌ للحب قــد طالْ　　والوجهُ صبحٌ مُشرِقٌ لضلالْ

كلامُها يفعلُ فعــلَ الجريال　　والطرفُ مكحولٌ بغير كحّالْ

تعــود للوصلِ وتنسى البلبالْ　　وتبدل الهجرَ بوصلٍ في الحالْ

لم تضعْ وقتاً لكلام العذّال　　وما ثناها عنــه قيلٌ أوْ قالْ

يا حَسَنَ الاسمِ كذاكَ الأفعالْ　　بالله قل لي كيف هذي الأقوالْ

أَدُرَرٌ قد صغتَهــا وأشكالْ　　ليس لها في الدهرِ وقتاً أمثالْ

أمْ سُكّرٌ كرّرْتَه وأعسالْ　　ما دنستْها قطُّ أيدي نحّـالْ[1]

أم جَوْهَرٌ في نحرِ رودٍ مكسالْ　　تعطّر الأرض بجرّ الأذيال

أو روضةٌ من بعد قَطْرٍ همّالْ　　تَفْتَرُّ ضحكاً من بكاه السبّال

إذاحويتَ العلم ياذا الأفضال　　لا تتأسّف بعــده على مالْ

حاشاكَ من جَوْرِ مُرَبّي الأنْذال　　هذا الزمان المعتني بالُجهّال

بلغت في الفضل محلّ الآجال　　قد قصّرت عن نيل ذاكَ الأبطالْ

كم من فتى عليه بُرْدٌ أسمـالْ　　بالعلم يعلو فوق رأسِ الأقيالْ

---

(١) هـ ، « عسّال » .

وحوْت سبقاً في العلا وإكمالْ   وبعد ذا قفلتـــه بأقفالْ
إن بان في الدين القويم إشكالْ   ولم يجيء جوابـــه على بالْ
بيّنتهُ حتى وعاه الأَطفـــالْ   بذهنكَ الذاكي وفهمك العالْ
ومن فاته العلى وحاز الأموالْ   فهو مُهانٌ في جميع الأحوالْ
أبقاكَ ربّي أيّهذا المفضـالْ   مُسَرْبَلاً بالعلمِ أيّ سربالْ
ما هدرتْ على الأراكِ والضال   قمريّة تبكي على دروسِ الأطلالْ

قلتُ : وقد كتبتُ له سؤالاً عن نحو قاضٍ إذا أُضيف الى ياء المتكلّم فإنه في حالة النصب تقديراً بحركة على الياء منع من ظهورهــا اشتغالها بالسكون العارض للادغام . فيقال لنا اسمٌ منقوصٌ قُدّر إعرابُه في حالة النصب للاشتغال فقلت :

إمامَ المعالي والمعاني ومَنْ رقى   بهمته فوقَ السُّهـــا والنعائمِ
وحيدَ الليالي جامع الفضلِ ماجداً   رَوَتْ عن أياديهِ ثِقالُ الغمائم
ملاذ الوري رحب الذرى عالي الذرى   عزيز القِرى لَيْث الشرى في العزائم
سألتُ ومثلي من يكون مسائلاً   لمثلِك يابحرَ العُلى والمكارمِ
عن اسمٍ غدا بالنقصِ يوصف قدّروا   له النصب يا كنز الغِنا والغنائم
وما ذاك لاسْتِثْقاله عند نُطقهم   ولكن لأمرٍ عارض للمكالم

ومنك تُفادُ المشكلاتُ تحلّها[1] فإنك حلاّلُ الأمورِ العظائمِ
ويا أسداً في جسمه روحُ ضَيْغَمٍ ويامن ثناه مُنْتَحَىً كلّ ناظمِ (١٠٠ آ)
بقيتَ بقاء الدهر كهفاً لطالبٍ وأمْناً لذي خوفٍ وعلماً لعالمِ

فكتبَ إلي الجوابَ مرتجِلاً ، وأرسله نحوي عَجِلاً . وهو هذا :

إمامَ البرايا عربِها والأعاجمِ وقدوةَ أهْلِ الفضلِ قطب الأعاظمِ
إليكَ انتهى في العصرِ حلٌّ لمشكلٍ ومنك استفاد الناسُ طرقَ المكارمِ
فإن قلتُ بحرٌ أنتَ فالدّرَرُ التي قَذَفْتَ بها يَشْهَدْنَ عند التحاكمِ
وإنْ قلتُ طودٌ أنت فضلاً فشاهدي عليه علومٌ لا تُعَدّ لناظمِ
أدُرٌّ بنحرِ الخودِ نظّمْتَ أوْ رَنَتْ نجومُ الدياجي منك يا خَيْرَ عالمِ
أو التبرُ قد سوّاه في العين حاذقٌ فحلّى به جِيْدَ الحِسانِ النّواعمِ
أو السحرُ هذا غير أنّ سماعَه حلالٌ ولا يُلقي الورى في المآثمِ
فعادةُ بدرِ الدين كشفٌ لمعضلٍ وإيضاحُ صعبٍ مُشْكِلٍ مُتَفاقِمِ
فما باله يُخفي علينا مسائلاً هي النجمُ قَدْراً في الهُدى والمعالمِ
فلُغْزُكَ إنْ لم أعْرِفَنْهُ فإنّني حقيقٌ به بين الورى والعوالمِ
ولكنْ بحسنِ الوصفِ منك عرفتُه فمنك استفدتُ اللّغزَ يا دا المغانمِ

---

(١) هـ ، ب « وحلها » .

فلُغزُكَ في قاضيٍّ من بعدِ ناصِبٍ إذا ما أضفْتَ اُسْماً لياءِ المُكالِمِ
لإدغامهم في مثله الحرفَ قدّروا له النصْبَ ياشيخَ الشيوخِ الأكارمِ
فدُمْ في سماءِ المجدِ عُمْدَةَ طالبٍ تجرُّ ذيولَ الفخرِ فوقَ النعائمِ
تفيدُ الورى الألغازَ في كلّ مشكلٍ معرّىً عن النقصانِ جَلْدَ العزائمِ
مدى الدهرِ ما غنّى على الأيكِ صادحٌ وما افترّ روضٌ عن ثغورٍ بواسمِ

وكتبت اليه سؤالاً عن الفرق بين أمس وغدٍ . وذلك أنهم قالوا إنّ أمس بُني لتضمّنه معنى حرف التعريف ، لأنه عبارةٌ عن اليوم الذي قبل يومك . ولا شك أنّ غداً بمعنى اليوم الذي بعد يومك ، فهما من جهةٍ تضمُّن معنى حرف التعريف سواء . فلِمَ بُني أمس ولم يُبْنَ غد ؟ وهذا السؤال من بنـات فكري ومستولدات فهمي . فقلتُ في المعنى المذكور :

يا واحدَ الدهرِ ياذا الفضلِ والأدبِ ويا إماماً إليه مُنتهى الطلبِ[1]
ياأشرفَ الناسِ من بدوٍ ومن حَضَرٍ ياأكملَ الناسِ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ
يا ماجداً قد سما فوق السِّماكِ عُلىً حقّاً لقد جلّ ما أوتيتَ من رُتَبِ
(١٠٠ب) ماذا ترى في الذي قد قرّروه لنا في أمسِ من قولهم يازاكي النسب
لما تضمن معـنى اَلْ أُتيحَ له حكمُ البناءِ وهذا غير محتجب
ومثلُ أَمسِ غداً في ذا فَلِمْ نقلوا إعرابَه سيّدي عن سائر العرب

(١) هـ « طلبي » .

فأمس ما قبل يومي ثم إنّ غداً ما بعد يومي بلا شكٍّ ولا ريبِ
أوضح بحقّك مدعوّاً مراد فتىً لم يرجُ غيرك ياذا المجد والحسب
بقيت يا بهجة الأيّام منتصباً لرفعِ حُجُبِ المعاني عادمَ النّصبِ
ما حرّكت نسمةُ الأسحارِ قلبَ شجٍ وغرّدت ساجعاتُ الوُرْقِ من طَرَبِ

فكتب إليّ وتحنن عليّ :

يا فاضلاً لفظُه قد صيغَ من ذَهَبِ وكاملاً نظمُه ضَرْبٌ من الضَرَبِ
ويا إماماً له علمٌ غدا عَلَماً يهدي بأنواره السارين كالشهبِ
ويا خبيراً بأسرار العُلوم ومَنْ بفضله حاز فينا أرفعَ الرّتبِ
ما هذه الكلمات الغُرّ جئتَ بها منظومةً مثل نظم الدرّ والحَبَبِ
أَضْحَتْ على صفحات الطرس ناسقةً مثل العقودِ بنحر الخرّدِ العُرُبِ
كأنّها الروضةُ الغنّاء في زمنِ الر بيع تختال في أبرادها القُشُبِ
أو الزهور على هامِ الغصونِ وقد تضاحكتْ فرحاً من عبسة السحب
أو أنّها الزُّهْرُ في أوْجِ السماء هُدًى في البر وَالبحر للسارين للطلب
لولا هُدَاهَا لقلت السحر خُيّلَ لي أو حلّها قلت جاءوا بابنةِ العنب
لو لم أكن بوقارِ الشيب متّشحاً لكنتُ أرقصُ من وجدٍ ومن طرب
لولم يكن في الجواب الطول يا أملي لكنت أنظمه من غير ما تعب

لكنما النظمُ فيه الضيقُ عن كلمي أتى جوابيَ منثوراً بذا السبب

دُمْ للعلوم تُهاديها وتنظمها ممنّعاً من صروفِ الدهر والنُّوَبِ

ما سَلّ سيفاً يدُ الأنواء من نهرٍ وجدّ يوماً خطيبُ الدوح في الخُطَبِ

ثم إنه كتب الجواب عن الإشكال نثراً لما ذكره من العذر في أثناء نظمه لكون نظم النثر صعباً غير هيّن ، وخَشِناً ليس بليّن . فقال :

الحمد لله وكفى ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى .

وبعدُ ، فيقول الفقير الى الله الغنيّ أسد الدين بن معين الدين الشافعيّ ، جعل الله غده خيراً من يومه ، ورحمه عند مواراته في رمسه : إنّ الذي سنح لي من الجواب ، من غير مراجعة رسالة ولا كتاب ، أنّ غداً ليس مثل أمس . حتى يلزمه حكمه في البناء ، (١٠١ آ) لأن أمس كلمة مشتملة على ثلاثة أحرف ، فبناه أهلُ الحجاز على الكسر إذا أريد به اليوم الذي قبل يومك لتضمّنه الألف واللاّم . وليس كذلك غدٌ . لأن غداً لامُه محذوفة ، والدال عين الكلمة ، كيَدٍ ودَمٍ ، فلو بُني لزمه العدولُ عن الأصل مرّتين : مرّة من جهة حذف لامه ومرّة من جهة بنائه ، لأنّ البناء في الأسماء على خلاف الأصل ، والعدول عن الأصل مرّتين في الكلمة الواحدة إجحافٌ بها . وهذا قريبٌ من قولهم في بعض الكلمات مثلاً حتى لا يتوالى إعلالان في الكلمة الواحدة . وقولي إنّ لامه محذوفة نصّ عليه غيرُ واحدٍ من أعلامِ العلماء ، حتى إنّ الشيخ الإمام أبا عمرو عثمان الشهير بابن الحاجب بنى عليه جوابه عن اللغز المشهور وهو قوله :

ربما عالج القــوافي أناسٌ تلتوي تارةً لهــم وتلينُ

طاوعتهم عَـيْنٌ وعَـيْنٌ وعَـيْنٌ وعَصَتْهم نونٌ ونونٌ ونونُ

وجواب الشيخ :

أي غدٍ مع يدٍ دَدٍ ذي حروفٍ طاوعت في الرويّ وهي عيون

وذوات الحوت والنون نونات عَصَتْهُم وأمرُهــا مستبين

قال : أصلُه غدوٌ يديٌ دداً أو ددنٌ . وأيضاً لو بنوا غدا كانوا يبنونه على السكون ، لأنه الأصلُ في البناء ، ولا محيد عنــه هنا لأنّه على حَرْفين ككم ، بخلاف أمس ، وحيث ، وأيْن ، فإنّها بُنِيَتْ على هذه الحركات لسكونِ وَسَطِها حتى لا يلزم التقاء الساكنين ، فلو بنوا غداً على السكون ما كان يُعرف أنّ لامه محذوفة ، بل كان يقال إنّه مبنيٌّ لكونه على حرفين ككم . وهم يعرفون من عدم معرفة الأصل كم قالوا في صلة الموصول إن كان الباقي بعد الحذف إن كان صالحاً لكونه صلة لا يجوز حذف شيء منه ، لعدم الاهتداء حينئذ الى المحذوف بخلاف ما إذا لم يكن صالحاً لكونه صلةً ، فإنه يجوز الحذف . كما هو مقرّرٌ في موضعه . وأيضاً الإعرابُ في الأسماء على الأصل . وإذا وردَ شيءٌ على أصله لا يُسأل عنه بخلاف ما إذا ورد على غير أصله . فلمّا ورد أمس على خلاف الأصل عُلّل بهذه العلّة . ولا يلزم في غدٍ تعليلُه بها كما في الأسماء التي على وزن فعل . فالأسماءُ التي استعملتها العرب من هذا الوزن غير معروفة . قال النحاة : منعت من الصرف للعلميّة والعدل التقديريّ كعُمَرَ وزُفَر وزُحَل . والذي استعملتْه العربُ منصرفاً كأُدَدٍ مثلاً مع كونه على وزن فُعَل مع وجود العلميّة اعترضوا به لأنه واردٌ على

الأصل . إذ الأصلُ في الأسماء المعربة الصرفُ . فعُلم أنّ كثيراً من العلل النحويّة لا يجب اطّرادها لأنها مناسبات تُذكر بعد الوقوع بقدر الإمكان (١٠١ ب) وليست أموراً حقيقيّة . ويمكن أن يستخرج لما يعترض به وجه كما ذكرنا نحن في غدٍ بالنسبة الى أمس . وأيضاً لنا أن نمنع انّ غداً يتضمن الألف واللام كأمس ، ويجوز أن تكون دلالته على معيّنٍ | تارة وعلى غيرها أخرى بحسب الوضع لعلم الجنس ، فإنه يدلّ على معيّن |[1] يفيدُ الحضور تارةً وأخـرى على الجنس من حيث هو . والله أعلم . ولو رأى راءٍ في كلام بعضِ النحاة وجوهاً غير ما ذكرناه في تعليل المسألة لا يلزم من ذلك أن لا يكون ما ذكرتُه صحيحـاً ، لأنها كلّها مناسبات تُذكر بعد الوقوع كما مرّ آنفاً وتستخرج منها القرائح بقدر ما عندها .

قال ذلك وكتبه أسد الدين بن معين الدين الشافعي رضي الله عنهما حامداً مصلّياً مسلماً .

وكتب بعد ذلك بخطّه قول الأديب أبي الفتح البُستي رحمه الله تعالى :

لئن أَبصرتَ في لفظي فتوراً ولفظي والبلاغـة والبيـان

فلا تَرْتَبْ بفهمي إنّ رقصي على مقـدار إيقاع الزمان

انتهى .

قلتُ : وقد كان بعض المتقلّلين بالحسب[2] ، المتكثرين بالنسب على أنّه نسبٌ ضائعٌ مُدّعىً ليس في الأنساب حقيقـة ، ولا توجد له

---

(١) ما بين الخطين القائمين ساقط من هـ ، ب .

(٢) هـ ، ب « المتقلّلين من الحسب » .

بيّنة ولا وثيقة ، رأى قريتنا بورين فاستقلّ بنيانها ، ولم يعرف أهلها ولا سكانها ، بعد ما أخنى عليها الزمان ، وفرّق منها أهلها والسكان . وحكى ذلك للشيخ أسد الدين بن معين الدين . فكتب إليّ الشيخ المذكور هذين البيتين متفضّلاً ، وبلطفه متجمّلاً ، ليس متحمّلاً :

بورينُ طولي على البلدان[1] وافتخري ... على الممالك من شامٍ ومن يَمَنِ

فكيف لا تفخرين الأرض قاطبةً ... بالفاضل المقتدى في فعله الحسنِ

قلتُ : وهما على أسلوب بيتين كُتبا للقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني ذي الوزارتين . وأجبتُه مرتجلاً ، ومن التقصير خجِلاً ، بقولي :

تبريزُ طولي على البلدانِ وافتخري ... بعالِمٍ فاق كلَّ الناس تبْريزا

مولى الورى أسدُ الدين الذي سَعُدت ... أيّامُه فحسبنا الكلّ نوروزا

لا زال يرقى الى أوجِ العُلا شَرَفاً ... ونال في الدهر تكريماً وتعزيزا

قلت : وبيني وبينه مراسلات وافرة ، ومكاتبات متكاثرة ، ذُكِرَتْ في ترجمة تلميذه الفاضل ، الحاوي لأشتات الفضائل ، أحمد چلبي ابن القاضي شمس الدين محمد بن المنقار الحلبي ثم الدمشقي ، لأنّه كان سبباً في إيرادها ، وباعثاً على إنشائها وإنشادها .

وكان (١٠٢ آ) المولى أسد الدين المذكور قد أصيب في شُعُوره فاختَلَّ بعضُ أموره ونسب ذلك إلى سقايةٍ من بعض النساء . والله تعالى أعلم بحقائق الأشياء .

---

(١) هـ « الأيام » .

وتصرّف في تدريس بعض المدارس ، فأحيا من رسمها ما كان دارس (؟) . ومات الى رحمة الله تعالى مدرّساً [١] بالمدرسة الشامية البرّانية ، في سنة ثمان وتسعين وتسع مئة من الهجرة النبوية ، على مهاجرها ألف ألف تحيّة ، ودُفن بالصالحية ، بموجب الوصيّة ، وخلّف ولداً ذكراً يُسمّى عثمان ، ولعله ان يشتغل فيُحيي ذكر والده بين الأقران .

والحمد لله وحده .

| وصلى الله على من لا نبيّ بعده | [٢] .

---

(١) ص « دارساً » أثبتنا رواية هـ ، ب .

(٢) ما بين الخطين ساقط من هـ ، ب .

٨٣

|مولانا|[١] أسعد أفندي

ابن مولانا سعد الدين أفندي ابن المرحوم حسن جان التبريزي الأصل القسطنطيني المولد والمنشأ

أقولُ : أسعد افندي هذا هو الفاضلُ المحقّق ، الكاملُ المدقّق ، الذي وقع الإجماع على أنه اليوم فاضلُ الروم على الإطلاق ، وصاحب العلوم بالاتفاق . ووالدُه هو المولى سعد الدين أفندي خواجا[٢] حضرة السلطان المرحوم مراد بن سليم ، ونشأ ولدُه هذا أسعد مثابراً على تحقيق المسائل ، وتحرير الدلائل ، ونال من الفضيلة حظّاً عظيماً ، ورُزق كمالاً جسيماً ، بحيث انه لم يختلف في فضله اثنان ، ولم يشك في تفرده بالكمال انسان . وقد تولى المناصبَ الجليلة على صِغَر سِنّه ، وسلك مسلكَ العدالة والاستقامة في حكمه . والعجبُ أنّ ديانته وقع عليها الإجماع ، مع صِغَره وتوفّر دواعي السرور عليه مقبلةً بغير امتناع . ومع كونه في قسطنطينية التي لو دخلها عابدٌ من أمثال ذي النون ، أو زاهدٌ من أقران سَمنون ، لربما صبا أوْ كاد ، وخِيف عليه أن يُمحى من دفتر العُبّاد ، ولكنّ الهداية منحةٌ من الله الكريم ، كما أن الضلالة محنةٌ عظيمةٌ من الله العظيم .

ثم اعلم أن أسعد أفندي هذا ولد سعد الدين افندي |هو|[٣] معلّم

---

(١) ساقط من ب .

(٢) هـ ، ب « خوجا » .

(٣) ساقط من هـ وحدها . وفي ص ، ب « وهو » .

السلطان مراد ، الذي أدرك من سعادتي الدنيا والآخرة فوق المراد ، وسيأتي ذكره الجميل بعون الله الجليل .

وسعد الدين افندي هو ولدُ حسن جان . وحسن جان كان من القوم الذين استصحبهم السلطان سليم الأكبر | معه |[1] من ديار العجم حين ذهب لقتال اسماعيل بن حيدر الصفوي[2] سلطان قزلباش . وذلك لأنه كان كاملاً صيّتاً لا نظير له في أضرابه . وكان أيضاً مصاحباً كاملاً بين أقرانه وأترابه . وكان عند الدولة ، عظيم الحرمة والصولة . لأنه كان مقبولاً عند حضرة السلطان ، مقبول السلطنة كامل خال عن النقصان . ونشأ أسعد افندي في نعمة أبيه التي لا تشابهها الا نعمة الملوك ، وسلك في تحصيل العلوم والكمالات أقوم سلوك . وهو اليوم سنة ثمان وألف قاضي دار (١٠٢ ب) السلطنة قسطنطينية الكبرى تَرِدُ توقيعاته على بعض الصكوك في غاية الحسن خطّاً وضبطاً وعبارة ومتانة . وغالب تحصيله على والده شيخ الإسلام سعد الدين المذكور : وعلى المولى العلاّمة منلا توفيق الكيلاني الذي لا نظير له في العلوم العقلية ، وفي الفنون المنطقية .

أخبرني مولانا توفيقي من لفظه بدمشق ، وقد نزل في مدرستي الناصرية الجوّانية ، عند وروده مع المرحوم عبد الله افندي قاضي القدس الشريف ناوياً على زيارة القدس معه ، أنه لم ير في علماء الروم أفضلَ من مولانا أسعد صاحب الترجمة ، وحكى عن فهمه وإدراكه أشياءً لا تسعها[3] دائرة العقول ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وسيأتي ذكر أبيه وإخوته في محالهم إن شاء الله تعالى ، فإنهم زينةُ الزمان ، وابتهاج العصر والآوان .

(١) ساقط من هـ .
(٢) في الأصل : الصوفي .
(٣) هـ ، ب « لا تسعه » .

وإذا السعادةُ لاحَظَتْكَ عيونُها نم فالمخاوفُ كلُّهنّ أمانُ
واصطدْ بها العنقاءَ فهي حبالةٌ واقْتَدْ بها الجوْزاء فهي عِنانُ

وله مخمساً الأبيات المشهورة : [١]

الله صلِّ على مَنْ نحن نخدمُه ودرُّ أوصافه كالعقد نَنْظِمُهُ
وبالصلاة من الرحمن نُعْظِمُهُ ياخيرَ مَنْ دُفِنَتْ بالقاع أعظمه
فطابَ من طِيبِهنّ القاعُ والأَكَمُ

زرناك ياخَيْرَ مَنْ عَمَّتْ محاسنُه باللّطْفِ ظاهرُه حَلْيٌ وباطنُهْ
طوبى لطيبةروضٍ[٢] أنت قاطنُه نفسي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكنُه
فيه العفافُ وفيه الجودُ والكرمُ

ولنا تخميس الأبيات المذكورة :

قلبي جريحُ ذنوبٍ أنت مَرْهَمُه وأنت في شدّةِ الأوصاب تَرْحَمُهُ
أتاك مرتجيــاً حاشاك تحرمُه يا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بالقاع أعظُمُهُ
فطابَ مِنْ طِيبِهِنّ القاعُ والأَكَمُ

قد ثارَ من حَرّ وجدي اليومَ كامنُهُ والصبرُ طار بريحِ الشوقِ واهنُه
يا جوهراً مُفْرداً طابت معادِنُه نفسي الفداءُ لقبرٍ أنتَ ساكنُـه
فيه العفافُ وفيه المجــدُ[٣] والكرمُ

---

(١) هـ ، ب « ومن نظم صاحب الترجمة مخمساً » .
(٢) هـ ، ب « أرض » .
(٣) ب « الجود » .

٨٤

أشرف الملقب بميرزا مخدوم ويمين الدين

السيد العلامة الشريف الحسيب النسيب الحسيني والحسني الشيرازي

الشافعي المذكور من أولاد المحقق المدقق السيد علي الشريف الجرجاني شارح « المفتاح » و « المواقف » ، وصاحب « حاشية المطالع » . كان مولده بمدينة شيراز . وقرأ على علماء هاتيك الديار ، وقرأ في علوم شتّى . وكان له اشتهارٌ كاملٌ بعلم النجوم والهيئة وبسائر العلوم العقلية . ولم يزل على ذلك إلى أن مات طَهْماسِبْ وتولى المُلْكَ بعده ولده شاه اسماعيل المتقدّم ذكره . فاستدعى علماء أهل السنة قاصداً أن يُميت البدعة القبيحة من بلاده على ما شرحناه[1] في ترجمته . فكان السيد المذكور ممّن يعتقد مذهب الحق وهو مذهبُ أهل السنة والجماعة . فاستدعاه واستدناه ، وأحسن إليه وبالجميل أولاه ، حتى اشتهر بالسّنة بين عساكر الشاه . فلما سعى عسكر قِزِلْباش على إزالة اسماعيل وقتلوه بالسم | كما ذكرناه في ترجمته |[2] تتبعوا مَنْ كان مساعداً له على إقامة مواسم السنّة ، وقتلوا كثيراً من الناس . وكان من جملة مَنْ أرادوا قتله مولانا أشرف المذكور . فاستُلّ على رأسه نحو مئة سيف . فخلّصه رجل من علماء الشيعة كان قد قرأ عليه السيد المذكور القرآن وهو صغير ، لأنه قال له بالفارسية :

---

(١) هـ « ما سنشرحه » وقد وضعت ترجمة اسماعيل هذا في النسخ بعد هذه الترجمة وحقها أن تكون قبلها . انظر رقم ٨٥ .

(٢) ساقط من هـ ، ب .

أيْ بَدْ بَخْتْ تُوآنْ شيعه تليسْتِي كِهِ شَاگِرْدِ مَنْ بودي .
فقال له في الجواب : هَمَانَمْ كِهْ بُودَمْ [١] .

فخلّصه ، وهرب إلى بيته . فركب بغلة وأخذ خادماً من أتباعه ، ولم يزل مستخفياً إلى أن ألقى نفسه في مدينه وان ، وهي أول معاملة الأروام .

فلما دخلها اطمأن خاطره وأمن ، وسار إلى أن دخل إلى مدينة آمد . وكان أمير الأمراء بها درويش باشا ابن عم الوزير الأعظم محمد باشا . فأكرمه درويش باشا المذكور إكراماً زائداً ، وعرض أمره على حضرة السلطان المرحوم السلطان بقسطنطينية المحميّة فلما وصل حصل في باب مفتي السلطان ، وهو المولى الفاضل سعد الدين أفندي ابن المرحوم حسن جان التبريزي ثم القسطنطيني .

وحكى له قصته وما تمّ عليه في ديار العجم ، وأن عسكر قزلباش أرادوا قتله . فقال له : نعم صدقت . فإن خبرك وما صار عليك قد وصل إلينا ، وعُرض بالتفصيل علينا . وسأعرض ذلك إلى حضرة السلطان . وأكرمه وخلع عليه الخلع (١٠٣ ب) . ولم يزل عنده معظّماً إلى أن قرّر قصته مفصلةً لحضرة السلطان . فأعطاه المرحوم السلطان مراد قضاء القضاة بديار بكر بمدينة آمد ، فصار بها قاضياً ومفتياً ، إلى أن انفصل عنهـــا بمدينة طرابلس الشام . فذهب إلى طرابلس وصار قاضياً بها نحو سنتين . ورجع إلى قسطنطينية . ولازم بالباب إلى أن حصل قحطٌ وقلّ المطرُ بديار الروم . فاستسقى الناسُ فأُسْقوا . وكان مولانا أشرف المذكور نقيب الأشراف بالباب العالي . فرسم السلطان أن يستسقي هو والأشراف فقط . فخرج حافياً يمشي في أزقّة قسطنطينية ، والأشرافُ يمشون حوله

---

(١) معناه : أيها البائس : ألست انت الشيعيّ الذي كان تلميذي ؟ فقال له : أنا الذي كنت دائماً . (عن الأستاذ ابرويز اتابكي) .

وهو يذكر الله بلحنٍ رتّبه على نغمات لطيفة . فما رجع إلاّ وهو يخوض في الماء . فحصل للسلطان مراد عليه اعتقاد عظيم بحيث إنه كان يطبخ الحلوى ويُدخلها إلى السلطان نصفَ الليـــل ، فيفتحون له باب السرايا العظمى ويُدخلون الحلوى إلى السلطان فيأكل . ويكتب له معها : يا نور عيني يا سرور قلبي ! والله ما دخلتِ الحلوى في حَلقي إلا بعد أن أرسلتُ لك منها حصة . فبالله عليك وبحقِّ جدّي الأعظم ، وهو النبيّ الأكرم ، إلا ما أكلتَ منها . فيأكل منها السلطان ويُجيزه الجوائز العظيمة ، ويخلعُ عليه الخلع الجسيمة .

وبعد مدة أعطاه السلطان مراد قضاء مكة ، فذهب إليها من جانب البحر إلى مصر ثم السويس ، ثم إلى مكة . فأقام بها نحو ثلاث سنين . وعُزل منها ورجع إلى قسطنطينية من [جانب] [1] البحر أيضاً . فأقام بها مدة ، ثم اختار الذهابَ إلى مكه ناوياً أن يحطّ بها رحل الإقامة إلى أن يفارق الدنيا . فطلب من السلطان أن يولّيه قضاءَ قسطنطينية ، ثم قضاء العسكر بأناطولي ، ثم بولاية روم ايلي ، على قاعدة طريق موالي الروم . فولاّه ذلك أياماً ، ثم تجهز إلى جانب مكة ووصل إليها وأقام بها ، حاطاً بها رحل الإقامة ، مُلْقياً بها عصى السكنى ، إلى أن توفاه الله تعالى بمكة ودُفن بها . وخلّف بنتاً كان قد زوّجها حال حياته لبعض أولاد شريف مكة ، وهي الآن على ما علمتُ عندهم مقيمة .

وكان رحمه الله تعالى غيرَ خالٍ من جَذْبةٍ ، ولذلك كانت تصدر عنه أفكارٌ عجيبة خارجة عن حدّ الاعتدال . ومع ذلك كان أربابُ الدولة يتلقّونها بالقبول ، حتى إنه أرسل إلى السلطان مراد يقول له : إنه قد يخطر لي أن أرسل لك شيئاً مما أطبخه بيدي من المأكولات نصف الليل ،

---

(١) من هـ ، ب .

وأريد أن تأمر البوّابين بفتح الباب العالي متى أردتُ الدخول ليلاً أو نهاراً[١] . فرسم له بذلك . وهذا أمر لم يسبق لآل عثمان ولا يجوز عندهم ولا في قانونهم ، لكن سطوة حاله واعتقاد صحة نسبه وكمال سببه أوجبت قبول ما أراده من هذا .

وأعجب من ذلك أن السلطان كان يأكل ما يُرسل مع أنه من قسم المحال العادي عندهم .

وكان لعلوّ مرتبته يصعد على كرسي الوعظ في بعض الجوامع ويعظ بلسان التركيّة ، لكنه كان يُضحك سامعه بالضرورة ، لأن لسانه غير لسان أهل الروم وإن كان الكل يسمى تركياً ، لكن بينهما فرق بعيد .

وله كتاب ردّ به على الرافضة سماه « النواقض في الرد على الروافض » .

وكان عجباً عُجاباً في أموره ، لأنه كان يُمضي حجج الأحكام التي تصير عنده ويكتب في إمضائه عجائب . فيقولُ مثلاً : هذه الحجة صحت عند مولانا السيد معين الدين أشرف الحسني الحسيني أباً وأماً الذي صار قاضياً بثغر طرابلس بعد أن كان قاضياً بمدينة آمد . وذلك كله بالأمر الخُونْدْگاري[٢] السلطاني المُراد خاني العثماني .

ورأيت بعضه . فمن ذلك قوله :

بِهِ نيم لحظه صَبوري زباي اُفْتَادَمْ
غُلامِ طاقَتِ مجنونْ وصَبْرِ فَرْهادَمْ[٣]

---

(١) هـ ، ب « بليل أو نهار » .

(٢) هـ « الخونكري » وهو خطأ . ومعناه « الإلهي » لأنهم كانوا يسمون السلاطين ظل الله في الأرض . وهذه الكلمة أصلها « خداوندكار » يعني الإله . ويستعمل أيضاً للتعظيم وهو غاية التعظيم (أتابكي) .

(٣) معناه : صبرت نصف لحظة (على محبوبي) ولم اُطق ، وسقطتُ من الوهن فأنا أكبر طاقة مجنون (ليلى) وصبر فرهاد (عشيق شيرين) . (عن الأستاذ أتابكي) .

وله من غزل آخر :

كوبا نَمْيداني كهِ مَنْ آن أشرَفِ ديوانِه أم [(١)]

ومن شعره :

يا بِدَانائي غَمِ عشقِ تُرا كم مِيكُنَمْ

يا زِبي تابي تُوا رُسْوَاي عَالَمْ ميكُنَمْ [(٢)]

ولما تولى مكة بعد قضاء العسكر صار يكتبُ نسبه في قطعة قماش مذهّب ويَسرد فيها نسبه من أبيه إلى علي رضي الله عنه ، ويضمُها في عمامته ، فكان الرجلُ يقرأ نسبه من علامة شرفه . ولكنه كان كريماً فاضلاً خالياً من الحيلة والخدعة صافي الخاطر ، سليم السرائر ، وكان له شعر بالفارسية [(٣)] ، توفي بمكة في سنة . . . [(٤)]

---

(١) معناه : أنا أزعم بأنك لا تعرف بأنني الأشرف المجنون (عن الأستاذ أتابكي) .

(٢) معناه : إما أن أقلل بالحكمة غمّ عشقك (في قلبي لأستريح) وإما أن أفضحك في العالم (بأنك معشوقي) بسبب عدم طاقتي (عن الأستاذ أتابكي) .

(٣) الزيادة من هـ ، ب .

(٤) بياض في جميع النسخ .

٨٥

الشاه[1] اسماعيل بن طهماسب بن اسماعيل الأول بن حيدر
ابن حنيد بن الشيخ صفي الأردبيلي
الشريف العلوي على ما يقال

فذكرنا في ترجمة خان أحمد الكيلاني المتقدم ذكره أنه كان محبوساً في قلعة قَـهْقَـهَـة مع شاه اسماعيل المذكور . وكان حبسه له أنه يخاف سطوته وأنه يبطش به . فلما مات طهماسب أجمع أمراء قزلباش على تولية شاه اسماعيل المذكور . فأرسلوا اليه وأخرجوه من القلعة . وكان كلّما مرّ ببلدةٍ تبعه أهلها . فلم يصل إلى قزوين حتى صار معه من قسم العساكر ما يزيد على خمسين ألفاً ما بين فارس وراجل . ولما وصل إلى مستقر سريره ، وهي بلدة قزوين ، نادى في العساكر بأن لا يبرح أحدٌ من مكانه . فإنّ للشاه سفراً قريباً . فأقامت العساكر الحاضرة حول قزوين ما يزيد على ستة أشهر ، حتى ضاق صدرها بذلك ، وما فرّقهم إلا سفره القريب إلى الدار الآخرة ، وذلك أنه لما تمكّن على سرير السلطنة وقويت شوكتُه شرع في إظهار دين أهل السنة والجماعة ، وذلك بعد أن استمرّ أبوه وجدّه يجتهدان في إخفائه ما يقرب من سبعين سنة . وكان دائماً يُحضر

---

(١) ب « شاه » .

علماء الرافضة ويأمر علماء أهل السنة بالمباحثة معهم وإلزامهم . وكان هو بنفسه يبحث معهم بقوة السلطنة . وشرع مع ذلك في قتل إخوته وأولاد عمّه ، حتى إنه لم يترك منهم أحداً كما ذكرنا ذلك في ترجمة خان أحمد الكيلاني . فلزم أنّ أخته التي يُقال لها پرى جان خانم اضمرت له القتل ، فسمّته في رمضان ووضعت السمّ في حقّة البرش التي كان يأكلُ منها الشاه . فاتفق أنه خرج في تلك الليلة إلى أسواق قزوين مستخفياً مع محبوبه الذي يُقال له ابن الحلوجي[١] ، وسار كثيراً ، وأكل من الحلوى شيئاً غزيراً ، ورجع إلى حجرته وطلب حقّةَ البرش فنظر محبوبُه فيها فوجد ختمها محوّلاً في الجملة . فقال له : شاهَمْ ![٢] إني أجد ختمَ[٣] الحقة مغيّراً . فقال له : هات واترك عنك هذا الفكر ، فإنه لم يبق أحدٌ نخاف منه . يشير إلى قتله لأقربائه الذين يحسدونه على السلطنة ، فَمَن يضعُ له السم بعد ذلك ؟ ولم يعلم ما خُبِّىءَ له في عالم الغيب . فأكل هو ومحبوبه من الحقّةِ وناما النومة التي لا إقامة بعدها في الدنيا ، واستمرّا نائمَيْنِ في الحجرة المذكورة إلى الصباح ، ثم الى الضحى ، ثم إلى الظهر . فلما حضر الأمراء للملازمة في باب السلطنة على العادة قيل لهم إنّ الشاه ما طلع اليوم . فقالوا : هذا رمضان ، ولعلّه سهر ونام . وغالبهم كان عالماً بحقيقة الحال . فلمّا لم يبق للسلامة ظنّ كسروا الباب ووجدوا الشاه قد مات وأصبعه في فمه وهو عاضٌ عليها . ووجدوا ابن الحلوجي في آخر رمق . فقالوا له : ما الخبر ؟ فأخبرهم بما صدر . فأرادوا قتله . ثم قالوا : إنّ قتل هذا عبث ،

---

(١) هلوجي : بائع الدرّاق .

(٢) شاهَمْ : أي يا ملكي .

(٣) هـ « الختم » ، ب « أجد ختم مغيرا » .

لأنه على شرف الموت بما أكل مع الشاه ، فلو كان له ذنب لما أكل من السمّ .
ودخل كثيرٌ من العسكر فقتلوا أخت الشاه اسماعيل وهي پري‌جان خانم لما ذكرنا من أنها أشارت بقتله ، بل قيل إنها هي التي وضعت السم بيدها . وأرسلوا إلى شيراز وأتَوْا بخُدَاي بَنْده محمد الأعمى وسلطنوه . وهذا لم يسبق لغيره قبل هذا . ولو بقي اسماعيل لأعاد مذهب أهل السنّة إلى موضعه وإلى تلك البلاد الحسنة اللطيفة التي هي منشأ العلماء الأمجاد . ليت شعري لو استمر سلطان الروم ملازماً للسفر اليها لكان أخذها بتمامها كما أخذ غالبها ، وكانت البدعةُ تذهب من تلك البلاد بالكلّية ، ولكنّ لله تعالى إرادة في إبقاء هؤلاء الجماعة .

وقد حكى لي من أثِقُ به أن اسماعيل المذكور كاني يأتي بعلماء أهل السنة وبأذكياء الرافضة ويجعلُ لهم مجلساً ويقولُ : ابحثوا في حضرتي فيما يتعلق بالاعتقادات . فإذا بحثوا وظهر الحق يشتم الرافضة وربما بصق في وجوههم .

وقد بلغني أن كثيراً من أكابر أذكيائهم قد رجع إلى الطريق المستقيم ، فصار من أهل السنة بقلب سليم . ومن جملة مَنْ خاف من قتل الرافضة له — فهرب بعد موت شاه اسماعيل — السيدُ (١) الشريف الشهير بميرزا مخدوم ، قاضي مكة ، الذي هو من نسل السيد الشريف العلاّمة شارح « المفتاح » . فإنه كان من أكبر المتعصبين لإظهار السنة في حياة الشاه اسماعيل المذكور ، واستمر هارباً على بغلته إلى أن وصل إلى بلاد الروم . وأدرك من سلاطين الإسلام من العزّة ما يروم ، إلى أن صار قاضياً بالعساكر المنصورة .

---

(١) « السيد صاحب الترجمة التي قبل هذه » .

وكان شاه اسماعيل المذكور غايةً في الفضيلة ونهايةً في ذكاء الطبع . وله شعرٌ حسَن وكلماتٌ مأثورة بين هاتيك البلاد . فمن شعره بالفارسية قوله :

نَهْ اَزْروي تَكَلُّفْ كُوَيمْ اي دِلْدَارْ بي رَحْمي (١)
تَكَلُّفْ بَرْطَرَفْ بي رَحْمي وَبِسْيَارْ بي رَحْمي

فرحمه الله رحمة واسعةً ، وسقاه من سحائب الرحمة الهامعة ، وكانت وفاته بمدينة قزوين في شهر رمضان سنة ست وثمانين وتسع مئة .

(١) معناه : ما أقول من التكلف بأنك قاسي القلب
نترك التكلف انت قاسي القلب وشديد في القساوة .

٨٦

الشيخ اسماعيل النابلسي الشافعي

هو شيخنا شيخُ الإسلام بالاستحقاق ، وعالم عصره بالاتفاق . نادرة عصره ، ووحيد مصره . نشأ طالباً للعلوم ، باحثاً عمّا تضمنته من منطوق ومفهوم . وظهر صيتُه في البـــلاد الشاميّه ، وشاعت فضائله بين الفقهاء الشّافعية . درّس وأفتى ، وعَظُم قدرُه ، وظهر أمرُه ، وقُبِلَتْ شفاعتُه ، وغلت بضاعتُه . وخطبته الدولة ، وصدّقت منه قوله ، بحيث إنه كان مقبولَ الشفاعة ، مبذولاً له السمع والطاعة . اقتنى بيتاً في باب العنبريّين خارج باب الزيادة ، من جامع بني أمية فكانت رحبتُه ملاصقةً لرحبة الجامع المذكور بالسويّة ، وذلك من أسباب المعالي ، ومن الأبواب التي توجب دخوله إلى نهاية الأماني كما قال :

قد قلتُ في تاريخِ بيتي بيتَ شعرٍ قد تلاه
داري جوارَ الجامع الأُمـــويّ مِنْ نِعَمِ الإله

وكما قال أيضاً :

بنيت روضةَ علمٍ ونزهـــةً للمجالس
وعندما تمّ وضعاً أرّختُ خير المجالس

(١٠٥ ب) وكان أبوه من آحاد [١] الناس ، ولم يتصف أحد من أسلافه بنجدة ولا باس ، بل هو نبغ من بينهم فريدا ، ونشأ متصفاً بالكمال[٢] وحيدا ، حتى رفعه الدهر مقاماً عليّا ، وألبسه الكمال [٣] ثوباً بهيا ، بحيث انه طار صيته في الأقاليم ، واتصف في حديث الناس بالمجد القويم ، قرأت عليه في منزله عند باب الجامع الأموي من جهة العنبريّين [٤] « شرح جمع الجوامع » | في [٥] الأصول للمحقق المحلّي | فكان يقرّر عبارة الشرح أحسن تقرير . ويحرر معانيها أكمل تحرير [٦] . وحضرت عنده [٧] « شرح المفتاح » للسيد | المدقق | [٨] الشريف الجرجاني في جامع درويش باشا[٩] | بمحلة باب الجابية بدمشق | [١٠] وكان القاري | المدرس المذكور | [١١] الشيخ الفاضل تاج الدين الحموي الشهير بالقطان [١٢] | وسيأتي ذكره ان شاء الله تعالى | [١٣]

---

(١) هـ « أعيان » .

(٢) هـ « بالكمال الأسنى وحيدا » .

(٣) هـ « الكمال منه ثوباً ... » .

(٤) يعني باب الجامع الجنوبي المسمى بباب الزيادة .

(٥) هـ « المشهور في الأصول » .

(٦) هـ « ويحرّر ما يرد عليها ألطف تحرير » .

(٧) هـ « وحضرتُ درسه في شرح ... » .

(٨) ساقط من هـ .

(٩) هـ « جامع درويش باشا الرفيع المنيف » .

(١٠) ساقط من هـ .

(١١) ساقط من هـ . وفيها : « وكان القاري صاحبنا المرحوم الفاضل النحوي المشتغل المفيد الكامل في ميدان العربية بغاية الجهد ونهاية التسديد الشيخ تاج الدين الحموي » .

(١٢) في هـ زيادة « نزيل دمشق المحروسة حمى الله كمال أهلها عن النقصان » وقد حذفت في أصلنا .

(١٣) ما بين الخطين ساقط من هـ .

وكان الشيخ عمر [بن محمد بن][1] القاري [الشامي] وجمال الدين چلبي الفرفوري[2] ، والفقير إلى الله تعالى ، والشيخ أحمد النجعوني الطرابلسي الضني ، والمرحوم الشيخ بدر الدين الجلجولي ، والمرحوم الشيخ مصطفى الخفاجي الحلبي ثم الدمشقي ، وغيرهم من فقهاء[3] الشام ، سقاها صوب الغمام . واستمريت مستمعاً للمدرس المذكور مع الجماعة المذكورين إلى أوائل بحث الالتفات . وصدرتْ قصةٌ اقتضت انقطاع الفقير عن الدرس[4] المذكور . وذلك أنه كان الشرط في ابتداء الدرس أنّ مَنْ غاب منا معاشر الشركاء[5] نترك قراءة الدرس لأجله . فلزم أن الفقير لم يغب عن الدرس نحو ثلاث سنين ، فاتفق أن بعض الإخوان دعاني إلى المبيت بالصالحية ليلة الدرس ، فاستأذنتُ الشيخ المذكور في المبيت وقلت : إنْ لم يهن عليكم[6] ترك الدرس تركتُ المبيت وحضرتُ الدرس . فقال : نحن على الشرط ونترك الدرس . فوثقتُ بكلامه وسرت إلى الدعوة . فلم يترك الدرس وذهب اليه ، وخالف ما عاهدني عليــــه . وطلع إلى الصالحية واجتمعت به في المجلس الذي دُعيت إله فرأيت كتب الدرس معه وعلمتُ أنه أقرأ الدرس . والحال أن بعض رفقائنا كان يغيب كل سنةٍ نحو عشرين يوماً في زمن العنب الزيني ونتركُ الدرس لأجله فكتبت في المجلس هذه القصيدة ارتجالاً أخاطبُه بها[7] فقلت :

---

(١) الزيادة من هـ .

(٢) هـ « وصاحبنــا الفاضل الــكامل صاحب الكرم الوافر والالطف الشامل الشيخ جمال الدين بن عبد الرحمن الفرفوري » .

(٣) هـ « قضاة » .

(٤) هـ « عن الحضور إلى الدرس » .

(٥) هـ « الشركاء المذكورين » .

(٦) هـ « عليك » .

(٧) هـ « . . . القصيدة مرتجلاً وسلمتُها إليه وَرجلاً فقلتُ » .

الي كم تمادٍ والخطوبُ طوارقُ | يشيب لادناهن منك المفارقُ
أفي غفلةٍ يا صاح أم في تغافلٍ | وهذا لسان الحالِ بالحالِ ناطقُ
(١١٦ آ) الى كم ترى في دارة الذلّ ساكناً | وطرفُك في مضمار فضلك سابقُ
لحى الله مَنْ يُبْدي لخلٍّ صداقةً | وفي قلبه شخصٌ كذوبٌ مُنافقُ
أكلُّ فتىً يبدي ابتساماً مصادقٌ | أيخفى صديقٌ صادق وممازق
ولي عند شيخِ العصر بعضُ شكايةٍ | وإني بحلمٍ منه إن قلتُ واثق
لماذا حماك الله يُهمل جانبي | وغيري اذا ما قال قولاً يُوافَقُ
ويرعى إذا ما غاب في كلّ حالة | وإنّي له في حلبة الفضلِ سابقُ
وإني أخو فضلٍ له أذعن الورى | مخالفهم يا سيّدي والموافقُ
وأنت بحمدِ الله أدرى بأنّنا | سواق وأنت البحر بالفضل دافقُ
أيجملُ يا أعلى الأنام مكانةً | ويا مَنْ له زُهْرُ النجومِ مناطقُ
شكاية هذا الحال مني لغيركم | وفي الناس ذو بغض وفي الناس وامقُ
ولي عند بعض الناس لو شيت حرمة | ولكنّ قلبي بالفضائل عالقُ
فدم ما سرى ركبٌ وما ناح طائرٌ | وما لاح من أرضِ الأحبّة بارقُ

ولما عرضتُ عليه هذه القصيدة قام وقعد ، وبرق وارتعد . واعتذر عما صنع من قراءة الدرس ، وقال إنه من إلقـاء بعض الرفاق

لا منه[1] ، واستمريت على ترك حضور درسه[2] بالمدرسة ، الى أن توفي الى رحمة الله تعالى في سنة ٩٩٣ ، فأخذتُ الدرس المذكور بعـــده ، وشرعتُ أدرِّسُ فيه « شرح المحقّق العلاّمة المحلّي على منهاج الإمام النووي » رضي الله عنه . ولما مات دُفن بتربته التي أنشأها غربيّ جامع جرّاح بالقرب من مزار سيدي منصور بن عمّار . سقى الله ثرى قبره الغيث المدرار . ورثاه جمعٌ كبيرٌ من الفضلاء ، منهم المرحومُ الشيخ أسد الدين التبريزي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى ، ومنهم الشيخ أحمد العناياتي النابلسي المتقدم ذكره ، وغيرهما من فضلاء الزمان . وقد[3] كتب لي الشيخ أسد الدين قصيدته التي رثاه بها ومطلعها :

---

(١) هـ ، ب « .. الرفاق ، ولم يكن مني على قراءته وفاق » .

(٢) يختلف ماسيأتي هنا عما هو في ب ، هـ . ففيهما مايلي :

« . . وصممتُ على ترك مباشرته ودرسه . فكان من الاتفاق العجيب ، والحدثان البديع الغريب أنه توفي بعد صدور القصة عن قريب ، وأحلفُ أنّ بينهما أقلّ من سنة على حساب التقريب . وكانت وفاته في آخر سنة ثلاث وتسعين وتسع مئة . فمنّ الله عليّ بدرسه المذكور بعده ، وتوليتُه بعد أن كنتُ من جملة الطالبين عنده . وشرعتُ أدرّس الدرس المذكور ، وأحقق مافيه من التحقيق معلّقاً حاشية على تلك السطور . وجبر الله مني الخاطر المكسور ، مع اعترافي بالتقصير والقصور .

« ولما مات شيخنا المذكور رثاه جماعة من الفضلاء ، ونظم في فضله فرقة من النبلاء . ودفن بتربته التي أنشأها في حياته وهي بالقرب من تربة الشيخ منصور ابن عمار ... ومن جملة من رثاه الشيخ الفاضل ، جامع أشتات الفضائل ، الشيخ أسد الدين التبريزي المذكور في هذا الكتاب ... »

(٣) هـ ، ب « وقد نقلتُها من املائه عليّ بطريق الخطاب وهي : »

مصيبةٌ قد أذابتْ مِنّيَ الكبدا وأسْهَدَتْ لِيَ طرفاً طالما رقدا

وأفْنَتِ الصبرَ عن قلبي وقد وضعتْ مكانه الوجدَ والتبريحَ والنكدا

الى متى نحن في ذا الدهر في فرحٍ وحقّنا أن نزيد الحزن والكمدا

الى متى نحن فيه غافلون وقد يديرُ كأسَ المنايا بيننا أبدا

(١٠٦ب) ونحن كالشّرب بعضٌ مالَ ساعتَه والبعضُ منتظرٌ حتى يميل غدا

ألا ترى كيف اسماعيل سيّدنا كهف الأنام ومفتيهم إمام هُدى

ثوى وخلّفَنا رَهْنَ الأسى أبداً وسار نحو جِنانِ الخُلْدِ منفردا

مَنْ للفتاوى إذا أَضحتْ مفرّقةً مَنْ للدروس إذا ما طالبٌ قصدا

[مَنْ للتصانيف، مَنْ للمشكلات وقد أضحى رهيناً بقبرٍ لا يُجيبُ نِدا

يا لهفَ نفسي عليه كيف غُيِّب في بطنِ الثرى وهو بحر العلم قد زبدا

يا حسرتي وهو طودُ الفضل شامخه فكيف وارته تحت الأرض كفُّ ردى

يا مَنْ غدا طالباً للعلم مجتهداً خفّض عليك فسوقُ الفضل قد كسدا

يا طالب العلم بكِّ العلم منتحباً تأسّفاً فنسيمُ العلم قد ركدا

أبكيه ما دمتُ حيّاً بالدموع وقد قلّ البكاء له [حزناً][1] وإن نفدا

أبكيه مادمتُ في الدنيا رهين أسى ولا أرى بعده لي عيشةً رغدا

إن كان قد فارق الدنيا فلا أسفٌ فإنه بنعيم الخلد قد سعــدا

---

(١) وضعنا هذه الكلمة لضرورة الوزن ولورود البيت مختلاً في الأصل .

فإنّه قـال مولانا وسيّدنا ... نبيّنا مَنْ الى السبع العُلى صعدا
قولاً عظيماً عجيباً فيه منقبـةٌ ... لأمّة المصطفى الهادي الشفيع غدا
معناه عالمنا مثل النبيّ غـدا ... في سالف الدهرِ فافهمه تحز رشدا][1]

| ومنها |[2] :

لازال فوق ترابٍ ضمّ أعظُمَه ... لدى العشيّات والأسحار غيث ندا
كعلمه كثرةً أو مثل دمعيَ إذْ ... أبكي عليه وجمر البين قد وقدا
ياصاحبي ياخليلي ياحليف ندىً ... يافاضلَ الدهرِ ياَمنْ في العُلى اجتهدا
عليك مني سلام الله ما طلعت ... شمسُ الظهيرةِ أو بدرُ التمام بدا

ومرثيّةُ العلامة القاضي محبّ الدين نسيبه مطلعها :

محب على بعـد الأحبة لاأَقوى ... وكيف ورَبْعُ الأنس من بعدهم أقوى
وأوحشَ حتى لم يكن فيه آنسٌ ... وقد كان يحكي حسنُه جنةَ المأوى
وصاح غُرابُ البين في ذاك ناعياً ... وقد ذَرَتِ الأيّامُ آثارَه ذروا
وقد ضعضعت أركانه، وعمادُه ... وهى، ومحتْ أيدي الردى رسمَه محْوا
كأن لم يكن للعلم والفضلِ منهلا ... ولا لأولي التحقيقِ أهْلِ النهى مثوى
ولم يك ذاك الليث يحمي دياره ... وقد كان في أُسْدِ الشرى ماله شَرْوى

(١) الزيادة من هـ ، ب .
(٢) لاتوجد في هـ ، ب .

واقتنى كتباً كثيرةً قلّ أن جمع أحدٌ في عصره مثلها . وارتفع شأنه ، وكان أبوه من التجّار ، وكان له جدٌ لأمّه ، وكان يحبّه محبّةً شديدة . وكان يكتب له الكتب التي يحتاج اليها بالضرورة . وكان خطه غير جيد . ولما مات الشيخ بدر الدين بن مزلّق اشترى له كتبه جدُّه المذكور بثمان مئة دينار من الذهب ، فباع منها بهذا المقدار وأبقى لنفسه محاسنها . ولعمري إنها كتبٌ نفيسةُ الخطّ ، نفيسةُ الضبط . وكان كريماً بإعارتها لا يردّ طالباً . ولا يمنع منها راغباً . ولم يزل يسمو ، وبفضله ينمو ، حتى صار يُفتي مع وجودِ شيخ الإسلام البدر الغزي . وكان البدرُ المذكور يغضّ منه لذلك . ولمّا توفي البدر المذكور في سنة أربعٍ وثمانين وتسع مئة انفرد برئاسة الشافعية . وكان يدرّس في بيته ، وفي المدرسة الشاميّة البرّانية ، وفي جامع بني أميّة . وكان يقتني المماليك الحِسان والعبيد الحبش . وكانوا يلبسون الثياب الروميّة (١٠٧ آ) على قانون قضاةِ الروم . وكان يلبس الفراء السمّور والوشق والسنجاب ، ويركب البغال السّمان . وكان يعرفُ اللغة التركية والفارسيّة والعربيّة لسانه . وكان طوالاً مُهاباً سريعَ التكلّم . وكان فيه تواضعٌ للطلبة . وكان حافظاً لكثيرٍ من الشعر العربي المليح ، ويُحاضر به في مجالس الأعيان[1] .

---

(١) بعد هذا كلام في هـ ، ب لايوجد هنا وهو :

« وكان رحمه الله تعالى قد شرع في التأليف قديماً إلى زمان وفاته . فعلّق حواشي على مواضع شق من « مغني اللبيب » يؤيد فيه كلام الدماميني ويردّ على الشيخ الشمسي . وعلّق أيضاً حواشي على مواضع من تفسير القاضي البيضاوي وله رسائل غير ذلك . وكان له شعر حسن ، غير أنّ العلم غلب عليه . وكان رحمه الله تعالى قليل المحبة لي . وكان يحطّ عليّ في المباحث العلميّة ، ويُنازعني في الأدلّة اليقينية ، ويردّ عليّ ، ولا يلتفتُ إليّ . »

وكان (١) طلبه للعلم أولاً على شيخ الإسلام شهاب الدين الطيبي الكبير المتقدم ذكره . وتخرّج في النحو على المنلا محمود العجمي نزيل دمشق . وقرأ أيضاً على الشيخ المولى الصالح أبي الفتح الشبستري نزيل الخانقـاه الشميصاتيّة بدمشق . وقرأ أيضاً على شيخ الكلّ في الكلّ شيخ الإسلام الشيخ علاء الدين الشهير بابن عماد الدين . وقرأ الفقه على شيخ الإسلام فقيه الشام الشيخ نور الدين السّنفي المصري . وأخذ الحديث روايةً ودراية عن شيخ الإسلام ، علم العلماء الأعلام ، بقية السلف الكرام ، الشيخ البدر الغزي الشافعي . وروى عنه كثير من فضلاءِ الدهر ، وعلماء العصر . منهم صاحبنا العلاّمةُ الشيخ عمر القاري الآتي ذكره إن شاء الله تعالى . وصاحبُنا الشيخ تاج الدين القطّان . [والمرحوم الشيخ بدر الدين الجلجولي . والشيخ مصطفى بن العاجي الحلبي] ، ومولانا الشيخ أحمد بن أبي الوفاء السابق ذكره . والفقير الى الله تعالى صاحب هذا التأليف ، وكثير من بين أروامٍ وأعجام .

---

(١) ورد ذكر شيوخه في هـ ، ب بشكل آخر وهذا هو :

« قرأ الشيخ اسماعيل المذكور على جـاعة منهم شيخنا شيخ الإسلام ، علم العلماء الأعلام حسنة الليالي والأيام ، بقية القوم الكرام ، البدر الغزي العامري الشافعي ، صاحب التفسير العجيب المنظوم ، وغيره من التصـانيف المفيدة ، التي بينت معضلات المنطوق والمفهوم . ومنهم شيخنا شيخ الإسـلام ، الوليّ الصفيّ العارف ، الشهاب الطبي الكبير ، الذي اعترف بفضله الكثير ، الكبير والصغير ، والمأمور والأمير . ومنهم شيخ الإسلام وفقيه الشـام الشيخ نور الدين السنفي الشافعي المصري ، نزيل دمشق الشام ، سقاها صوب الغمام . ومنهم الشيخ الفاضل محمود العجمي الشهير عوتبستر ومعناه صاحب الشعر على رأسه فانه قرأ عليه المنطق وبعض العقليات . وكان رحمه الله غير محبوب عند الناس ولعل ذلك من الحسد الذي لايخلو منه جسد . »

وكانت له الفضائل العديدة ، والمحاضرات المفيدة . وكانت محاضرتُه كالنسيم إذا سرى ، وكالروض النضير إذا ما فاح مُزْهِرا . قسماً لقد كان يزيّن المجالس بمحاضرته ، ويُطرب المجالس بلذيذ مذاكرته .

وكان يقرأ الشعر النفيس ويُحسن قراءته مطرّبا . كان [١] الشيخ أبو الفضل الموصلي رحمه الله تعالى قد دعا العلماء الى بستان له في محلّة مَيْدان الحصا ، وكان ذلك في زمن زهر التفّاح . فكان النسيمُ يهبُّ وينشرُ الزهر كأنه لؤلؤٌ قد انتثر . فأنشد الشيخ اسماعيل المذكور قَوْلَ الأمير جمال الدين ابن قرناص الحموي :

قد أتينا الرياض لما تجلّت ... وتحلّت من الندى بجُمان

ورأينا خواتم الزهر لمّا ... سقطت من أنامل الأغصان

---

(١) ذكرت هذه الحادثة في ﻫ ، ب بشكل آخر . وهذا نصها :

« قلتُ : وقد كنتُ حضرت معه ضيافة في بستانٍ لبعض بني الموصلي . وكان زهر اللوز قد تبسّم ، ونسيم الشمال قد تنسّم . فهبّ على الأزهار وعطّر الآفاق بعرفه المعطار . فلما انتثرت منه عقود الدراهم ، وصارت لجراح القلوب بمنزلة المراهم ، قال لي الشيخ الجليل المذكور : حضرني قول الأمير ابن قرناص المشهور :

قد أتينا . . .

ورأينا . . .

فقلتُ له : هذان البيتان مأخوذان من قول الأديب محمد بن هانيء المغربي الأندلسي من قصيدة فريدة ، ذات محاسن عديدة :

خليليّ . . .

وحق . . .

فاستحسن مني ذلك الاستحضار ، وقال : إن هذا من محاسن الأشعار . فقلتُ له : نعم ، غير أنّ ابن قرناص نقل المعنى من الثرّيا إلى الثرى ، ومن الزُّهر إلى الزَّهر . فقال : نعم نعم ، حباك الله منه جزيل النعم . أجدتَ في بيان الفرقِ بين الكلامين ، ونقاتَ الأخذ صدقاً بلا ميْن . رجلنا في المحاضرة ، وتجاذبنا أطراف المذاكرة . وكان يوماً مشهوداً ، ووقتا سعوداً . »

فقلت له : يا مولانا ! ما أحسن ما قال ابن قرناص ، غير أنه ينظر الى قول الأديب محمد بن هانىء المغربيّ الأندلسيّ حيث قال من قصيدة :

خليليّ هُبّا فانصراها على الكرى كتائب حتى يهزم الليل هازمُ

وحتى ترى الجوزاء تنثر عقدها وتسقط من كفّ الثريّا الخواتمُ

فقال الشيخ اسماعيل : أحسن ابنُ قرناص في الأخذ إلاّ أنه نقل المعنى من الزُهْرِ الى الزَهر ، ونقله من الثريّا الى الثرى . وهذه العبارة في غاية الحسن كما ترى . وكان ذلك اليوم يوماً يُعَدُّ من حَسَنات الدهر . وكان المرحوم الشيخ المذكور يسميه يوم الأدب ، وكان يذكّرني به في غالب المجالس .

وكان له شعر حسن ونثر أحسن . فمن نظمه [1] ما قاله في مليح نجار :

أفديه نجّاراً بديعاً حسنُه جلّ الذي في حسنه قد فَرَّده

عُشّاقُهُ في دهشةٍ من حسنه فكأنهم خُشُبٌ لديه مُسَنَّده

وله [2] من جملة قصيدة يهجو القاضي علي القدسي العلمي :

وما القاضي عليٌّ غيرُ شخص إلى غير اللواطـــة لا يميلُ

فلا يصبو إلى قَدٍّ قويمٍ [3] ولا يصطادُه طَرْفٌ كحيلُ

ولكن مَنْ له دبرٌ ويعطى فذلك عنده الحسنُ الجميلُ

---

(١) في هـ ، ب « أنشدني مرّة من لفظه لنفسه ، رحمه الله تعالى في رمسه ، في نجّار حبيب ، صاحب حسنٍ غريب : »

(٢) في هـ ، ب « وأنشدني من لفظه هجواً في رجل من المقادسة ، وكان من بيت العَلَم ، المشهور كنارٍ على علم : »

(٣) هـ ، ب « فلا يصبيه ذو قدٍ رطيب » .

وقد[1] مدحتُه بقصيدةٍ طويلة حسنة رحمه الله تعالى ومطلعها :

رُوحٌ أقطّرها تسمّى أدمعا ودعتُها مُذْ قيل خِلّك ودّعا
وضعوا الردى وأظنّه علماً على شيء يُسمّى في الكلام تودّعا

الى أن قلتُ منها :

أسفاً وهل يُجدي التأسفُ بعدما ظعنوا وأبقوني أسحُّ الأدمُعا
يا ليتني لمّا حدا الحادي بهم أمسيتُ للعمرِ الطويلِ مودّعا
ياطالباً مني اصطباراً بعدهم أرأيْتَ بَيْناً واصطباراً جُمّعا
قدكنتُ أرتقب الحبيب يزورُني واليوم أرتقبُ النجوم الطُّلّعا

ومنها :

يا أيها القلبُ الذي ما زال من جِهَةِ الحبيبِ مروّعاً ومُصَدّعا
اقْصِرْ فإخوانُ الصبابة أقصروا وأمال كلٌّ للنصيحة مِسْمَعا
نازعتُهم كأسَ الغرام وقد صحوا فالآن آن عن الهوى أن تُقلعا
(١٠٨ آ) إن كان قلبي عاثراً من بعدها في مسلكِ الأهواء يوماً لا لعا
هل قد خلصتُ من الغرام ومَخْلَصي بمديحِ اسماعيل ألطف موقعا

ومنها :

لو أدرك الرازِيُّ أصبح حظّه لبديعِ منطقِ لفظه أن يسمعا

---

(١) هذا المديح كله لا يوجد في ه ، ب .

أوْ لو يباحثه الرئيس لأبطلت ... منه براهينُ الشريعة ماادَّعى

ولحادعن قدم الهيولي قائلاً ... بمعادِ أجْساد الورى متشرّعا

أضحى الأفاضلُ في الزمان قصيدةً ... وغدا بها شيخُ المشايخ مطلعا

وجروا بأطرافِ البسيطةِ أنهراً ... والماجدُ الممدوح كان المتبعا

وإذا دجى ليل الجدال بمبحثٍ ... قد أعجزَ الأفهامَ كان المرجعا

ومنها :

هذا وقد أرسلتُ نحوك سيّدي ... عذراء أولدها الفؤادُ وأرضعا

بل روضةً قد أزهرتْ لكنها ... سُقيتْ بماءالفكرِ كأساً مُتْرَعا

أبداً جوادُ المدحِ مني جامحٌ ... لكنه قد جاء با[سمك][1] طيّعا

ألفى صدوح المدح مني روضةً ... من فضلك العالي الذرى[2] فليسجعا

وبقيت يا فخر الزمان بدولة ... أبداً على طول المدى ان تنزعا

وكُسيتَ من نسجِ الفضائل حلّةً ... وَشّى مطارفَها الكمالُ ووشّعا

ما حنّتِ العشاقُ من أشواقهم ... لمّا حدا حادي الركاب مُرَجّعا

درّس رحمه الله بالأشرفية ودار الحديث ثم بالشامية البرانيّة مع تدريس الدرويشيّة ، ثم بالعادلية الكبرى مع تصدير بقعة بالجامع الأموي عمّره الله تعالى بذكره . وكان له قبولٌ عند الحكّام وعند القضاة . وكانت شفاعتُه مقبولة . واقتنى كتباً كثيرة قلّ أن جمع أحدٌ في عصره مثلها . وارتفع شأنُه . امتُحن في دهره مرتين :

(١) ورد البيت في الأصل ناقصاً ولعل الكلمة الساقطة هي « باسمك » الموضوعة بين قوسين وبها يستقيم الوزن والمعنى .

(٢) وردت في الأصل « الذي » ، والأصح أن تكون « الذرى » لموافقتها المعنى المقصود .

المرة الأولى اتُّهم بصبيٍّ تهمة كاذبة ، حديثُها مفترى بابتداع بعض المشايخ المتصوّفة . وكان ذلك في زمن أيالة المرحوم درويش پاشا [١] . وأعانه العلماء في تلك الحادثة الشنيعة أحسن إعانة ، لكنه وجد رحمه الله تعالى بذلك وحشةً عظيمة عند العوام والخواص ، وما ذاك إلا أن الصبيّ طلع بنفسه الى ديوان الامارة عند درويش باشا المذكور والدمُ سائلٌ على قدميه زاعماً أنّ ذلك صادر عن فتوحٍ به . وظهر بعد ذلك للخلق أنّ القصّة كانت بتعصّبٍ من الشيخ المذكور .

الثانية أنه حُبس مع الشيخ المدعو بالحجازي المدرّس يومئذ بالمدرسة (١٠٨ ب) التقويّة لميل بعض الحكام إليه لما يتوهّمون فيه من معرفة بعض شيء من علوم الحرف والزايرجة ، والله أعلم بصحة ذلك . وكان الحابس لهما رجلٌ من البوّابين بباب السلطنة بقسطنطينية المحمية يُقال له محمود ظلماً وتعدياً . وقد آلت به جرأتُهُ على خرقة العلم أنّه صُلب بموجب الأمر السلطاني المرادي . رحم الله مَن أرسله ونفّذه وكانت اليد البيضاء في الانتصار لخرقة العلم في هذه القضية للمرحوم شيخ الإسلام ، مفتي الروم شيخ محمد أفندي الشهير بچوي زاده ، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى . وكانت واقعة هائلة انتدب لها المفتي المذكور وعرضها على حضرة السلطان مراد وأفتى بقتله لحبسِ الشيخ اسماعيل المذكور ومعه الحجازي . وكان حاكم دمشق من جانب السيف أمير الأمراء حسن باشا بن الوزير الأعظم محمد باشا ومن جانب الشرع علي افندي ابن المحقق سنان أفندي صاحب « الحاشية » على تفسير البيضاوي في تفسير سورة الأنعام . وصُلب في خشبة مقابلةٍ لدار الإمارة بالشام يوم عيد الله الأكبر . وأظنّ ذلك

---

(١) انظر ولاة دمشق في العهد السلجوقي .

وقع في سنة تسع مئة واثنتان وتسعون ولم تطل مدة المرحوم الشيخ اسماعيل المذكور . وكان رحمه الله تعالى قد علّق على « مُغني اللبيب » في أوائله « حاشية » لم تشتهر . وكذلك كان قد علّق « حاشية » على مواضع من « تفسير الإمام البيضاوي » رحمه الله تعالى . وكان قد ألف « طبقات للمفسرين » فاختفت بعد موته وما عرفنا لها خبرا ، ولا وجدنا لها أثرا . وكانت ولادتُه في سنة ستٍ وثلاثين وتسع ومئة من الهجرة النبوية على صاحبها ألف ألف تحية ، وعاش سبعاً وخمسين سنة . | وعُدْتُه بمرضه الذي مات فيه . فرحمه الله رحمة واسعة ، فلقد كان نادرة من نوادر الزمان . فعليه الرحمة والرضوان [1] | .

قلت : وكان الأديبُ الأريب شاعرُ زمانه ، وماهرُ إخوانه ، ترجمانُ لسان العرب ، وواسطة عقد علماء الأدب ، الشيخ محمد بن الصالحي الهلالي الشافعي رحمه الله تعالى قد كتب إلى الشيخ اسماعيل المذكور أبياتاً يسأله عن لغزٍ في عقرب . فقال الشيخ محمد المذكور :

لمن كِلل للبيض منها تطلعُ ... ومِنْ دونِها بيضٌ لها الهامُ تركعُ

وما هذه الآسادُ يزأرْن حولها ... وما غابُها إلا الوشيج المشرّعُ

تنادوا سُحيراً للرحيل وأزمعوا ... ونادإهم صبٌّ ببيْنٍ مروّعُ (١٠٩ آ)

على رسلكم يا راحلين ترفّقُوا ... فهــذا فؤادي للركائب يتبع

وخفّتُ جسماً في رسوم ديارهم ... كما خلّفوا الأطلالَ تذري وتخشعُ

ولم أنس قبل البين ساعة خلسة ... عشيةَ جَدّوا للرحيلِ وودّعوا

(١) ساقط من ه ، ب . وفيها مكانه : « وخلّف ولداً ذكراً يُقال له عبد الغني ، وفاته بعد وفاته الطالب ، ولم يدرك من الفضل ما طلب » .

وقددار بالشمسِ المنيرةِ في الدجى ... هــلالٌ بأفلاكِ المحاسنِ يطلعُ

لها لَهَبٌ في الكاسِ تحسب أنّها ... إذا ما بدتْ من نارِ خدّيهِ تسطعُ

سقانا بأقداحِ الجفونِ وتارةً ... يدير علينا الراح وهي تُشَعْشِعُ

تقضّى زمانُ اللهو وانزاح جانباً ... وجاءت همومٌ للقلوب تصدّعُ

إذا مادجتْ أحلاكُ همكَ فأجلها ... بغرّةِ اسماعيل في الحال تقشع

سريٌّ له صمتٌ علتْهُ مهابةٌ ... ونُطقٌ إذا ما فاه فالوُرْقُ تسجعُ

جوادٌ إذا أعطى تقول هداتُه ... أسالتْ عيونٌ أمْ هي السحبُ تهمعُ

ترى الرفدُ وُرّاداً الى نيلِ رفده ... كم وردت هيمٌ الى الماء تشرع

إمامٌ بتهذيبِ العلومِ مولّعٌ ... وحبرٌ بليغٌ في الفصاحة مصقعُ

له في خلال البحث فكرٌ يجيلُهُ ... كبرقٍ بأكنافِ السحائب يلمعُ

فياابن الأُلى سادوا وشادوا مناقباً ... لهُنّ على هامِ السماكِ ترَفّعُ

أجبْ غيْرَ مأمورٍ ولكن تفضّلاً ... عن اسمٍ رُباعيٍّ به السمُّ ينقعُ

ومقلوبُ كلّ الاسم اسمٌ لساترٍ ... يُصانُ به الوجهُ المليحُ المبرقَعُ

وإن أُخذ الحرفان أولُ لفظه ... غدا وصفَ مذمومٍ يُهانُ ويُردَعُ

وإن أُخذ الشطرُ الأخيرُ فإنه ... غدا صفةً لله تسمو وترفعُ

فهذا سؤالٌ جاء يسعى تطفّلاً ... ولكنّه في طولِ فضلِكَ يطمعُ

فمن أين بيني في القريض تناسبٌ ... وَبَيْنك يا حبراً له الشعرُ يخضعُ
وما يستوي الشعران نَظْماً ورِقّةً ... وهل يستوي عقدان درٌّ ويرمع
بقيت ملاذاً ما سَرَتْ نسمةُ الصّبا ... وما غَنّتِ العيسَ الحداةُ ولعلعوا

فكتب الشيخ اسماعيل هذا الجواب | الجليل | :

بدت تتهادى والفؤادُ مروَّعُ ... فكاد لما لاقيتُ قلـــبي يقطعُ
أتتْ وظلامُ الليلِ أرخى سدوله ... فعاينتُ نورَ الشمس يبدو ويسطعُ (١٠٩ب)
فوالله ما أدري أأحلام نائمٍ ... ألَمّتْ بنا أم كان في الركب يوشع
ولاحت فما الشمسُ المنيرةُ في الضحى ... بأحسنَ منها طلعةً حين تطلعُ
وحيّت فأحيت مُسْتَهاماً بحبّهـا ... له عبرةٌ تهمي وقلبٌ مُرَوّع
وأملتْ أحاديثَ الصبابةِ والصّبا ... وإخوانِ صدقٍ قد مَضَوْا وترفعوا
على حين شيبٌ قد ألَمّ وجيرةٌ ... أضاعوا مواثيق الوداد وضيّعوا
لهم أبـــداً مني وفاءٌ وذمّةٌ ... ولي منهمُ الصدُّ الشنيعُ المصدّعُ
رعى الله مَنْ قلبي لديه مولّهٌ ... أسيرٌ ومَن عيني لذكراه تدمعُ
ومن لا يرى بأساً إذا بتُّ ساهراً ... وبات قريرَ العيْنِ وسنان يهجعُ
وإنيَ مِنْ قومٍ همُ [موطن][1] العلى ... وما لسوى الأفضال منهم تطلّعُ
أناسٌ زَكَتْ أحلامُهم وأصولُهم ... فأفعالُهم في جبهةِ الدهر تُلمعُ
ومالتْ الى فنّ القريضِ ونظمِه ... وذلك سير عزّ ما فيه مطمعُ

(١) هذه الكلمة ساقطة في الأصل وقد أثبتناها لأنها مناسبة للمعنى وبها يستقيم الوزن .

فقلتُ لها يا قرّةَ العينِ أوسعي … محبّكِ عذراً فالمعاذير تُسمَعُ

فما للقوافي اليومَ عندي مَرْبَعٌ … وما لقريضِ الشّعْرِ عنديَ مَرْتَعُ

ومَنْ سلك البحرَ الخِضَمّ ومَنْ غدا … تعمٌّ خطاياه وتهمى وتهمعُ

إمامٌ هُمامٌ لَوْذَعِيٌّ مُحرَّرٌ … فريدٌ بديعٌ للفنونِ منوّعُ

فصيحٌ بليغٌ كاملُ الوصفِ أروعٌ … مجيدٌ مفيدٌ كاتبُ الوقتِ مُبْدِعُ

فتى المجدِ والعلمِ المنيفِ وسيّد … له خُلُقٌ ما ان لديه تَصَنُّعُ

فصاحتُه أزْرَتْ بسحبان وائلٍ … ألم تبصروه كيف يُنْشي فيُبْدع

لئن فاق فضلاً أو غدا متفرّداً … فالله[1] يُعْطي ما يشاء ويَمْنَع

وذكّرني في اللغزِ صدغَ معذّبي … وقد جاء مثل المسك فيه تضرّعُ

زباناه في الدنيا تضرّ وإنما … زباناه في جوِّ السمٰوات تنقعُ

فدونكما عذراء تُبدي اعتذارها … وفي ما ترى من ظاهرِ الحال مقنعُ

ودُمْ في العُلى فرداً وفي الفضل واحداً … توشّي لما وسّعته وترصع

وكتب اليه الشيخُ محمد الصالحي الهلالي المذكور سؤالاً فقهياً وهو: (١١٠ آ)

أمولاي اسماعيل يا خير مرتجى … ويا فاتحاً باباً من العلم مُرتجا

ويا روض فضلٍ أَينَعَتْ ثمراتُه … ويا بحرَ علمٍ فاض لما تموّجا

بتحريرِ تحقيقٍ هُديتَ لمطلبٍ … عزيزٍ فأضحى للافاضل منهجا

سألتُك عن شخصٍ تحرّر نصفهُ … ونصفٌ رقيقٌ لم يجد عنه مخرجا

---

(١) كذا في الأصل .

جفا واعتدى عمداً على يد نفسه وأفصل عضواً بالدماء مُضَرّجا

فماذا عليه للذي حاز نصفه وما نصَّ حكمٍ بالشريعة انتجا

فكتب اليه الجواب :

أكامل هذا العصر في العلم والحجى وموضح ما من غَيْهب الشك قد دجا

ويا شمسَ دينِ الله يا فاضلاً غدا من الشمس شمسِ الكونِ أبهى وأبهجا

لك الله من حبْرٍ له فضلُ فِطْنَةٍ تضوّعَ منك المسكُ لما تأرّجا

لقد جاءني من بحرِ علمك جدولٌ ففرّح قلبي حين همّيَ فرّجا

على جبرِ أوقات تفاقم أمرُها وطاعونُها قد قلّ منه الذي نجا

فقلت وقلبي بالهموم مُشَتّتٌ وعيني تنشّي بحر دمع تموّجا

لقد أهْدَرَ الجاني بذلك عضوه وإن كان عضواً بالدماء مضرّجا

وقد فقد المولى يَدَي عبده فما لها بدل بل خاب من ذلك الرجا

أَو الثُّمْنُ مما قابل الذات لازمٌ أو الرُّبعُ يُعطيه المبعّض مزعجا

كما في فتاوى المروزي ذاك كلّه وأوسطُها رجّح سَلِمْتَ من الشجا

فهاك جواباً لا برحت مسدّدا مجيداً مفيداً للفروع مخرّجا

ودُمْ أبداً في نعمةٍ وسعادةٍ مُعيناً مُغيثاً كلّ خطبٍ مفرّجا

٨٧

الشيخ إسحاق ابن شيخ الإسلام

الشيخ سراج الدين عمر ابن شيخ الإسلام الشيخ شمس الدين محمد بن أبي اللطف [المقدسي] مدرّس الصالحية بالقدس الشريف

كان والده الشيخ عمر حنفيّ المذهب ، ومفتي الحنفية بالقدس الشريف . والشيخ اسحاق هذا شافعيُّ المذهب تولّى تدريس المدرسة الصلاحية (١) بقوة المال وبجاه أبيه . والحال أنّها مشروطةٌ لأعلم علماءِ الشافعيّة في ديار العرب ، وعلوفتُها في كل يومٍ مثقالٌ من (١١٠ ب) الذهب . وهي من بناء المرحوم الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي أخذ القدس من يد النصارى . وله فضيلةٌ متعلّقة بالفرائض والحساب . وله شريكٌ في التدريس المذكور هو ابن عمه الشيخ يوسف بن أبي اللطف ، ولكن التصرّف في الغالب إنما هو للشيخ إسحاق ، ولكن في نفس الأمر له مكارم أخلاق غريبة ، تُحكى عنه في الكرم أمورٌ تبعد على أبناء الزمان . وحاصل الأمر أنّه في مكارم الأخلاق آية ، وفي الجود والسخاء غاية . ربما تأتي الى بيت المقدس قافلة للزيارة فيضيف غالبهم ولا يملّ من ذلك أبداً ؛ والعمل الآن في بيت المقدس عليه وعلى ابن عمه الشيخ جار الله الآتي ذكره في حرف الجيم إن شاء الله تعالى .

فأما الشيخ اسحاق هذا فهو شافعيّ والشيخ جار الله حنفيّ .

---

(١) انظر المعاهد المصرية في بيت المقدس لأحمد سامح الخالدي ، ص ٦ .

وحاصل الأمر أنه موصوف بالكرم الذي فاق به على الأكابر والأصاغر ، وافتخر به على الأوئل والأواخر . لا يَرِدُ واردٌ إلى بيت المقدس إلاّ ويجد منه مكارم شاملة ، وأخلاقاً لطيفة كاملة . بحيث شاع له بذلك ذكرٌ في جميع الأمصار ، وافتخرت به الأكارمُ في كلّ ديار . والكرمُ يغطّي كلّ عيب ، ويُرضي عالم الغيب . على أن لا عَيْبَ فيه سوى عدم المهارة في ميدان العربيّة ، ولعله كامل في الفنون الشرعيّة . وهو في هذا التاريخ مقيم في بيت المقدس على وصف الكرم ، فجمّل الله بجوده ذلك الحرم .

وقد قدم الى دمشق في حدود سنة خمسٍ بعد الألف ، فمرّ على الشيخ أبي الطيب الغزي السابق ذكره في هذا الكتاب ، في باب البريد . فكأنه ما وفّاه حق السّلام ، ولا أعطاه ما يستحق من الإكرام ، فابتدر | بتأليف | (١) أبيات يهجوه فيها ، وقد أنشدنيها ، فعلق في فكري منها قوله :

بني اللطفِ ولا لطف خذوها مُرّة العتبِ

وسحقاً لك يا اسحا ق من قشرٍ بلا لُبِّ

شُهرت بملبس التلبيـس في شرقٍ وفي غَرْبِ

وهي طويلة الذيل ، سال قلمه في مجاريها كالسيل ، وقد ندم بعد نظمها ولكن بعد خروج السهم ما ينفع الأسف ، وما يدفع عن صاحبه اللّهف . وما زالت الأشراف تُهْجى وتُمدحُ . والحمد لله أولاً وآخراً . وباطناً وظاهرا .

---

(١) ساقطة من هـ ، ب . وفيها « فابتدر بأبيات » .

٨٨

الشيخ أمين الدين الصالحي الهلالي الدمشقي
أحدُ الموقّعين للأحكام الشرعية بدمشق

هو الشيخُ الشاعرُ ، الناظمُ الناثر ، أمينُ الدين بن عثمان . قرأ أوّلاً القرآن ، وطلب العلم ففاق على الأقران . لكنّه بعد ذلك تركه . ومحاه عنه بطريق سلكه . وهو طريق (١١١ آ) التوقيع للأحكام في المحاكم ، فاقتصر على خدمة التوقيع وعلى نظم الشعر ، لكنه كان غالباً لا يجيد إلاّ في الهجاء . سمعتُ من لفظه مرّات وهو يقول : كل شاعر له عينان نضاختان في فكره ؛ الواحدة عذبة للمديح وما يضاف اليه ، والثانية متقنةٌ للهجو وما يُقاس عليه . وأمّا أنا فإن لي عيناً واحدة فقط ، وهي العينُ الثانية ، فإني لا أعرف إلاّ الهجو والمثالب ، ولا أذكر في شعري سوى القــدح والمعايب . فقلتُ له : تبّاً لك يا بغيض ، | وهل يليق |[1] بك أن تُقبّح محاسن القريض ؟ فقال : هذه جبليّة ذاتيّة ، وطبيعة على القبح مبنيّة . وحاصل الأمر أنه كان مِقْراضَ الأعراض ، وسيفاً يقطع به على مقتضى الأهوية والأغراض . فعفا الله تعالى عنه وعن أفعاله ، ولا كتب عليه من أقواله .

وأمينُ الدين هذا هو ابن عم الشيخ الفاضل الكامل الشيخ محمد الصالحي الهلالي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الميم .

---

(١) ساقط من هـ .

ومن شعر الشيخ أمين الدين المذكور قولُه يهجو عمّه ولي الدين البزوري :

إذا رأيت وليّ الدين مفتكراً منكّساً رأسه إنسانه ساهي
فذاك من أجل دنياً لا لآخرةٍ خوفاً من الفقرِ لا خوفاً من الله

وله أيضاً هجوٌ كثيرٌ في بني الخطّاب ، الجامعين لجميع القبائح بلا ارتياب . فمنه قولُه :

بيت ابنِ خطّابٍ غدا بيتاً قليلاً خَيْرُهُ
ينفُقُ فيه عاشقٌ قام عليه أيْرُهُ

وقد جمع هجوه في الطائفة الخطّابيّة ، الذين لا تجوزُ شهادتهم في واقعةٍ شرعية ، في جزءٍ خاصٍ ، شائعٍ بين العوامّ والخواص ، وسماه « قَرْعُ القبقاب في قرعة ابن الخطّاب » فيه كلُّ عجيبة ، وكلّ سبّة غريبة .
ولما كان أمين الدين المذكور كاتباً في المحكمة الكبرى نظر إلى شهودها فوجدهم تسعة وهو واحد منهم ، ووجد قضاتها أربعة ومنهم ابن الخطاب كمال الدين ، الذي ليس له من اسمه لا كمال ولا دين فقال وأجاد :

قالت لنا الكبرى أمَا آن لكم ما توعدون
قضاتُنا أربعةٌ لكنّهم لا يعلمون
شهودُنا عِدّتُهم تسعةُ رَهطٍ يُفسدون

وله في هذا الباب ما يسحر الألباب ، ولا يغلَقُ معه كتاب ، لا سيّما هجو بني الخطّاب ، فاته ما لا تلبس عليه الثياب . ويكفينا من القصّة حصّة ، فالبعرةُ تدل على البعير ، وأثرُ الأقدامِ يدلُّ على المسير . وكانت (١١١ ب) وفاته في سنة خمس بعد الألف | من الهجرة النبوية . على مهاجرها ألف ألف تحية | .

٨٩

[أسد[١] الدين بن محمد الصفدي

هو صاحبنا وخليلنا وحبيبُنا وصديقنا . زارني يوم الجمعة ثاني جمادى الأولى من شهور سنة تسع عشرة بعـد الألف . فاتفق وهو جالسٌ عندي أنها صدرت بدمشق عجيبة . وهي أنّ سيّداً شريفاً من السادات الحسينيّة الخادمين لمزار السيدة رقيّة الصغرى بمسجد الراس ، بالقرب من باب الفراديس ، يُقال له جمال الدين ، وكان يتعاطى بيع الفواكه في الجانب المذكور . فصلّى الجمعة في اليوم المذكور وخرج من الجامع الأموي طاهراً متوضئاً . فوقف في جانب حانوته ، وإذا بمملوك أبيض بحري كان شكله غاية لا تُدرك على ما يُقال ، بل قيل إنه لا نظير له في الحسن — وقف عليه وطلب منه بطيخاً أصفر . فتقاول معه واختلفا في ثمن البطيخ . فيُقال إن الشريف المذكور كلّم المملوك كلاماً يتعلّقُ بطلب ما لا يليق من الفاحشة ، ولا أتحقّق صحة ذلك . فضربه بسكين كانت معه في لوحه ، وهرب المملوك . فدخل الدم في جوف السيّد وشرع يخرج من أنفه وفمه . وطلب الماء فلم يُسْقَ خوفاً عليه ، فوقع ولم يلبث أن خرجت روحه . فبادر بعض خدم العسكر الى إمساك المملوك والسكين مُشْرَعة في يده . فتعاصى عن الإمساك ، فتكاثروا عليه إلى أن أوثقوا كتافه . فاجتمع الناس وأهل المقتول وذهبوا بالمملوك الى حاكم دمشق ، وهو الوزير الحافظ أحمد باشا . فقال لأقارب المقتول :

---

(١) هذه الترجمة لا توجد في م . أضفناها من هـ ، ب . وجاء ترتيبها متأخراً عن موضعها .

أيها السادة ! إن كان للمقتول أولاد صغار فالرأي أن يُباع المملوك ويُزاد فوق ثمنه إلى أن يُرَبّى الأولاد بالمال . إذ لا شُبْهَةَ أنهم فقراء . فبادروا بالصراخ وإظهار عدم الرضا . وكان السيِّد محمد بن عجلان ، النازل في بيت الرفاعي بمحلة الميدان ، نقيب الأشراف إذ ذاك . فقال : الرأي قتلُ المملوك حتى لا يُقال مملوكٌ في الرقّ قتل شريفاً صحيح النسب ولم يُقتَل به ، أو يُقال باعوا شريفاً مقتولاً ظلماً بقليل من المال .

فلمّا صمّموا على القتل قُتِل المملوك بالقرب من مصرع السيّد المذكور ، وذُهب به ، مع بُعْدِ المناسبة بينهما . ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ .

وقد شاهدنا المملوك مطروحاً في الجانب القبلي من مزار السيّدة رقيّة ، والسيّدَ ممدداً في نفس المزار ، والنوائح ينُحنَ عليه . إلى أن دُفن السيّدُ وبقي المملوك ليلة السبتِ الى الصباح . فغُسل ودُفن في تربة مرج الدحداح . وتأسّف الناس على شرف المقتولِ وعلى حُسْنِ القاتل .

وقد أفتَيْتُ بأنّ المملوك لا يسوغُ قتله الآن فوراً لأن الوارثين للقصاص — أعني أولاد السيّد المقتول — صغارٌ لم يبلغ أكبرهم أربع سنين . فكان الواجب أن يُحبس القاتل الى أن يبلغ الأولاد ، وهم بعد ذلك بالخيار ، إن شاءوا أخذوا القصاص وإن شاءوا عَفَوْا عنه وأخذوا الدية . ولكن سبق السيفُ العذل . وكلٌّ عامل عليه جزاء ما صدر عنه من العمل . فإن القاتل قد فات ، وصار في عِداد الأموات ، ولا يُغني أسفٌ بعد فَقْد ، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعد] .

٩٠

الأمير إدريس بن حسن
ابن أبي |نمي بن|[1] بركات الحسني صاحب مكة يومئذ

شاهدتُه بمكة في ذي الحجة من سنة عشرين بعد الألف . وهو حاكمها وبيده أزِمّتُها ، ويشاركه في ذلك الأمر الأميرُ محسن بن حسين بن حسن ابن أبي نميّ مشاركةً قليلة . ولقد مدحتُ الأمير ادريس المذكور بقصيدة حسنةٍ ، وأشرتُ فيها الى معاتبته بتأخيرِ راتبي المعتاد لقضاة المحمّل الشامي ، لأني كنت متولّياً قضاءَ الركب الشامي في السنة المذكورة . فأرسل إليّ الى المخيّم الشامي بباب المعلّى نحو عشرين رأساً من الغنم ، وقنطارين من السمن الأصفر البقري المليح . ولمّا سرنا من مكة المعظّمة وودعنا بيت الله بطواف الوداع ، بل بوضع القلب عند هاتيك البقاع ، ذكر لنا بعض أتباع الشريف إدريس المذكور أنّه يترقّب حضورنا إليه ، وجلوسنا بين يديه . فقلتُ : أنا ما تركتُ الوداع ، إلاّ خوفاً من أن يُقال جاء للوداع ، في حجة الانتفاع . فسرنا على بركة الله تعالى الى أن نزلنا بمنزل خُلَيْص . فإذا رسولٌ من جانب السلطان المذكور يسأل عنا ومعه هدية سنيّة . فانظر الى كرم هذا الأمير الذي ليس له في رفعة الشأن نظير ، كيف صَدَفْنا عنه ولم تصدف عنّا مواهبُه ، وأعرضنا عنه وخضع لنا مع العلوّ جانبُه . فيحقّ لنا أن نُنْشِد في شأنه الكريم هذين البيتين :

---

(١) ساقط من ه، ب .

تَصدَّفتُ عنه ولم تصدف مواهبُهُ عنّي وعاوده ظنّي فلم يَخبِ

كالغيثِ إنْ جئتَهُ وافاكَ ريّقُه وإن ترحّلتَ عنه جَدَّ في الطلبِ

ويحقّ له أن يُنشِد في ما يتعلق بفعله ، وإدرار فضله :

ونكرِمُ جارنا مادام فينا ونُتْبِعُه الكرامةَ حيث كانا

وقد أنشدتُه القصيدة التي نظمتُها في مدحه في منزله الشريف بمكة المكرمة . وكان في المجلس رجلٌ يُقال له بهرام آغا . وهو رجل روميٌّ قديمُ العهد في خدمة البيت الحسنيّ السلطاني . وقد قيل إنه خدم الشريف أبا نميّ ، والشريف حسناً ، والشريف مسعوداً ، وغيرَهم من الشرفاء الذين حكموا في هاتيك البلاد الحجازية . واستقرّ الآن في خدمة الشريف ادريس المذكور . وهو رجل طوالٌ حسنُ الشكل لطيفُ الطّبع يتوسّط بالخير (١١٢ آ) عند من يكون شريفاً وحاكماً بهاتيك البلاد . وهوعندهم بمنزلة الوزير . ولقد دخلتُ بيتــه ، وهو في مقابلة باب السلام . وله رواشنُ عاليةٌ . وقال لي : أتدري يا مولاي ما تحت هذه الرواشن العالية ؟ فقلتُ : لا علم لي ، قال : هذه فوق بركةٍ من الماء الجاري .

ومن جملة القصيدة التي مدحتُ الشريفَ إدريس بها هذه الأبيات ، وكان نظمها في ذي الحجة من سنة إحدى وعشرين بعد الألف[1] :

مولاي يا ماجداً لم يَحْكِهِ أحدٌ ولو سعى جهده في سالفِ الأممِ

لا بدع إنْ فقْتَ كلَّ النّاسِ قاطبةً فأنت من نسلِ خيرِ الناسِ كُلّهمِ

---

(١) هـ ، ب زيادة « من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل التحية . وهي هذه » .

قصدتُ ساحةَ جودٍ في منازلكمْ   لم أستلمها ولا قبّلتُها بفمي

ولا وردتُ إلى شرب تروّقُه   منك البشاشةُ والقلبُ المشوق ظمي

وليّكم أنا والأيّامُ تشهدُ لي   بالصدق من قبل أن أصبحت ذا حكم

أرجو بكم شربة قد راق منهلها   والحرُّ يركض في أحشاء مضطّرِم

٩١

الشيخ أويس الرومي
شيخ الطريقة الأويسية

ورد من بلاد الروم ، وسكن بعلبَكّ . ويقال إنّ له اثنى عشر ألف مُريد . وكان مع الصلاح فاضلاً عالماً ، لكنّ الأُوَيْسِيّة كلّهم يعتقدون أن الوليّ إذا مات انقطع مددُه وامتنعت كرامته . وأخبرني شيخُ الإقراء بدمشق وإمامُ الجامع الأموي في محراب الحنفيّة وشيخُ الفرائض بدمشق أيضاً مولانا الشيخ علاء الدين عليّ الطرابلسي | أبا |[1] ، أنّ ولده الشيخ ناصر الدين إمام الجامع الأموي سابقاً ، وكان من معتقدي الشيخ أويس المذكور ، أخبره أن رجلاً من مدينة عكّار كان مُنْكِراً على الشيخ أويس المذكور . فرأى في منامه قائلاً يقول له : ألا ترجع عن إنكارك على الشيخ أويس ؟ ثم انتبه من منامه وقصد الرحيل الى دمشق لمجرّد زيارته . فجاء الى أن وصل الى عمارة الدورة بين وادي بردَى ووادي الزبداني ، فنزل هناك . وكان له بغلٌ ، فخرج من العمارة وأرسل البغل ليرعَى في تلك الأرض ، وجلس بالقرب منه . فأخذته سِنَةٌ من النوم ، فاستيقظ فلم يجد الدابة المذكورة ، واجتهد في طلبها فلم يجدها . فقال في خاطره مخاطباً : يا شيخ أويس ! أنا ما خرجتُ من بلدي إلاّ لزيارتك . فإن كنت وليّاً فأرجِع لي دابتي .

---

(١) ساقطة من ه ، ب .

فبينما هو جالس واذا (١١٢ ب) برجل يناديه من ورائه يقول له : خذْ بغلك . فالتفت ، فإذا بشيخٍ أبيض اللحية قد أعطاه رسن البغل وسلّمه إليه . فلما حدّق النظر فيه فاذا هو الذي رآه في النوم . فعلم أنه الشيخ أويس بنفسه . ثم إنه غابَ عنه من ساعته ، وطلبه فلم يجده . وكان جاء اليه بالجسد المثالي الذي يقول به الصوفية . فوجّه الرجلُ الى دمشق فرأى رجلاً من مُريدي الشيخ أويس المذكور ، فقال له : جئتُ لزيارة الشيخ أويس . فقال له الرجل المذكور : إنّه قد مات من نحو ثلاثة أيام . فبكى الرجلُ وتأسّف على عدم مشاهدته له . فسأله الرجل المذكور عن صفة الشيخ . فوصفه بأوصافٍ مطابقة لما شاهده في منامه ، وفي مشاهدته له عند تسليمه بغله له . فعلم أنّه هو الذي جاء اليه لينقذه من سوءِ اعتقاده فيه . فقد قال ﷺ : يقولُ الله تعالى : مَنْ عادى لي وليّاً فقد آذنتُه بالمحاربة ، فاعلم ذلك .

كذا أخبرني بذلك مولانا الشيخ علاء الدين المذكور بمنزلي بدمشق ، على نهر بردى، في زقاق النحّاسين ، بين بابيْ السّلامة والفراديس ، في يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي القعدة من شهور سنة سبع عشرة بعد الألف من الهجرة النبوية على مهاجرها ألف ألف صلاة وألف ألف تحيّة .

٩٢

الشيخ ادريس الواعظ نزيل دمشق

هو إدريس بن محرّم . قرأ أوّلاً في العربية على مولانا حسام الخطيب . ثم قرأ على المولى العلامة المفتي چوي زاده ، ثم على المولى حسن چلبي ، ثم على المولى عمر أفندي ، ثم على المولى شيخي چلبي ، ثم على المولى مصطفى أفندي ، ثم على المولى حسن چلبي ابن المولى علي افندي الشهير بابن القنلّي . ولم يزل يتنقّل من عالم إلى عالم إلى أن وصل إلى عالم يقال له بُخاري زاده ، ثم صار مُلازماً منه على قانون علماء الروم في دولة ملوك بني عثمان . خلّد الله دولتهم الى انقضاء الدوران .

وتولّى ادريس المذكور مدرسة مسيح باشا في مدينة أدرنه . ثم تولّى مدرسة مسيح باشا في مدينة كليبولي ، وتولّى مدرسة حاجي حسن بأربعين عثمانياً . وبعد ذلك قدم إلى قسطنطينيّة وصار بها واعظاً ناصحاً ، وترك طريق المدارس ، واستمرّ على ذلك إلى أن مات المرحوم بستان الواعظ الذي يأتي ذكره في تاريخنا هذا في حرف الباء بدمشق في التاريخ المذكور . فطلب جميع جهات بستان المذكور بدمشق من خطابةٍ وتدريسٍ ووَعْظٍ ، وغير ذلك من علوفاتٍ من مال السلطنة . فأعطاها له السلطان الأعظم السلطان مراد بن سليم رحمه الله تعالى . وقدم الى دمشق في السنة التي مات بها بستان المذكور ، وهي سنة اثنتين بعد الألف ، في غالب ظني . وهو الآن مقيم بدمشق ، وله مشيخة في مدرسة المرحوم أحمد باشا الشهير بشمسي الذي ذكرناه في حرف الهمزة . ولكن له بيت آخر في المحلة

الجديدة بدمشق . وهو خطيبٌ بالمدرسة السليميّة ، بصالحيّـــة دمشق المحميّة . وواعظٌ بجامع بني أميّة ، فوق الكرسي الرخام في مقابلة مزار حضرة النبيّ يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام . وله بعضُ فضيلة . زارني مرّةً وحكى لي عن جميع ما رقمتُه عن الموالي الذين أخذ عنهم . وأخبرني بعضُ من يعرف حقيقة حاله أنه مُمَوِّهٌ ، وأن باطنه يميل الى المال ، حتى إن بناته يملكن من الذهب واللؤلؤ ما لا يقدر عليه بنات الملوك .

وبعد إذ كتبتُ من أحواله ما تراه عاشرتُه وصاحبتُه وحضرتُ مجلس ذكره في مدرسة المرحوم شمسي باشا المذكور . فرأيتُه معمّر الباطن مجمّل الظاهر . وباحثتُه في كثيرٍ من دقائق العلوم لا سيّما مواد التفسير ، فرأيتُ له ملكة في كثيرٍ من المعارف والقواعد العلميّة . وقد حجّ الى بيت الله الحرام من الشام في سنة عشر بعد الألف . وكانت الوقفةُ الجمعة . ثم رجع سالماً ، وذهب الى مصر في السنة المذكورة لزيارة ما بها من المعاهد ، ولصلة بنتٍ له هناك كان قد تزوّج بها بعضُ أعيان الدولة . واجتمعتُ به بعد حضوره من مصر ، وسألتُه عما رأى هناك . فأثنى على كثيرٍ من علماء ذلك الجانب ، وها هو الآن مقيم بدمشق يذكر على عادة مشايخ التصوّف ، ويدرّس الطلبـــة المقيمين بالمدرسة المذكورة في أنواع العلوم . سلّمه الله تعالى وكثّر من أمثاله ، وأصلح جميع أحواله . والحمد لله وحده .

حرف الباء

٩٣

أبو البركات [الغزّي]

هو الشيخ بدر الدين أبو الجود محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله ابن مفرّج بن بدر بن عثمان بن جابر بن فضل بن ضوء الغزّي العامري . يتّصل نسبه الى عامر بن لؤي ، واليه أشار والده الرضيّ حيث قال :

وأبو الفضل كنيتي وانتسابي من قريشٍ لعامرِ بن لؤيّ

الشافعيّ الأشعريّ الدمشقيّ مولداً ومنشأً ووفاةً . كتب بخطه أنّ مولده في سنة أربع وتسع مئة . فتكون مدة عمره ثمانين عاماً .

وهو شيخ الإسلام على الإطلاق ، وفاضلُ دهره بالاتفاق . اشتغل أوّلاً على فقيه الشام الشيخ تقيّ الدين ابن قاضي عجلون ، وعرض عليه بعضَ مصنّفاته فمدحها لمن حَضَرَ مجلسَه ، ودعا له ، كما كتب بخطه . وقرأ على والده القاضي رضيّ الدين . ورحل الى مصر مرّةً مع أبيه فقرأ في تلك المرّة على شيخ الإسلام قاضي القضاة زين الدين زكريا شارح « الروض » و « البهجة » . وأجازه ، وأجلّ رواياته عنه عن شيخ الإسلام | الشهاب |[1] بن حجر . وروى أيضاً عن شيخ الإسلام قاضي القضاة البرهان بن أبي شريف ، أخي شيخ الإسلام المحقّق الكمال ابن أبي شريف . وروى أيضاً عن الحافظ القلقشندي ، وعن الحافظ المزّي ،

---

(١) ساقطة من هـ .

وعن شيخ الإسلام جلال الدين الأسيوطي ، وغيرهم . وكان من بقايا السلف ، عليه أبّهةُ العلم ورونقُ الصلاح ، وصان العلم فصانه ، وقوّى جانب الحق فقوّى الله أركانه ، ما تردّد إلى بيتٍ كبيرٍ ولا صغيرٍ ، ولا خضع لحاكمٍ ولا أمير .

أفتى في دمشق نحو ستين سنة تقرّباً الى مولاه ، وطلباً لقربه ورضاه . كان المُستَفتي يقف على باب حجرته المعروفة بالحلبيّة في قُرْنَةِ الجامع الأموي ، بالقرب من المدرسة الكامليّة . فتظهر له جارية أو عبدٌ صغير لأخذ الفتوى منه . فيعرضها على الشيخ ، فيكتب الجواب ويعطيها لصاحبها من غير أن يرى أحدهما الآخر . ولقد شاهدتُ ذلك في سنين عديدة ، ومدّةٍ مديدة .

ولقد كنا نختلفُ معاشر الطلبة في مسألة أو عبارة مشكلة . فكنّا نكتبها ونرسلها اليه على سبيل الاستفتاء ، فيكتب عليها ما ينبغي أن يُكتب . وكان يقول : والدي كان ينفعُ الناس بالقضاء ، وأنا أنفعهم بالفتوى . وصنّف الكثير ، وكتب الغزير ، من ذلك « تفسيره المنظوم » ، الذي تحار عنده الفهوم . يدخل في أكثر من مئة ألف بيت مُرَجَّزٍ مع التزامه أنّه لا يُدخل فيه الحشو أبداً . وهذا عجيب . ولقد خاض فيه علماء عصره ، وفضلاء مصره . فمنهم من أجازه ، ومنهم من منع جوازه ، ومنهم من أنكره ، ومنهم من اعترف له وشكره ، |[1] وعندي أنه لو تركه لكان أولى ، لأن مقام كلام الله من مقام الشعر أعلى . وليت شعري إذا قال قائلٌ للشيخ رحمه الله تعالى : إذا جرّدت كلام الله جلّ وعلا عن نظمك ، وأخرجته وميّزته عنه فهل تراه بعد ذلك موزوناً ؟ لا يسعه

---

(١) من هنا الى قوله الأزل ياض في ﻫ .

أن يقول إلا أن يعود وبعد تجريد كلام الله عنه . غير موزون . فيلزم حينئذ عليه أن يكون قد جعل القرآن العظيم جزءاً من شعره يوزن بتفاعيل الشعر . وهذا دليل قاطع على أنه جعل كلام الله تعالى بعضاً من الشعر ، وبعض الشعر لا محيد له عن هذا أبداً .

ثم إنّ شيئاً نزّه الله تعالى مقام نبيّه عنه فقال تعالى ﴿ وما عَلَّمْنَاهُ الشعرَ وما ينبغي له ﴾ [١] هل يليق أن يجعل كلام الله تعالى بعضه وداخلاً فيه وما أبعد الشعر عن كلام الله تعالى .

ثم إنك إذا تأمّلتَ التفسيرَ المذكور لا تجد فيه زائداً عن صورة النظم إلاّ ما لا يعظم وقعُه . فإنه قد نظم محصّلَ « الكشاف » و « زبدة البيضاوي » ، وزاد بعضَ أوجهٍ وبعض نكتٍ منقولة في الكتب غالباً . يشهدُ بذلك من شاهده وتأمل معناه . ونظر الى خباياه وفحواه . فلو جعل مكانه تفسيراً بسيطاً منثوراً يوضح فيه بعض مشكلات البيضاوي أو جعل موضعه حاشية على تفسير القاضي عبد الله البيضاوي لكان تاجاً على مفرق الزمان ، وابتهاجاً لأهل التحقيق والإتقان ، ولكن هكذا قُدّر في الأزل | [٢] .

وللشيخ تصانيف تزيد على المئة منها « التفسيرُ » المذكور . ومنها « شرح » على منهاج الإمام النووي رضي الله عنه محرّرٌ محقّق . غير أنه عبارة عن شرح « المدقق » للجلال المحلي مع بعض زيادات . ومنها « حاشيتان » على الشرح المذكور للمحلّي . والموجود بأيدي الناس واحدة منهما وهي الصغرى ولا بأس بها . ومنها « شرح على نظم جمع الجوامع » الأصولي لوالده القاضي رضي الدين . ومنها « فتح المغلق ، في تحرير الخلاف المطلق » في الروضة . وقد جعل له ختماً في مشهد الإمام زين العابدين المعروف

---

(١) سورة يس الآية ٦٩ .

(٢) هنا ينتهي البياض في هـ .

الآن بمشهد المحيا . وكان الختمُ المذكور مشتملاً على عدة من العلماء كشيخنا شيخ الإسلام الشيخ اسماعيل النابلسي الشافعي ، وشيخنا شيخِ الإسلام المحقّق العماد الحنفي ، وشيخنا الشمسِ بن المنقار الحلبي نزيل دمشق ، وشيخنا شيخِ المحدّثين الشمسِ محمد بن داود المقدمي ، وشيخنا شيخ الإسلام الشهاب الطيبي الصغير المتقدم ذكره . وحَضَرَهُ أيضاً شيخ الإسلام واعظُ عصره الشيخ يحيى بن حامد الصفدي . وكان المفتي الرومي العلاّمة الكامل محمد أفندي الشهير بابن المعيد حاضراً بالمجلس أيضاً . وكان الشيخ البدر في المحراب جالساً وعليه عمامة سبكيّة حسنة قد أرخى لها عذبة صغيرة احترازاً عن الاقتعاط المكروه . وعليه صوفٌ عظيم فستقيّ . وكان ابن المعيد المفتي عن يمينه ويليه الشيخ ابن حامد ، ويليه الشمس الداوودي ، وهكذا . وكان عن شماله أبو الفداء اسماعيل النابلسي ، ويليه العماد الحنفي ، ويليه الشمس بن المنقار ، وهكذا . وأمّا الطيبيّ الصغير ومعيد الدرس الشهاب القابوني وصاحبنا شمس الدين الميداني الشهير بابن الحنتوس ، والفقيرُ فكنتا أمام الشيخ . وكان الجلوس من بعد صلاة العصر إلى قُبَيْل الغروب . ومما جال في الدرس المذكور أن الشيخ البدر روى حديثاً متعلّقاً بجواز بيع السراري في صَدْر الإسلام . فروى الشيخ لفظة السراريّ بتشديد الياء . فقال له الشيخ اسماعيل النابلسي : الروايةُ سرارينا بالتخفيف . فلم يلتفت الشيخ اليه . فأعاد الرواية بالتشديد ، فأعاد الاعتراض بالتخفيف ، إلى أن تكرّر ذلك ثلاث مرات . فضرب الشيخ بيده الأرض من جهة الشمال وقال للشيخ اسماعيل : أنت سهرتَ الليالي لتحصيل مثلِ هذه التُرّهات ؟ فقال ابنُ عبد البر في شرح جامع الترمذي في الباب الفلاني أنها بالتشديد . فسكت الشيخ إسماعيل . فقال الطيبي الصغير بعد ذلك : يا مولانا ، نقل فلانٌ أنه يجوز الوجهان . وانتقل الكلام إلى غير هذا المبحث .

ولمّا انقضى المجلس ذهبوا بأجمعهم إلى حجرة الشيخ الحلبيّة . فوجدوا بها سماطاً ممتداً ، فأكلوا وتفرّقوا بعد ذلك .

وكان الشيخ قبل هذا ختم تأليف « التفسير المنظوم » السابق ذكره ، وجعل له ختماً حافلاً عند مزار حضرة يحيى بن زكريا النبي عليه الصلاة والسلام . وحَضَرَهُ شيخُ الإسلام ، مفتي الشام . فوزي الرومي الحنفيّ ، وقاضي القضاة محمد افندي الرومي الشهير بچوي زاده الذي صار آخراً مفتياً بدار السلطنة قسطنطينيّة . وحضرها الصدرُ الأوّلُ كشيخ الإسلام الشيخ الطيبيّ الكبير المتقدّم ذكره ، وكالشيخ أبي الفتح المالكي السابق ذكره . وجال في المجلس مباحثُ ، منها أنّ الشيخ البدر قال : غلّطنا صاحب القاموس في سبعة مواضع . فلما قال ذلك برد المجلس ، ونظر بعضُ الحاضرين الى بعض ، واستهجنوا هـذا الكلام ، لارتفاعِ مقامِ صاحب القاموس عن مثل هذه الدعوى . ولكن لم ينطق أحدٌ في مقابلة هذا الكلام بشيء . وشرع الشيخ بِعَدّ ما ادّعاه من التغليطات لصاحب القاموس ، حتى أتى الى آخرها . ولم يُبْدِ أحدٌ كلاماً . ثم أخذ يعدّدُها . فقال منها قوله : إن الجَزْلَ والخَزْلَ بالجيم والخاء المعجمة متساويان وهو غلط ، بل كلٌّ واحدٍ منهما له معنى خاص ، ووضعٌ مستقلّ . وانفضّ المجلسُ بفوائدَ عظيمة وفرائد جسيمة . وكان شيخُنا الطيبيُّ الكبيرُ حاضراً ، فناقشه فيما ردّ به على القاموس ، وادّعى أنّ الدماميني واقف على ذلك . فردّ الشيخ البدر ذلك وكتب له في اليوم الثاني قصيدة يؤكّد ردّه ويقولُ من جملتها :

أمولى شهاب الدين يا فاضل العصرِ ويامَن سما فوق السّماكين والنسرِ
زعمتَ بأن الجزْلَ والخَزْلَ واحدٌ كما جاء في القاموس من غير ما نُكْرِ

وأنّ الدمامينيّ تلميـــذُ ربه وإحسانُ ظنّ بالشيوخِ من البرّ

وما بالتساوي نرتضي ولعلنـا نردُّ على القاموس ردّاً بلاحصرِ

تشرّفنا بمشاهدة ذاته الشريفة ، واستقرآء بعض أوصافه المنيفة ، وكنا نلاحظُه في جموعه ، وعند دخوله وطلوعه . ونلازمُ دروسه في أوقاتها ، وفتاواه في ميقاتها . ولازمتُ حجرته المعروفة بالحلبيّة ، في الجانب الشرقي من أروقة جامع بني أمية ، أربعة أعوام كاملة . وكنتُ أرى أداء تلك الملازمة ، كأداء العبادة المفروضة أو النافلة . وذلك من ابتداء عام ثمانين وتسع مئة ، إلى أن توفي رحمه الله تعالى | فتكون مدة حياته ثمانين عاماً . فلذلك ألحق الأحفاد بالأجداد ، وتلا الملأ بالبركات والأمداد و |[1] سمعته ينشد في السنة التي مات فيها قول زهير :

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ثمانين عاماً[2] لا أبا لَكَ يسأم

وكان صحيح الجسم والحواس ، حتى إنه كان غالباً ينشد :

إنّ الثمانين وبلِّغتَها ما[3] أحوجتْ سمعي إلى ترجمان

احتجب عن الناس نحو أربعين سنة لا يخرج إلاّ لإلقاء الدرس في الجمعة مرتين . وكان يُفتي عمره ، لأنّه ذكر من لفظه أنه أفتى وعمره خمسة عشر عاماً . وكانت له الحشمةُ العظيمة ، والدينُ المتين . وكان يبدأ درسه بقراءة كتاب الله تعالى مفرّقاً في أجزاء متعدّدة . وكان يدرسه كالماء الجاري بترتيب وتؤدة ، مع أنه كان ثقيل النطق إلاّ عند تلاوة القرآن المجيد . وتلك كرامة لكتاب الله تعالى العزيز الحميد .

---

(١) ما بين الخطين القائمين ساقط من هـ .

(٢) في الأصل « حولاً » .

(٣) في الأصل « قد » .

ولحضرة الشيخ المذكور كرامات مأثورة . ومحاسن غير محصورة .
درّس بعدّة مدارس بدمشق منها المقدميّة والشاميّة الجوانية ، والتقويّة .
وكان الشيخ محمد الحمصي الملقب بالحجازي أخذ عنه تدريس التقويّة بتعصب
قاضي العسكر الشهير بابن معلول السيد محمد أفندي [١] فإنه غضب على الشيخ
لما كان قاضياً (١١٥ ب) بدمشق مات له بنت فما خرج الشيخ لجنازتها .
فأضمر ذلك في نفسه . فلما تولّى قضاء العسكر صادف وجود الحجازي
المذكور في الروم فأراد إهانته . فولّى المدرسة المذكورة للحجازي (على
إعطاء الرشيد للخصيب بدنيّة نفسه) [٢] ، فلمّا ورد الخبر بذلك إلى الشام
كادت تميد بأهلها استعظاماً لهذا الأمر ، حتى إن بعضهم ما كان يعتقد
هذا الخبر لأنّه من قبيل المستحيل عادةً . فبعد نحو شهرين جاء الخبر
بعزل ابن معلول من قضاء العسكر ، وأنّ شيخ الإسلام ، شريح العصر ،
رفقيه الدهر ، شيخ محمد افندي الشهير بچوي زاده صار قاضياً بالعسكر ،
فردّ المدرسة المذكورة الى الشيخ المذكور في أول يوم توليته لقضاء العسكر ،
لأنه كان قد روى الحديث بدمشق عن الشيخ حين كان قاضياً بها .

والحجازي المذكور منسوب في أفواه العوام إلى بعض شيء من علوم
النجوم . فيقال إنه أخبر ابن معلول أنه يستمر قاضياً كما هو مشروح
في رحلة القاضي محب الدين . وهو تلميذ الشيخ البدر أيضاً .

ولما تقررت على الشيخ البدر المدرسة صنع قصيدة يشير فيها إلى
ما ذكرناه ، مطلعها :

أعجب لصنع إلٰهٍ حيّرَ الفِكرا والعقلَ أدْهشَ والألبابَ قد بهرا

وشرح فيها جميع ما صدر من أمر ابن معلول وعزله وتولية چوى زاده .

---

(١) انظر الباشات والقضاة ص ١٦ .
(٢) الجملة ما بين القوسين غامضة المعنى .

ولقد سمعتُ شيخنا شيخ الإسلام الشيخ اسماعيل النابلسي يعيب هذه القصيدة على الشيخ ، وذلك لأنه لا يُهجى إلاّ مَنْ يُمدح . والحجازي المذكور ليس أهلاً لأن يذكره الشيخ بلسانه ولا أن يوضحه في بيانه .

وقد سافر الشيخ البدر صاحب هذه الترجمة إلى مصر مرتين كما شرحناه . ففي الثانية كان الشهاب الرمليّ يحضر درسه . فاذا أورد الشيخ شيئاً من « حاشيته » على المحقّق المحلّي يقولُ الشهاب الرملي :

مَنْ هذا الذي يعترضُ على المحقّق المحلّي ؟

فيقول له الشيخُ : نحن . فيقولُ الرملي : أمّا أنتم فنعم .

وسمعتُ الشيخ البدر يقول : حضرتُ مرّة في ضيافة بمصر . وكان أهلُ المجلس يترقّبون حضور شيخ الإسلام الشمس العلقمي | في الضيافة |[1] فلم يحضر ، فكتبتُ إليه أبياتاً أولها :

واللهِ ما يحلو لنـا مجلسٌ إلاّ إذا حَلّ به العلقمي

وسافر مرّة الى الروم في صحبة قاضي القضاة ابن الفرفور . وصنّف في سفره الرحلة التي سمّاها : « المطالع البدريّة في المنازل الرومية »[2] وذكر أن هذه التسمية (١١٦ آ) لصاحبه افتخار الأشراف العبّاسية ، بقية السلف الفخام ، العلاّمة السيد عبد الرحيم العباسي . وكان بينه وبين السيد مراسلات ومطارحات .

فمن ذلك أنّ السيد المذكور كتب إلى البدر المسطور قوله :

أرى الدهر يُسْعِفُ جُهّالَه فأوفرُ حـظٍّ به الجاهلُ
وأنْظُرُ حظّي به ناقصـاً أيحسبني أنني الفـاضلُ

---

(١) ساقط من هـ .

(٢) اطلعتُ على قطعة من هذه الرحلة بخط البدر نفسه في جامعة برنستون .

فكتب إليه البدر المذكور الجواب بقوله :

أعبدَ الرّحيم سليلَ العُلى ... ويافاضلاً دونه الفاضلُ
أتعتب دهراً غدا موقِناً ... بأنّك في أهله الكاملُ

فقلتُ : وما أحسن قوله : ويافاضلاً دونه الفاضل . يريد القاضي الفاضل ، لأن المناسبة بسبب أنّ اسم القاضي الفاضل عبد الرحيم ، والسيد المذكور اسمه عبد الرحيم . وبيتا السيّد في غاية الحسن ، غير أنه سَبَقَ اليها أبو اسحاق ابراهيم الغزّي حين قال :

إني رأيتُ الدهر في فعله ... يمنح حظّ الناقص الفاضلا
وما أراني بالغاً رتبة ... كأنه يحسبني فاضلا

لكنّ نظم السيد أحسن سبكاً وألطف موقعاً . وكم ترك الأول للآخر .

وسمعتُ الشيخ صاحب الترجمة يُنشد في درسه لنفسه في معنى حديث شريف بلفظٍ فصيحٍ مُنيف :

أمران لم يُؤتَ امرؤٌ مسلمٌ ... مثلهما في دارنا الفانيه
من يَسّرَ الله تعالى له ... شهادة الإخلاص والعافيه

وسمعتُه ينشدُ أيضاً في ختم كتابه الذي سماه « فتح المغلق في تحرير الخلاف المطلق » لأبيه ، وقال إنّه مجرّب للفرج :

يا رب من كلّ الوجوه تضيّقتْ ... واشتدّ من كلّ الجهات المخْرَجُ
إنْ لم تفرّجْها بفضلٍ واسعٍ ... عني وإلاّ مَنْ سواك يُفَرّجُ

وقال في يوم من دروس تفسير بمناسبة عتاب الصديق رضي الله عنه في حق مسطح ، حين حلف أنْ لا يُجري عليه ما كان له من الرزق (١١٦ ب) لِمَا صدر منه في قصّةِ الإفك : وقال والدي شيخ الإسلام محمد الرضي على لسان الوارد في واقعةٍ اقتضتْه ، وقد حقّق الله ذلك :

قطعتَ نفسَك يا مَن قد سَعَى غلطاً في قطعِ رزقي وحقِّ الواحدِ الصمدِ
لم ينقطع ليَ رزقٌ بل قطعتَ بما هويت بالبغي في نفسٍ وفي وَلَدِ

وسمعتُه مرة يقول : نظم والدي قصيدة لطيفة على لسان الوارد وقد أوصى بعض الصلحاء أن يجعلها في كفنه . قال : ومطلعها :

ابتداءً قد جُدْتَ بالإيجاد ثم واصلتَ نعمةَ الإمْدَادِ
وبلطفٍ مهدتَ لي البطن حملاً ورضيعاً في المهد أوطى مهادِ
ربّياني مميّزاً بصلاحٍ في شئوني لدفعِ كلِّ فساد

ومنها :

ربِّ صيّر رضاك عني دواماً في حياتي وبرزخي ومعادي
ربِّ أعْطَيْتَني عطاءً كثيراً ليس يُحصى بكثرة الأعدادِ
أنت رقيْتَني لِأعلى مقامٍ قد رقاه خلاصةُ العبّادِ
فلك الحمدُ كلّه وهو أيضاً نعمة تقتضي وجوب ازديادِ
فإلى فضلِكَ الجزيلِ التجائي وعلى لطفِكَ الجليلِ اعتمادي

وأنشد حين أرشد لوالده الرضي هذين البيتين :

أوتيت من ربي على طول المدى　　خيراً كثيراً فاضَ من سرّ المددْ
يارب فاجعلني جميعاً ألسُناً　　تُثْني باخلاصٍ عليك إلى الأبدْ

وسمعته يُنشد لوالده هذه الأبيات ولم أستطع استملاءها منه لرفعة مقامه ، وعزّة مرامه . فطلبتُها من ولده شيخنا شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين فأملاها عليّ وقال ليس فيها زيادة :

اَللهُ حسبي على قومٍ عليّ بَغَوْا　　وبالأباطيل في عرضي المصون لَغَوا
قومٌ أذا سمعوا عنّي الجميلَ عَموا　　عنه وصمّوا وإلاّ فتّشوا وصَغَوْا
وإنْ رَأَوْني بضُرٍّ سرّهم ضَرَري　　وإن رأوني بخيرٍ أزبدوا ورَغَوْا
يارب عاملهمُ بالعدلِ منك وخُذْ　　حقّي وحقّقْ بهم ما حاولوا وبَغَوْا
يارب قد مكروا فامكرْ بهم عجلاً　　فإنهم حسدوني وافتروا وبَغَوْا
يا رب إني ضعيفٌ يا قويُّ ومَنْ　　سِواكَ يأخذهم أخذ الذين طَغَوْا (١١٧ آ)

وبالجملة فقد تشرّفنا بالحضور في درسه سنين عديدة ، وحملنا عنه جملاً مفيدة . وسرنا في خدمته إلى المدرسة التقويّة ، بعد عودها اليه عقيب أخذها عنه في مدّةٍ قصيرة جزئيّة . وجلسنا في دروسه بجامع بني أميّة ، وحضرتُ له ختم الكتاب المسمّى « بفتح المغلق ، في تحرير الخلاف المطلق » وهو كتاب عجيب ، ونمطُه غريب . لم يسبق اليه من أحد ، ولا روي عن عالم فيما مضى من المدد . وكذلك « التفسير المنظوم » الذي نظمه على بحر الرجز ، فزادتْ أبياتُه على مئة ألف بيت ، والتزم فيه عدم الحشو

على طوله وذلك عجيب . وقد خاض فيه علماء عصره في جوازِ ذلك ، فمنهم مَنْ منعه واستدلَّ على أنَّ القرآن العظيم داخلٌ في أجزاء النظم ، وذلك ممنوع . قال بعض المانعين منه : يا عجباً من الشيخ ، كيف يعلم أنّ الله تعالى نزّه القرآن العظيم من الشّعر ، ونزّه نبيّه ﷺ عنه ، ويجعل القرآن العظيم جزءاً منه .

ومن جملة أسباب المنع فيه أنّ بعض الألفاظ القرآنية يدركها نوع تغيّر لأجل صحة النظم كزيادة ألف الإطلاق وما أشبه ذلك ، من قبيل الاقتباس حتى إنه لا يضرّ فيه التغيّر اليسير . على حدّ قول القائل :

كان الذي خفت أن يكونا إنّا إلى الله راجعونا

وذلك لأنّ الاقتباس ليس على أنّه من القرآن . وإيرادُ الشيخ الألفاظ القرآنية في نظمه على أنها منه .

ومنهم من جَوَّزَهُ وقال : ليس القرآن منظوماً بل هو في النظم .

وسمعتُ مِن قضاةِ الشام الأروام مَنْ يسأل الشيخ عن تفسيره ، وقال له : كيف إدخالُ الألفاظ القرآنيّة في النظم ؟ فقال له الشيخ مُغْضَباً : أنا ما نظمتُ القرآن وما غيّرتُ من ألفاظه شيئاً . وإنما أوردتُه في النظم وما نظمتُه .

ولقد سمعَ بهذا التفسير المنظوم عند ابتداء وجوده العلاّمة المفسّر شيخ الإسلام ، مفتي بلاد الروم وبلاد الإسلام أبو السعود العمادي صاحب التفسير الشهير ، الذي ليس له نظير . فأنكره في بادىء الرأي غاية الإنكار ، إلى أن رآه فخفّ إنكاره في الجملة .

وحاصل الأمر أنّ الناس تنفّروا عنه حتى إنه ليستْ له نسخة ثانية فيما سمعنا ، ولو كان منشوراً لتناقلتْه الرواة في البلاد .

وللشيخ البدر (١١٧ ب) المذكور تصانيف كثيرة ، ومصنفات غزيرة ، تزيد على المئة . وله النظم الكثير ، والنثر الوافر . وكان من محاسن دهره ، وأفراد عصره . عديم النظير . رحمه الله برحمته . وأسكنه فسيح جنته . بمنه وكرمه آمين . والحمد لله رب العالمين .

٩٤

مولانا شيخ الإسلام

البدر بن حامد الصفدي

هو من بيتٍ رفع الله دعائمه ، وأعلى بالعلم معالمه ، لهم التقدمُ في حديث المكارم ؛ والترقّي الى المجد بالعلياءِ لا بالسلالم . أدركتُ الشيخ بدر الدين المذكور وهو في مدينة صفد بالفتوى والفتوّة مشهور ، وكان ابتداء اجتماعي به في صفد المحروسة في سنة ٩٧٠ تسع مئة وسبعين [١] وأنا في ذلك غلام في سن التمييز ، وكنت أتمَمْتُ قراءةَ كتابِ الله العزيز ، وكان نزولنا عليه ، وحلولنا لديه . وكان له ولدان أحدهما حسن وهو الكبير . والثاني أبو بكر وهو الصغير . فأمّا الكبير فإنّه كان سالكاً سبيل العسكريّة ولم يرض بالطريقة العلمية ، لعدم الهداية الأزليّة ، والعناية الربانيّة ، وأما الصغير أبو بكر فإنّه كان على صغره سالكاً طريق الكمال ، من غير إهمال ولا إمهال . وقد صدرت بين الأخوين المذكورين قصة عجيبة ، وحادثة هائلة غريبة ، وهي أنّ الكبير كما ذكرنا كان مولعاً بالسلاح ، وطالباً أن يكون مجيداً في فنّ الكفاح . فرام أن يتعلّم الضربَ بالبندقية . فقال لأخيه الصغير : يا أخي ! اغلق باب دارنا وادخل الى المجلس حتى أجرّب البندقية هل تمرق من الباب ؟ وكان مجلسهم وراء

---

(١) كذا في س ، ب « ٩٧٠ » وفي ه « ٩٧٥ » .

الباب فأغلق الصغيرُ الباب ، وما دخل المجلس بل أسرع الدخول الى داخل البيت . وكان البيتُ طويلاً فأعجلتْه البندقيّةُ عن الدخول الى داخل الدار ، فما هي إلاّ أن دخلت تحت كتفه فطلعت من تحت صدره فوقع لحينه صريعاً . فأخبروا والده بذلك فوقع إلى الأرض ولم يستطع القيام . واستمر يبكي على ولده المذكور الى أن عمي . ورأيتُه وهو أعمى في دمشق في سنة ٩٨٠[1] . وكان يحب ولده محبة زائدة ، حتى تحدث بعض الناس بأن أخاه على المحبة حاسده . وكان يتعمّد ذلك الفعل . وليس ذلك بعجيبٍ فإنّ الأرض أرض كنعان ، وفيها صدرت قصةُ يوسف مع الإخوان .

وكان الشيخ بدر الدين المذكور مفتيــاً على مذهبِ الإمام الشافعي رضي الله عنه . وكان في بعض الأوقات يتولّى القضاء (١١٨ آ) على المذهب المذكور . أخبرني من لفظه أنه يحفظ « منهاج » الإمام النووي رضي الله تعالى عنه .

---

(١) كذا في س ، ب « ٩٨٠ » وفي ه « أربع وثمانين » .

حرف التاء

٩٥

تقي الدين بن شرف الدين بن يونس
الطبيب الدمشقي

ولد تقيّ الدين هذا بدمشق . وأبوه رئيسُ الأطباء بها ، فقرأ القرآن ، وقرأ على والده حصّةً قليلة من علم الطب . وعدل عن ذلك وصار يتردّد الى الشيخ أحمد بن سليمان الصوفي السابق ذكره في حرف الهمزة . كان يزعم أنّه يعرف علم الوفق وعلم الحرف . وترقى في الدعوى حتى صار يدّعي معرفة جميع العلوم مع كونه كان في غاية الجهل ، غير أنّه كان ذكيّ الطبع متشدّقاً في الألفاظ متقعّراً في العبارات . وكان غايةً في الكذب ، ثم إنّه سكن مــدّةً في المدرسة الجقمقية (١) شمالي جامع جامع بني أميّة . وطلب مني وهو فيها أن يقرأ عليّ « المطوّل » في البلاغة بطريق الخفية ، فأبيتُ ذلك . وقلتُ له : هذا شيء لا يناله مُسْتَنحٍ ولا مستكبر . ووَجَدَ وحشةً من علماءِ دمشق بسبب أنّه كتب في محضرٍ فوق كتابة شيخنا العماد الحنفي . فعزّ ذلك على الشيخ عماد الدين . فطمس اسم نفسه ، وشتمه شتماً بليغاً . وجاء إلى بيته ليعتذر فما وجد منه وجهاً . وصادف ذلك جفوةً من أبيه وإبعاداً من الشيخ أحمد بن سليمان .

---

(١) انظر النعيمي ، الدارس ١ : ٤٨٩ ، وهي من مدارس الحنفيّة .

فلزم أنه سافر الى قسطنطينية في سنة ٩٨٧ . ولمّا دخل اليها وجد أهلها منقسمين إلى عسكريّة وعلماء ورعايا . فما رأى له بين العلماء مسلكاً لقلّة بضاعته ، وليس له فائدة في الرعايا ، فدخل في حواشي السلطنة . وكان ذلك في عهد السلطان مراد . وهو رحمه الله تعالى كان يميل إلى المتصوّفة ويحبّ كلامهم وشطحاتهم . وربّما كان يتكلّمُ هو بشعرٍ يتضمّن اصطلاحهم . فكان ابتداء دخوله أنّ رجلاً من حواشي السلطنه كان اسمه ناصف آغا ، وكان قصيراً جداً ، وكان السلطانُ يحبُّ هذا النوع . فدخل يوماً الى سرايا السلطان فرآه ناصف المذكور . فقال له : عندنا بعض مرضى من أولادِ الخزينة السلطانية ، وقد قال لنا بعض الناس ، إنّ عندكم علماً بالطب وعلماً من العلوم المتعلّقة بالأسرار الإلهية .

فقال : نحن نُداوي بالعقاقير المعنوية .

فقال له : هي مرادنا .

فكتب له في فنجان بعض كلمات وآيات . فكأنّ ذلك صادف وقوع المقادير بشفاءٍ من شفي من ذلك الفنجان . فقال ناصف المذكور (١٨ ب) للمرحوم السلطان مراد : لقد صادفتُ لك مطلوبك . فإنّ مولانا السلطان من زمانٍ طويلٍ يطلبُ رجلاً من أرباب الأحوال . وقد قدم إلينا رجلٌ من رجال الشام يُقال له تقي الدين أفندي ، وقد داوى المرضى الذين عندنا بالكتابة والتعويذات . فيُقال إنّ السلطان طلبه ورآه . ويُقال بل كان يُراسله . ومما زاده عند السلطان قرباً أنّ الشيخ نعمان بن الأيجي كان عنده بعض مكاتيب ، كانت ترد إلى والده الشيخ محمد الأيجي من المرحوم السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان . فلما سافر تقي الدين إلى جانب الروم قال له نعمان المذكور : عندي مكاتيب من المرحوم السلطان سليمان ، وأنت مسافر إلى الباب العالي فاصحبها معك واعْرضها على السلطان

مراد ، فإنّه إذا رأى مكاتيب جدّه الأعظم السلطان سليمان ربما ينعم عليّ بشيء من الصدقات السلطانيّة لكوني ولد ذلك العزيز الذي كان جدّه يكاتبه ، فقال له : نعم وكرامة . وسيعرف ما أسعى فيه لك . فعرضها على المرحوم السلطان مراد ، وقال له : هذه كانت تَرِدُ إلى أبي من جدك ، وملوكُ بني عثمان لهم اعتقاد عظيم في السلطان سليمان . فلما رأى المكاتيب بالغ في اعتقاد تقي الدين وقال : هذا رجل في نفسه عارف . ومع ذلك فهو من الداعين بالوراثة لسلسلة آل عثمان لأنّ والده كان محباً لجدي . ولم تزل حاله تترقى إلى أن صار يأنف من التواضع لقضاة العساكر . والله أعلم .

٩٦

صاحبنا الشيخ تاج الدين
القطّان الحموي الشافعي نزيل دمشق

ورد إلى دمشق مع عمه الحاج حسن القطّان الحموي ، واشتغل الشيخ تاج الدين هذا بالعلم ، وغلب عليه علم العربيّة حتى صار فيه من الراسخين . ولازم المرحوم الشيخ اسماعيل النابلسي الشافعي رحمه الله تعالى . ولم يزل يقرأ عليه في علوم مختلفة حتى توفي . وحضرتُ درس الشيخ اسماعيل في الدرويشية بدمشق في « شرح » العلاّمة السيّد الشريف ، بقراءة الشيخ تاج الدين المذكور . وكان له والدٌ يقال له الشيخ رجب . وكان من أهل العلم على ما يُقال . وهو من بيتٍ كبير في حماة ، من جملة أقاربهم أولاد الأعوج الذين صاروا في هذا العصر حكّام حماة .

والشيخ تاج الدين المذكور صاحبُنا ورفيقُنا وابن مذهبنا . جالستُه في القراءة على شيخنا المرحوم العماد الحنفي ، فكنتُ أقرأ « الشرح المطوّل » في (١١٩ آ) البلاغة ، وكان يقرأ « مغــني اللبيب » بحاشية الشمني . وجالستُه في القراءة على المرحوم الشمس ابن المنقار . فكنت أقرأ « المغني بحاشية الشمني » ، وكان يقرأ بعض الكتب الكبيرة ، وقد زال من فكري وهو الآن مقيمٌ على الاشتغال والتدريس بالجامع الأمويّ ، وله بقعة تدريس بالجامع الكبير الأموي ، | وعنده طلبةٌ فاضلون نابلون يقرأون عليه بعض الظهر بالجامع الكبير الأموي | [١] . وهو الآن من أنفع الفضلاء

(١) ساقط من هـ ، ب .

وأمتعهم . وهو من خيار الناس مشتغلٌ بخُوَيْصَةِ نفسه ، لا يشتغل غالباً إلاّ بما ينفعه . يأتي كلّ يومٍ الى الجامع الأموي ويصلّي الظهر في مجلسٍ للإقراء ، إلى أن يفرغ ويذهب الى بيته في جوار المدرسة الصابونية [١] ، خارج باب النصر . وهو مُمْتَحَنٌ بأمرين عجيبين : الأولُ أنه إذا أتلَفَ الحكّامُ من المجرمين رجلاً وأشهروه فإنّه يتبع ذلك الرجل ، ولا يزال تابعاً له إلى أن يصل الى المكان الذي يُقتل فيه . فيقفُ في أقرب مكانٍ منه إلى أن يشاهدَ صورة قتله . ويستمرّ واقفاً الى انتهاء الأمر . وهذه عادته دائماً . وسئل عن هذا الأمر فقال : أقصد بذلك تأديب نفسي به وزجرها بمشاهدة ذلك . والله تعالى يعلم بحقيقة ذلك .

الثاني : أنه متهالكٌ على لعب الشطرنج في دكاكين باب الجابية يجلس في بعض الدكاكين ويلعب مع مَنْ أراد ويكشف رأسه ، ويضع العمامة إلى جانبه . ولا يزالُ إلى أن تغرب الشمس في غالب الأوقات .

---

(١) انظر الدارس ١/١٣ .

٩٧

الشيخ تاج الدين القرعوني
خطيب جامع السقيفة خارج باب توما [١]

هو الشيخُ الصالح ، الفاضلُ الفالح ، الذي حفظ كلامَ الله فحفظه ، ولحظ أقمارَ السعادة والسعدُ رَمَقَهُ ولحظه . حضر من القرعون [٢] إلى الشام ، فسكن في محلّة باب توما داخل الباب . وطلب العلم ، وقرأ الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وصارت له فضيلةٌ حسنةٌ ، وطريقةٌ مُستحسَنة . ولما درّستُ بالمدرسة الدرويشيّة [٣] عن المرحوم الشيخ اسماعيل النابلسي صار التاجُ القرعونيّ المذكور مُعيداً عندي أربع سنين . وكان يحضر درسي الفقهي في « شرح المنهاج » للمحقّق المحلّي . وكان يقرأ عليّ « شرح الألفية » لابن مصنفها الشيخ بدر الدين بن مالك . وكنتُ أنشرح برؤيته ، ويدخلُ في قلبي السرورُ لمشاهدته ، ويأنسُ به خاطري ، وتطمئنّ به سرائري . وهو يلبس العمامة الصوف المسماة بالميزر في اصطلاح أهل دمشق . وذلك لأنه كان من جماعة بعض الصوفيّة . وهو خطيب الجامع المسمى عند أهل دمشق بالسقيفة خارج باب توما في محــلة سيّدي الشيخ أرسلان قدس الله سره العزيز . وهو من إخوان بني البكري المقيمين بدمشق في محلة باب توما . وله مصاحبةٌ كاملة لصاحبنا الشيخ عمر

---

(١) انظر الدارس ٢/٤٣١ .

(٢) في لبنان اليوم .

(٣) هي جامع درويش باشا نفسه .

ابن محمد القاري الآتي ذكره في حرف العين إن شاء الله تعالى . ولأهل دمشق فيه اعتقادٌ عظيم ، وحبٌ جسيم ، يمرّ بالسوق فيقومُ إليه غالبُ أهله ويقبّلون يده . وهو صافي السريرة ، مستقيمُ السيرة . يقابل أحبابَه بالبشاشة ، ويصادفهم بالهشاشة . وحاصل الأمر أنه حصّل طرفاً صالحاً من العلم النافع ، وارتدى شعائر الشرائع ، ولازم تلاوة القرآن العظيم ، وعبادة ربّه العزيز العليم . وهو منسوبٌ إلى قرية القرعون في جـانب البِقاع العزيزي . وهو على وزن حَمْدُون فالنسبة اليهـا القَرْعُوني بضم العين ، والمشهور بفتح عين المنسوب وهو تحريف من العوام كما في القاموس . وهو الآن حيّ يُرزق في دمشق ، وله أولاد صغارٌ جعل الله في حياته البركة واسعة ، في السكون والحركة . آمين آمين .

٩٨

تقي الدين الزُهيري

هو الشيخ التقيّ ، الطاهرُ النقيّ ، الصفيّ ابن الصفيّ ، والوفيّ ابن الوفيّ . كان والده الشيخ صفيّ الدين المذكور خادماً في كتابة سجل المحكمة العظمى بدمشق ، وهي محكمة باب الأفندي الكبير ، أعني قاضي القضاة . وكان خطه عجيباً . كنتُ في جنازة الصفيّ المذكور ، وكان المرحوم القاضي محمد سبط الرُجَيْحي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى سائراً معي ، وكذلك الشيخ محمد الشهير بالحجازي . فوقفنا عند باب مزار حضرة أوس بن أوس الصحابي رضي الله عنه المقابل المدرسة الصابونيّة من جهة الشرق . فلما أقبلت الجنازةُ قال القاضي : خطُّ المرحوم الشيخ صفيّ الدين هذا من القسم الثالث ، فضحك الحاضرون وغلب عليهم وصف المزح ؛ مع أن وصف ضد ذلك كان غالباً عليهم قبل ذلك فقلتُ له : يامولانا القاضي ! مامعنى كون خطّه من القسم الثالث ؟ وما الأقسام الثلاثة ؟ فقال : القسمُ الأول خطٌّ يقرأه الكاتب ومَنْ عداه . والقسم الثاني خطٌّ يقرأه الكاتبُ دون مَنْ عداه . القسمُ الثالث خطٌّ لايقرأه الكاتبُ ولا غيره . والشيخ صفي الدين من القسم الثالث . وكان كذلك . فإنّ خطه كان عجباً من العجائب في هذا الباب .

ونرجع إلى ترجمة ولده التقيّ المذكور . فنشأ طالباً للعلم ، مصاحباً للتقوى والحلم ساكناً في غالب الأوقات ، ناسكاً قد أثّرت في وجْهه أنوارُ العبادات . قرأ على علماءِ عصره ، وفاق أقرانه في مصره . وهو من

نسل الشيخ الزّهيريّ المشهور ، من علماء الحنفيّة . غير أنّ تقي الدين هذا نشأ متفقّهاً على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعيّ رضي الله عنه . ودرّس بالمدرسة الجوزية (١) ، وأخذ المدرسة منه (٢) رجل روميّ اللسان ، أعجمي البيان ، يُقال له موسى ، زوج بنت الكوسا . وهي مشهورة قبيحة ، موجبة للفضيحة ، فاستدعى التقيّ المذكور من أهل البلدة أن يكتبوا محضراً في بيان أحوال موسى المذكور ، وهل هو أهلٌ للدرس أم هو جاهل بكل مسطور ؟ فكتب العلماء فيه وأطالوا ، وجالوا في ميدان ذمّه وصالوا . وما تركوا له أديماً صحيحاً ، وشرحوا عَرْضَه بالقول تشريحاً . حتى إنّ العلاّمة القاضي محب الدين الحموي أنشد في ماكتب :

تصدّر للتدريس كلُّ مهوّس بليد يسمّى بالفقيه المدرّسِ

فحقّ لأهل العلم أن يتمثلوا ببيت قديمٍ شاع في كلّ مجلسِ

لقد هَزُلت حتى بدا من هزالها كُلاها وحتى استامها كلّ مفلسِ

وكتبت في أثناء مارقمت :

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوة ومنزلُ وحْيٍ مقفر العَرَصَاتِ

وتولّى قضاء الشافعيّة بمحكمة الباب عوضاً عن القاضي محمد بن جانبك الشافعي الشهير بالكنجي . فحمدت سيرتُه ، وظهرت بالصلاح سريرتُه . كتب لي مهنئاً بمدرسة العادليّة الكبرى بدمشق :

---

(١) أنظر الدارس ٢/٢٩ .

(٢) في الأصل « عنه » .

سلامٌ كأنفاسِ الرياض البواسمِ ... تناقلُـه أيدي الرياح النَواسم

وترويه عمّن أرّق البعدُ جَفْنَه ... وأذكى جوى بين الحشا والحيازم

وأسْعَرَ ناراً في فؤادي ألفتهـا ... على كبدي واتت لوقع المواسِم

الى من له أضحى الكمال سجيّة ... وجـاز به هامَ السّها والنهائم

وقلّد أبكارَ المعاني بيـانُه ... عقودَ لآلٍ أعجزتْ كلَّ ناظِمِ

ويبدي إذا ما فاه كلَّ عجيبةٍ ... يقصّر عن إدراكها كلُّ فاهمِ

وأضحى له في كلِّ عضوٍ محبة ... إلى أن غدت منه كضربة لازِمِ

وحاز فخارَ المجدِ لا عن وراثةٍ ... على أنه نسلُ الكرامِ الجرائمِ

هم القومُ في الهيجاء تلقى وليدهم ... عليه بجدّ السيف دون التمائم

يشبّون ناراً للقرى ليلة الطوى ... ويدعون حيّ المعتفي للمكارم

اليك أخا الأفضالِ رحلت أينقى ... تقطّع أحواز الفـلا بالمناسم

تهنيك بالدرسِ العظيم الذي أتى ... وبالسنّةِ الغرّاء يا ابن الأكارم

فلا زلتَ في ثوبِ السعادة رافلاً ... عزيزاً ومحفوفاً بحسن الخواتم

مدى الدهر ما دام الهزارُ مغرّداً ... وماصدحتْ في الدّوْحِ وُرْقُ الحمائم

وقد توفي إلى رحمة الله تعالى في أوائل جمـادى الآخرة من شهور سنة اثنتي عشرة بعد الألف ، وما جاوز عمره الأربعين إلاّ بقليل ، عليه رحمةُ الملك الجليل .

٩٩

مولانا

ملاّ توفيقي (١)

هو الشيخ الذي برع في العلوم وانغمس في تيّارها ، وكثرت معارفُه فاشتهرتْ في جميع الأقاليم وأقطارهـــا ، وأذعنتْ له جميع الطوائف في فضائله ، فانجلت عروس كماله على مِنصّة انفراده في جميع محافله . كان أولاً من بلاد كيلان ، فانتقل منها إلى بلاد إيران . وقطن بالمدينة المسماة بآمد ، وشاعتْ عنه في تعليم العلوم أخبارُ المحامد . وكانت له معارضة مع شيخنـــا شيخ المحقّقين ، وأستاذ المدققين ، العماد الحنفي السمرقندي البايسوني النعماني الآتي ذكرُه إن شاء الله تعالى في حرف العين . وكان أهل النظر والخبرة يرون توفيقي المذكور ليس أهلاً لمعارضة شيخنا العماد المذكور ، لأنه ليس من أقرانه ، ولا يُعدّ من أشكاله وإخوانه ، لأن طبقة مولانا العماد مرتفعةُ المقام ، واقعةٌ موقع الذروة من السنام . قال لي العماد المذكور : أنا لمّا كنت معيداً لدرس الأستاذ ملا مصلح الدين اللاّري كان توفيقي المذكور معدوداً من صغار الطلبة . ولا كان في ذلك الوقت لا قصده أحد ولا طلبه . وطالت بينهما المعارضة والمحاورة ، والمقاولة والمناظرة ، حتى إنهما لم يكونا يجتمعان في مجلس حـــافل ، ولا تشرف بهما على وصف الاجتماع المحافل ، خوفاً من التنابز بالألقاب ، (١٢١ آ) وإشفاقـــاً من أن يُفتح بينهما باب من الشّر لم يكن في الحساب . لكن كانت السفارة بينهما غير متوقفة ، وإرسال الرسائل المؤلمة ليست بمنقطعة . حتى إن مولانا توفيقي لقّب المولى العماد بقوله : هو كَثِيْفُ الدين . لأنه

---

(١) في الأصل : توفيق .

كان يتناول شيئاً من الأفيون ، لأجل ما نُقِلَ من منافعه عن أستاذ الحكماء أفلاطون . فأرسل المولى العماد إليه . وتحمّل منه أوّلاً ثم تحمل عليه ، قائلاً : الدين ماله كيف بل له زائر وضيف ، فأنت يا توفيقي ضيفُ الدين . وذلك لأنك كنت كيلانيّاً وأهل كيلان في هذا الزمان زيديّون ، وهؤلاء قسم من أقسام الشيعة يَرَوْن الإمامة لحضرة زيد بن الحسن ، وينسبون إلى مذهبه ما ظهر من فقههم وما بطن ، فكأنه لما ترك تلك البلاد وصار ضيفاً في بلاد آمد صار ضيفاً للدين ، لأنه نزيل مذهب أهل السنة والجماعة . وشاعت بينهما مثل هذه الأقاويل بغاية الشناعة . ثم إن شيخنا العماد المذكور ترك ديار بكر وسافر إلى دمشق مع حسن باشا فاجتمعتُ به في دمشق في سنة تسع وثمانين وسنة تسعين وإحدى وتسعين إلى أوائل سنة اثنتين وتسعين ، كما سنذكر ذلك في ترجمته . واستمر ملا توفيقي مقيماً في ديار بكر ، ثم رحل إلى زيارة بلاد الروم ، وأقام ببيت السعد وهو بيت الخواجا الأكرم ، والمولى الأعلم ، سعد الدين أفندي معلّم المرحوم السلطان مراد ، وبلغني أنه صار شيخاً لأولاده الكرام الأمجاد ، وله معه نكاتٌ لطيفة ، ومحاورات ظريفة ، نقل لنا بعضها الموالي قضاة الشام ، وهي مشهورة عند الخاص والعام ، وقد خلّف ولدان فاضلان ، وانتقل إلى رحمة الله تعالى .

١٠٠

بابا تاج محمد الرومي البرسوي الدار الدمشقي السكن

مولده ببروسا[١] . ثم إنّه قدم إلى دمشق الشام في سنة ألف وسكنها . وكانت له حجرةٌ بمدرسة الكلاّسة [٢] بالقرب من الجامع الشريف الأموي . ولم يتزوّج في عمره . وكان غالبُ القضاة بالشام الواردين اليها يحبونه ، وإلى مجالسهم العالية يقرّبونه . ويصيرُ مصاحباً لهم ، وليس له فضيلة سوى عمل القواويق والمقطّنات المفتخرة . وله ذوق في النوادر التركيّة ، وبالوقائع الغريبة في زمنه بمدينة قسطنطينيّة ، توفي في حادي عشر (١٢١ ب) ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وألف ، وصلّي عليه بالجامع الأموي ، ودُفن بمرج الدّحْداح رحمه الله تعالى .

أنشدني في هذا المفرد بالتركي لكفوي حسين أفنديٌ :

فراق أهل لپك يا دايته طوطي قندي وصف ايلر

بلن سويلر عجيدر حال عالم بلمين سويلر [٣]

والطوطي بالفارسية هي الببغاء .

وكان يحفظُ مثل ذلك كثير ، وينشدُه في كلّ مجلس خطير .

---

(١) مدينة مشهورة من مدن الأناضول

(٢) انظر الدارس ٨٩/١ « دار الحديث الفاضلية بالكلاسة »

(٣) معناه : فراق الأهل كفراق الفطيم لثدي مرضعته
وحنينه كحنين الببغاء لقطع السكر
فافهم وقل لي أليس عجيباً ألاّ يفهم العالم هذه الحال

حرف الجيم

١٠١

جمال الدين چلبي
الفُرْفُوري الحنفي الدمشقي

هو جمالُ الدنيا والدين ، والكاملُ الذي تحلّتْ به أجيادُ الفضائل بيقين ، وهو جمالُ الدين ابن عبد الرحمن ابن قاضي القضاة وليّ الدين ابن قاضي القضاة شهابِ الدين ابن قاضي صَفَد وناظرِ الجيوش القاضي محمود الشهير بابن فُرْفُور - بضم الفائَيْن - على ما نقله الشيخ شمس الدين بن طولون الصّالحي المؤرّخ .

والجمالُ المذكورُ من بيتٍ في القضاءِ عريق ، وفي الرئاسة العلمُ الفَرْدُ على التحقيق ، وقد دَوّن المؤرخون فضائل أسلافِه في الدفاتر ، وتشرّفتْ بهم الأوائلُ والأواخر .

وقد نشأ جمال الدين هـذا في حجر والده مولانا المرحوم القاضي عبد الرحمن [١] ، واجتهد على تحصيل العلوم ، وصحبه معه إلى سفر الروم ، فَنَبَغ في البيت الفُرْفُوريّ فريدا ، وأصبح في جميع الكمال وحيدا ، أمّا فَهْمُه فقد كان ثاني ابن سينا ، وأما في النحو فسيبويْه من غير استثناء ،

---

(١) توفي سنة ٩٩٢ ، انظر الغزي في الكواكب ١٦٤/٣ .

وأمّا في الحفظ فياقوت [١] ، وأمّا في لطف الحديث فكلامُه لسامعه قوت ، وأما في الموسيقى فهو أبو نصر [٢] او إسحاق [٣] ، وأمّا في مكارم الخلق فكان خاتماً لمكارم الأخلاق . وكان حسنَ الصورة في بدايته فسبحان الخلاّق ، حصّل الفضائل في مبادىء عمره ، وجعل ذلك دأْبه في جميع أمره ، وكان والده يستجلبُ له الكاملين من الفضلاء ، ويدعوه لمباحثة المُفرَدين من النُّبلاء ، فمن جملة مشايخه الذين كانوا يردون إلى بابه ، وينتسبون إلى جنابه ، الشيخ المنسوب إلى رتبة الكمال ، العلامة الفاضل محمد ابن هلال ، الشهير في أيامه بكاتب السؤال . وهو من فضلاء عصره ، والمفردين في مصره ، وكان والده قد استصحب له الفقيرَ كاتب الحروف ، وكنت أرى من اخلاقه صنوف ألطاف هو بها (١٢٢ آ) معروف ، وكان سريع الاكتساب ، يهون عليه فَهْم [٤] المباحث الصعاب . وكنتُ قاطناً بالمدرسة الناصرية الجوانيّة [٥] في دمشق المحميّة ، وهي قريبة من المنازل الفرْفُوريّة . وكان والده في غالب الأوقات يحضرنا عند صدور الأبحاث الدقيقات .

وكان جَدّه القاضي وليّ الدين قاضي القضاة من الفُرات إلى العريش ، كما أنّ جده شهاب الدين كان قاضي مصر والشام معاً يتابع الفحص من مهمّات أهلها والتفتيش . وجمالُ الدين . هذا هو فيما اعتقد واسطة عقد البيت الفرفوري عند من ينتقد . وكان تارةً يسلكُ طريق العلماء الأعلام ، وتارة يمشي على سنن أحكام الحُكّام . ثم إنه انضم إلى قاضي القضاة علي بن سنان [٦] لما صار قاضيَ القضاة بدمشق ، وصار كاتبَ عَرْضه ، ومستشاره

---

(١) يعني ياقوت الحموي . فقد شُهر بحفظه العجيب

(٢) أي الفارابي

(٣) يعني اسحاق الموصليّ

(٤) ساقطة من هـ

(٥) مرّ التعريف بها . انظر الدارس ١/٤٥٩

(٦) كان قاضي دمشق سنة ٩٨٧ ، انظر ابن جمعة ص ١٨

في سنّته وفرضه ، ونال عنده مقاماً علياً ، ورقى لديه مكاناً سنياً ، حتى صار يُرجع إليه في الأخذ والعطاء ، ويتّبع أفعاله في الإسراع والإبطاء .

ولما انعزل القاضي المذكور ، ذهب إلى الروم ، فلم يتبعه الجمالُ المذكور في السير معه فيما يروم ، ولما صار قاضياً ببروسة المحروسة أرسل اليه ، فورد عليه ولازمه هناك وقال له : أنا تابعٌ لك فيما ساءك وهنّاك ، ولما ذهبا إلى قسطنطينية بعد العزل من منصب بروسة وَسْوَسَتْ له نفسه أنْ يتّصل بسعد الدين افندي ، معلم السلطان مراد . وأنّه ينالُ باتصاله به غاية المراد . فجفاه استاذُه لذلك ، ودعا عليه فوقع في مهاوي المهالك ، وآلَ به الطمعُ من رضوان إلى مالك ، ودعوة الاستاذ مستجابة ، وسهامُ غضبه لا تطيش عن مواطن الإصابة ، فمات سريعاً ، وتجرَّع دمه نجيعاً ، لفساد نيّته على أستاذه الأول ، الذي عليه في تعلّم المهمّات المُعَوَّل . وذهبت كتبُه وأسبابه هدرا ، ولم يلق وارثوه عنها أثرا .

ولما توجّه من الشام إلى الروم كتب اليّ من الطريق مكتوباً يستنيبُني في بعض المدارس المتعلقة به .

وبنو الفُرفُور لهم في نواحي صَيْدا أوقافٌ كثيرةٌ باقيةٌ من أجدادهم . وكان يتوجّه إلى الأوقاف المذكورة لتحصيل غلالها ، وجباية أموالها . فكتبتُ اليه في بعض الأوقات مكتوباً مرغوبا ، وأجابني عنه جواباً حسناً ، ورَقَمَ في رسالته لفظاً مُسْتَحْسَنا . وها أنا انقل الكتاب ، وماله من الجواب . فأما ما كتبتُه اليه فهو هذا :

يا جمالَ الزمان / يُفديك خِل لم يَزَلْ من نداك جار البِحارِ (١٢٢ب)

ياضياء العيون دُمْتَ لعَيْنٍ شاهدتْ منك ساطعَ الأنوارِ

لم تزلْ سيّدي مَحلُّكَ مني في سَوادِ الفؤادِ والأبصـارِ

كُلَّما لاح لي جمالُك أهدى لفــؤادي نتائجَ الأسرارِ
قسماً إنَّ ذِكْرَ وصفك أحلى في فؤادي مِنْ ذِكْرِ عهدِ الديارِ
فكأنّي لما أحيّيك(١) روضٌ عطّرَتْهُ نوافحُ الأزهــارِ
أنا إنْ كنتُ فاخراً في زماني فبعزوي إلى ولاك افتخاري
إن ترد رفعتي فقل للثريّا إنّ ذاك الفتى غدا في جواري
قصّر الناس أنْ يُجاروك لمّا قصبَ السبقِ حِزْتَ في المضمارِ
فأبْقَ يا سيّدي ويا نورَ عيني في سماء الكمالِ شمسَ نهارِ
ما سَرَتْ نسمةُ الصبا في رياضٍ فأثارتْ هوازجَ الأطيــارِ

سيدي المدخور للمهمّات ، وأميري المعد للمعضلات ، ما شككت قطُّ من أنك السيفُ المحلّى ، ولا استَتَرَبْتُ يوماً في أنّ وجودك القِدْح المعلّى . أفأطالبُ على صــدقِ وفائِك شهادة ، أو أرومُ على تحقيق إحسانك زيادة ؟ :

وليس يصحّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ(٢)

ما وفدتْ إليك ركائبُ أملي ، إلاّ عادت مثقلةً بالنــوال ، ولا استنهضَتْكَ رازماتُ قواي ، إلاّ صادفتْكَ الأسدَ الرئبال . لا جَرَمَ أنَّ المتصدّي لطلب مثلك طالبٌ للمُحال ، وأنّ من قاسك بأبناء دهرك لا يعلم أنّ الخَرْدَلةَ أصغرُ من الجبال . متى قاربَ الجوهرَ

---

(١) هـ « أسميك »

(٢) البيت للمتنبي . انظر ديوانه (طبعة الدكتور عزّام) ص ٣٣٤ ، وفيه « في الأفهام »

العرض ؟ متى قارنت الصحةُ المرض ؟ قسماً أنّ لك في ضمائر الكون سراً لاحتْ مخائلُه ، وأنّ الليالي أباحتك منزلاً من السعد أنت لاشك نازلُه . ألستَ ابن سادات الورى ، الحالّين من المجد في أرفع الذُرى ، العاقدين تاجَ مجدهم على هام السِماك ، الراقين إلى منازل البدور ومواطن الأفلاك ؟ على انك عصاميٌّ يكفيك شرَفُ الذات ، لا عظامي يفتخر بما مضى في الأيام الخاليات .

خُذْ ما تراه ودَعْ شيئاً سَمِعْتَ به   في طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحَلِ [(١)]

لا زلت يا سيدي جمالاً للأيام ، ما دارت الشهورُ وكرّت الأعوام . وما سحْ غمام ، وصَدَحَ حمام .

فكتب إليّ الجواب . سالكاً سبيل الصواب :

(١٢٣ آ) يا سيدي كتبت اليك ، ولو اني قدرت على أداء حقك بتمامه ، لأتى فكري بالكواكب مكان الكلمات في نثره ونظامه . ولو أنني مكنت في الدهر مما أريد ، لجعلتُ جميع الكُتّابِ لك في رتبة العبيد . فمِنُ الله على هذه الكلمات التي فاقت على مفردات العقود ، وعناية الله لراقمها الذي نجمه في الصعود وبختُه في السعود ، ولولا أمرك لي بردّ الجواب ، لما جسرت على تنميق كتاب ، ولا تلفيق خطاب ، ولكنّ المأمور معذور . يجترىء ويأتي بحسب المقدور .

فأمّا ما ذكرته لي من المديح ، فما أعتقد في نفسي مساواة ذلك ، فضلاً عن الترجيح . وأمّا ما ذكرتم لي من الأشواق ، فهي كما يشهد الله بعض محبة المخلص المشتاق .

سَلْ ما لديك من الودّ الذي ثبتا   عن غصن حبٍ بأثناء الحشا نَبَتَا
ولاتظنّ ودادي شابَهُ شبهٌ   فإنّ ودي بغيرِ الصدقِ ما نُعتا

---

(١) البيت للمعرّي

فيا أخي وشقيقي ، وصاحبي ورفيقي ، أين أيامُنا بمنازل الشَّرَفَيْن ، وأين أوقاتُنا بمعاهد الواديين . وأين هاتيك الليـــالي والأيــام ، وكيف تصرَّمتْ عقودُها وانحلَّ منها النظام .

غابت فلم يبق لنـــا بعدها شيءٌ ســـوى أنْ نَتَمنَّـاها

فحيثُ ذهبت وسارت ، وغاضت مياهها وغارت ، فلا أقل من المواصلة بالمـكاتبة والمراسلة ، فإنَّ فيها شفاءَ القلبِ السقيم ، وبها يتمحَّصُ الهَمُّ المقيم :

سقى اللّهُ عَهْدَ القُرْبِ عِهدُ[1] سحابةٍ وردَّ إلى الأوطان كُلَّ غريبِ

وبعدُ فالمكتوب ورد إلينا بالمينا ، ووَرَدَ ما غرب من السرور علينا ، فعرضتُه على مَنْ لدينـــا من الأمراء ، ومَنْ حضر من الأماثل الكبراء . فما منهم إلا مَنْ قَبِله وقَبَّله ، وعلى العين والرأس حمـــله ، ودعا لمنمّقه بدوام السلامة ، وبلوغ العز والكرامة ، وتمنّى أنْ لو شاهده بالبصر ، وعرفه بالخُبْرِ بعد الخَبَر ، ونرجو من خالق المخلوقات ، ومُبدع الأرض والسموات ، أن يقضي لنا بجمع الشمل ، وشمل الجمـع ، وأن يمتّعنا بلذة النظر كما متّعنا بلذة السمع . إنه سبحانه وليّ الإجابة ، وإليه الرجوع والإنابة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكانت وفاةُ الجمالِ المذكور بدار السلطنة قسطنطينية المحمية ، حماها الله تعالى عن طوارق البليّة ، في سنة خمس وتسعين وتسع مئة ، ودُفن هناك غريبا ، ولم ينل ممـــا طلبه من (١٢٣ ب) المناصب نصيبا ، بل ذهب ذهاب أمس الدابر ، ومضى مُضِيَّ الزمن الغابر .

وله ولدٌ موجودٌ بدمشق الشام ، خالٍ من الفضل إلا قليلا . ولعلّه أن يدرك منه مطلباً جليلا . والله الموفق للصواب ، واليه المرجع والمآب .

---

(١) العَهْد أول مطر الوسميّ (القاموس)

١٠٣

مولانا الشيخ جار الله

مفتي القدس

هو الشيخ جار الله ابن المرحوم الشيخ أبي بكر [١] المتقدّم ذكره في حرف الهمزة [٢] ابن شيخ الإسلام الشيخ محمد بن أبي اللطف المقدسي ، مفتي القدس الشريف يومئذ . لمّا مات عمّه الشيخ عمر بن أبي اللطف الآتي ذكره إن شاء الله تعالى وكان مُفتي الحنفيّة بالقدس ومدرس العثمانية ، والعتارية (؟) بهـا تولى مكانه التدريس بالعثمانيّة ، والفتوى على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه . وتوجّه بعد موت عمّه المذكور إلى باب السلطنة بقسطنطينية فتقرّر في المناصب المذكورة بأحكام سلطانية ، ولما وصل إلى بيت المقدس سَلّمتْ له الرئاسةُ مقاليدها ، وكانت قد رثّت المكارمُ فأظهر للأنام تجديدها ، وأخذ عن عمّه شيخ الإسلام الشيخ محمد ابن أبي اللطف الشافعي الآتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى ، وكان يحبّه جدّاً حتى إنه زوّجه ابنته .

وحكى لي ولد الشيخ محمد المذكور وهو سيدنا الشيخ كال الدين محمد ابن أبي اللطف الآتي ذكره إن شاء الله تعالى أنّ والده كان قد عزم على أن يزوّج ابنته المذكورة بابن أخ له آخر يقال له بياض [٣] ابن الشيخ علي . فرأت امرأةٌ صالحةٌ في دارهم والدَ الشيخ محمد وهو شيخ الإسلام الشيخ

---

(١) « أبو بكر » ساقط من هـ

(٢) انظر ص ٢٩٦ من الجزء الأول

(٣) بياض في جميع الأصول

محمد شمس بن أبي اللطف وهو يقول : هذه البنت لا يعطيها محمد لفلان بل يُعطيها لجار الله . وهكذا رأى هذا المنام بعينه رجل صالح ضاع عني اسمه . فلزم أنه أعطاها لجار الله كما حكم والده في الرؤيا ، وأنجحت في ذلك ، فإنّ ابن الشيخ علي مات سريعاً ولم ينتج ، فكان رأيه سعيداً في تزويجها بالشيخ جار الله صاحب الترجمة .

وسافر المذكور إلى مصر وقرأ بها الفقه والعربيّة على علمائها ، وحصلت له الإجازة بالفتوى .

ولقد اجتمعتُ به في الشام مرّات ، وذاكرتُه في بعض مسائل فوجدته فاضلاً ، متوسّط الرتبة في الفضيلة ، وهو الآن واسطة عقد البيت اللطفي ومرجع غالب علماءِ بيت المقدس .

وله قَصْرٌ (١٢٤ آ) في جبل الطور ، وهو في كرم كبير . وكان القصر المذكور في باديء الأمر ديراً ، وهو من محاسن المباني .

وكثيراً ما يُركَبُ اليه من بيت المقدس . ويُتّهم بالميل إلى الذكران من العالمين . وليست التهمة له بصحيحة ، ولعلّ الناقل لها من الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة والفضيحة . سلمه الله تعالى وأبقاه ، وحرسه وحماه ، آمين .

١٠٣

الشيخ جلال الدين الصفوري
والد الشيـــخ تاج الدين الصفوري
السابق ذكره

هو الشيخ الصالح العالم العامل ، الولي الكامل ، الشيخ جلال الدين الصفوري الشهير بابن عبد الهادي ، العمري الشافعي .

وُلد المذكورُ بقرية صَفّورِيّة ، وورد الى دمشق الشام في ابتداء شبابه ، وقرأ العلم على مشايخ دمشق ، ومهر في الفقه ، ورجع الى قريته صَفّورِيّة ، وجلس على سجادة التصوف بالمشيخة في بيتهم ، ولم يزل جالساً في زاويتهم بالقرية المذكورة ينفع الناس بالقرآن وبتعليم أمور الدين وبالفتاوى في الوقائع والمهمات . وكان يعظ الناس في الأشـــهر الثلاثة ، ويجلس فوق الكرسي بجامع صَفّورِيّة ، ويعلم الناس المسائل الشرعية ، والمطالب الدينية وكان مع ذلك يقيم حلقة الذكر في الجمعة بعد الصلاة في الجامع الكبير . وكان على أسلوب السلف ، متقللاً من اللباس ، يلبس في الغالب الثياب القطن البيض . وكانت عمامته من الميزر الصوف على قاعدة مشايخ التصوف .

وهو من بيت كبير ، ولهم أقاربُ بصالحية دمشـــق يُقال لهم بيت الصَفّوري ، ومنهم مشايخُ وقضاةٌ وواعظون ، ولهم أقارب بقرية عقربا

من نواحي دمشق (١) قد استوطنوا القرية المذكورة ، وتملّكوا بها أملاكاً . وجدهم الأعلى الشيخ عبد الهـادي مدفون في تربة القصّارين بمحلة قبر عاتكة ، وهو معروفٌ يُزار .

أخبرني الشيخ أحمد العمادي أن جده كان يُقيم حلقة الذكر بمقصورة الجامع الأموي . فلما قدم الشيخ عبد الهادي الى دمشق من قرية صَفَّورية أعطاه الشيخ الصمادي موضعه بالمقصورة ، وقال له : أقم حلقة الذكر مكاني هنا . وصار الصمادي يقيم حلقته بشرقيّ المقصورة .

وأخبرني والدي الشيخ الصالح الشيخ محمد البوريني وكان من المعتقدين للشيخ جلال الدين المذكور صاحب الترجمة أنه سار معه (١٢٤ ب) مرة الى كَفر كَنَّة (٢) لأجل الشفاعة عند الأمير عمر بن علاء الدين في رجل حبسه الأمير المذكور ، فلم يقبل شفاعته وأظهر تجبراً عظيماً . فقال الشيخ المذكور يا عمر ! الحجرُ الذى عثر فيه أخوك ناصر الدين تعثر أنت فيه .

فتفكّر الأميرُ المذكور وقال للشيخ اصبر يا مولانا علينا ساعةً ، فإنّا نقبل شفاعتك .

فقال له الشيخ : يا أمير ! نفذ السهم .

وسار الشيخ مُغْضَبَاً ، فبعد أيامٍ قُتل الأميرُ المذكور كما قُتل أخوه ناصر الدين ، على طِبق ما ذكر الشيخ .

ولما تغيّرتِ الأحوالُ ، وتفاقمت الأهوال ، في تلك البلاد ، وشاع بها الفساد ، جاء صنجق الى صفد وكبس صَفَورِية ، لأنها تابعة ، وقُتل ابن أخي الشيخ المذكور هو الشيخ مُحيي الدين ابن الشيخ محب الدين ، وجاؤوا برأسه ووضعوه بين يدي الشيخ المذكور . ضاقَ صدره ، وعزم على ترك

---

(١) من الغوطة . انظر غوطة دمشق للأستاذ كرد علي .

(٢) انظر ياقوت ، معجم البلدان (كفر كَنّا) .

هاتيك البلاد . فسافر الى دمشق وسكن بقرية عقربا عند أولاد أخيه الشيخ محمد . فتوفي بها في سنة خمس وتسعين وتسع مئة ، ودفن هناك .

وكان رحمه الله من محاسن أبناء زمانه ، وممن تشرف به جميعُ إخوانه رحمه الله رحمة واسعة ، وسقا ثراه من سحائب رحمته الهامعة .

كتبتُ له لأمرٍ اقتضى ذلك في سنة عشر بعد الألف :

كتبتُ اليك أرجو منك عفواً ... وأطلبُ منك احساناً ولُطْفا

فإنْ تَسْمَحْ فأنت لذاك أهلٌ ... وإنْ تطرد فما باشرتَ عُنْفا

فمثلُك سيّدي يعفو ومثلي[1] ... يباشرُ من ذنوبِ النفسِ ألفا

فيا ابن أبي الوفاء وذاك أصلٌ ... شهيرٌ في البرايا ليس يَخْفى

تَلَطّفْ بالفقيرِ وكُنْ عَطُوفاً ... عليه بقيتَ نرجو منك عطفا

ألستُ لكم محبّاً من قديمٍ ... وما من شأنكم تنسون إلْفا

وحقّك يا كريمَ النفسِ يا من ... دوامَ الدهر ليس يضمُّ كفّا

لقد أخطأتُ حين كتبتُ عَتْباً ... ولولا الحلمُ ما سَطّرْتُ حرفا

وها أنا جئتُ مُعْتَرِفاً بذنبي ... ومن أضحى مُقِرّاً ليس يُجفا

عرفتك بالجميل لكلِّ شَخْصٍ ... وجئتُكَ أرتجي بالعفوِ عُرْفا

فسامح للفقيرِ وجُدْ وعامِلْ ... بلطفٍ منك إنّ الذنب يُعْفى

---

(١) م « فمثلك من يعفو عبدي ومثلي » والوزن غير مستقيم .

(١٢٥ آ) جلال الدين أنت وفيك خُلْقٌ ... يُعامِلُ بالجميلِ وأنت. . . [1]

أتيتُ لباب جودِكَ مستجيراً ... عسى بالعفوِ ثوب الودِّ يُرْفى

عَزَمْتُ عليك بالأسلاف طُرّاً ... وبوالدك الذي أوفى فَوَفّى

بذاتك مَنْ رَقَتْ فوق الثُرَيّا ... وَرَدّتْ كُلَّ مَنْ قَدْ رام عَسْفا

تَفَضّلْ بالسماحِ على فقــير ... وفيٌّ ودادهُ ذهبٌ مُصَفّى

فلا كَــدَرٌ ولا غِلٌ وحقْدٌ ... ولكن مِنْ زُلالِ الماء أصْفى

فنجم الفضل منكم ليس يخفى ... ومصباحُ المودّةِ ليس يُطْفا

مدى الأيّام ما هَبّتْ شمالٌ ... فأهْدَتْ من نسيم الروضِ عَرْفا

---

(١) بياض في الأصول .

١٠٤

جلال الدين چلبي

ابن الشيخ عبد الصمد التركماني العكاري الدمشقي

كان والدُه الشيخ أدهم ولد الشيخ عبد الصمد من المدرِّسين بدمشق وكان فقيهاً ، وأما جدُّه الشيخ عبد الصمد فإنّه ورد إلى دمشق ومعه حُكْمٌ سُلْطَانيّ بأنه مُدَرِّسُ التقويّة ، ومُفتي الحنفيّة . فَنَفَّذ حكمَه قاضي القضاة وليّ الدين بن الفُرْفُور ، وصيّره مفتياً ومدرساً بالمدرسة المذكورة . وكان فقيها بَحْتاً لا يعرفُ من غير الفقه مسألةً على ما قيل ، ولكنه كان صاحبَ هِمّة ، يُسافرُ كثيراً إلى باب السلطنة بقسطنطينيّة . وكانت لهم بعكّار[1] أملاكٌ وبعضُ مواشي (كذا) وكان له المؤيّدون هناك ، لأنّ أسلافهم هناك مشايخُ . وكانوا من تركمان هاتيك الولاية .

فلما مات الشيخ عبد الصمد بدمشق بعد أن طالت مُدّته ، وهو يُفتي بها على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة ، خلفه ولدُه الشيخُ أدهم ، فدرّس بالعادليّة الكبرى بدمشق ، وسكنوا بقاعتها . ولم تكن مادّتهم منقطعةً عن بلدتهم عكّار ، بل كانت المؤنُ والمعيشةُ تأتي إليهم إلى دمشق من عكّار دائماً . وكان الشيخ أدهم هذا صالحاً غير متكلّفٍ في لبسه ومعيشته ، على أسلوب التركمان .

---

(١) من توابع لبنان اليوم .

. . . سل بالوزير الأعظم سنان باشا ، وصار له معلّماً ، ونال منه خيراً كثيراً . وسافر معه إلى مصر ورأى منه سنان باشا بعضَ مكاشفاتٍ فاعتقد عليه . من ذلك ان سنان باشا المذكور كان مقيماً بمصر حاكماً بها في زمن سلطنة السلطان سليم بن سليمان ، فأمر السلطان (١٢٥ ب) المذكور مصطفى باشا الذي كان مربّيه — ومربي السلطان في اصطلاح سلاطين آل عثمان يسمى لاله — أنْ يسيرَ الى فتح بلاد اليمن . فسار إلى مصر وتباطأ في مصر وتقاعد عن السير إلى اليمن ، وكان يرجو أن تُضَمّ له إمارةُ الأمراء بمصر إلى سرداريّة العساكر المعيّنة لليمن .

فاتفق أنه اتفق مع بعضِ خواصه أن يضيف سنان باشا ويضع له السمّ في المشروب . فدعاه فأجاب . وقال للشيخ أدهم : قمْ واذهب معي إلى الضيافة . فقال له : والله أنا ما أذهبُ معك ، ولكن احترزْ أنت على نفسك ، فإني أخافُ عليك ، والقومُ عازمون على أنْ يضرّوك .

فلما قدّموا إليه الإناءَ المسمومَ فى ماءِ الشعير المحلّى بالسكّر لم يتناول منه شيئاً ، ودعا بعض الأمراءِ الحاضرين إلى شربه . فقال له مَنْ دعاه : أما أنا فلا أشرب من هذا .

فازداد وهمُه . فقال رجل واقف للخدمة : إلى متى تعتزمون على شرب هذا الكأس ؟ وتناوله ليشربه . فلما وضعه بين يديه تناثر لحم فمه في الحال ، ووقع مقدّم أسنانه ، وسقط شعر لحيته . فألقى الكأس من يده .

وعلم الحاضرون بالقصة ، فقـــام سنان باشا وهو يقرأ قوله تعالى : ﴿ ولا يَحيقُ المَكْرُ السّيءُ إلاّ بأهْله ﴾[1] .

---

(١) سورة فاطر ، ٣٥ ، الآية ٤٣ .

ونادى فرسه فركبها ، وذهب . فأثبت أن سلامته كان بتنبيه الشيخ أدهم له بقوله : أنا لا أذهبُ معك ، ولكن أنت احترز على نفسك . فاعتقد ولايته لذلك .

ولما مات صار ينفع أولاده ، ويلتفت اليهم . فلما جاء إلى الحكومة بالشام [١] بعد الوزارة العُظمى ، جعل جلالَ الدين هذا معتمداً على ما بناه سنان باشا بمصر من الجامع العظيم في باب الجابية ، بالمنارة الخضراء ، والسوق العظيم بالقناطر العظيمة التي ليس لها بالأرض نظير . فاقتنى من ذلك أملاكاً كثيرةً عظيمــة ، وأموالاً جزيلة . ولكن بنى بيتاً خلف حمّام العقيقي [٢] بدمشق . وكان البيتُ المذكور حمّاماً موقوفاً على أماكن كثيرة منها حصة موقوفة على أئمة الجامع الأموي ، فما تهنأ به ، ولا اطمأن خاطره فيه . وبنى بالصالحية بيتاً وقصراً ، وغرس بستاناً لطيفاً على نهر يزيد ، فابتلاه الله تعالى بمحبّة غُلامٍ له مملوكٍ يُقال له مُسْتَدام ، فامتُحن فيه محنة عظيمة اشتهرت بين العرب والعجم ، وشاع ذكرُها . فاتفق أن نَشْوَةَ الدلال وعِزّةَ الجمال استهوتْه الى أن طلعَ ليلةً من الليالي من البيت وأخذ معه نحو خمسه (١٢٦ آ) آلاف دينار من الذهب وركب فرساً تُساوي نحو الف دينارٍ وحمل رُمحاً وهو غنيٌّ عنه بقدّه ، وسيفاً وهو مُستغنٍ بطرْفه الأسودِ عن حدّه ، وطلع من باب دمشق إلى أنْ وصل الى مخيّم عرب أمير آل حيار الشهير بابن أبي ريشة . فسأله الأميرُ عن ذاته وعن سبب خروجه وقال له : أنت هاربٌ ؟ فقال له : نعم . أنا مملوكُ جلال چلبي ابن الشيخ عبد الصمد ، ومعي مالٌ كثيرٌ له . وقال هذا بين جموعٍ من العرب والروم وغيرهم فلم يستطع العربُ أنْ

---

(١) انظر ولاة دمشق في العهد العثماني ص ٢٠ — ٢١ .

(٢) انظر كتابنا خطط دمشق ص ١١ .

يفعلوا بالمملوك شيئاً ، ولا أن يأخذوا من ماله الذي معه . فبعد أيام وردَ عليه سيّده رائداً قلبه الذي استمر في محبته . فلما رآه استدناه ، وما بلغ معه من العتاب لحظـــة ، ولا من التأنيب لفظة . فأنشدتُ قولَ الأمير أسامةَ بن مُنقذ :

أسطو عليه وقلبي لو تمكّن من   كفّي غلّها غيظاً الى عُنُقي

وأستعيد إذا عاتَبْتُه حَنَقاً   وأين ذلُّ الهوىٰ من عِزّة الحَنَقِ ؟

ورجع بالمملوك له مالـكاً ، وفي طريق المتجاهرين بالحب سالـكا .

أخبرني الشيخ محمد العربيلي قال : كنتُ في صحبة جلال الدين المذكور وهو يُفَتّشُ على مملوكه عند هربه . فخطر لي أنّه بمجرّدِ أن يلقاه يبيعُه ، وأنْ لا يهضم هربه بماله ولا يستطيعه . فقال لي قبل أن يلقاه ، ولكنه تحقّق أن يراه ، ويحظى بلقاه : يا شيخ محمد ! إنّ هـذا المملوك قد سبكته نار التعب ، وذاق ما ذاق من خوف الهرب ، فهو بعد اليوم يصير خادماً لا نظير له ، فبالله عليك لا تجاهره بالعتاب ، ولا تضرب في وجهه بكفِّ التعنيف والعتاب ، خوفاً عليه من ضيق الخجل والحجاب .

قال لي الشيخ محمد المذكور : فتَيَقّنْتُ من ذلك أنه محبٌ على بعده غيرُ صبور . قال : بدليل أنّه لما قابله ما قاتله ، ولا ناضله . ولا تغيّر عليه سوى وجهه بالاصفرار ، وكلامه الذي تلجلج به لسانه المهزار ، فعلمتُ أنّ الحب قَيّدَه بقيدٍ ثقيل ، وأنّه عنه غير مائلٍ إلى التحويل ولا التبديل :

إذا مرضنا أتيناكم نعودُكُم   وتُذْنِبونَ فنأتيكم ونعتَذِرُ

قال : فعادت الروحُ الى البدن ، ورجع الساكن إلى السكن .

ولما رجع به ثانيا ، لم يَحِدْ به لعنان هواه عن الصبابة ثانيـــا . فـكان لأجلِ الغلامِ يداومُ (١٢٦ ب) المُدام ويخلع العذار ، ولا يميل إلى استتار ، آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار ، قَسَماً لقد رأيتُه في زمن الشتاءِ الواقعِ في سنة عشر بعد الألف وهو ماشٍ ، صحبته رجلٌ من صناجق السلطان يقال له هداية بك العجمي ابن العجمي فضل الله الخزري المقامر . وكلاهما ثَمِلٌ يتمايلُ سُكْراً ، ولا يحيط بما يصنع خُبْراً . والطينُ قد لفّهُ من قَرْنه الى قَدَمِه ، والنبيذُ غلب عليه حتى كاد يوصله الى عدمه ، والهدايةُ متقدّمٌ للضلالِ والإضلال ، وليس له من اسمه سوى الاسم والمعنى يعاكسه بغير إشكال . والجلالُ وراءه يقول لمن يراه : أنا مالي ذنب ، إنما الذنبُ لهذا الذي أضلني بهداه . مشيراً إلى هداية ، الذي لا يليق باسمه سوى الغواية . وشاعت عنها هذه القِصة ، حتى ورثت القلوب أعظم غصّة ، وصارتْ لأهل دمشق سمراً نحو سَنَة . ولم يذق كلٌ منهما من التعنيف طعم سِنَة ، حتى إنّ حضرة أمير الأمراء محمود باشا ابن الوزير الأعظم القابدان الشهير بابن جمال لما كان والياً لإيالة دمشق دخل اليه هداية المذكور يطلبُ منه علوفةً في الجوالي كان قد لبّس على تحصيلها في الباب العالي . فقال له : أنت أمير ، وتطلب علوفة الفقير ! ومع ذلك فقد صرت أميراً ولا تراعي عرضَ الأمراء ، فإنّ سكرك ومشيك في الأزِقّة وأنت تتمايلُ لا يناسب طلبك لعلوفة الفقراء والصلحاء والعلماء . فقم واذهب !

حرف الحاء

١٠٥

الشيخ حسن القطناني الرفاعي (١)

الشيخُ الصالحُ (٢) الذي وقع الاجماعُ على ولايته اتفاقـــا ، وصدر الاتفاقُ على صلاحه إخلاصاً لا نِفاقــا ، وهو من بيتٍ كبيرٍ في قرية قَطَنَا (٣) لهم الخلفاء والنقباء في سائر البلاد ، وتُنقل عنهم أحوالٌ عجيبةٌ موجبةٌ لغاية الاعتقاد ، وأما الشيخ حسن هذا فإني رأيتُه وليس عنده تصنّعٌ بأمورِ الدنيا ، ولا تكلف في مأكل ولا في ملبس ، كان يمر في أزقة دمشق كأنه من آحادِ الناس ، منفرداً في الغالب ، فترى الناس يُقبلون عليه (١٢٧ آ) ويقبّلون يده ، ويطلبون منه الهمة والدعاء ، وسمعتُ كثيراً من أهل دمشق يذكرون عنه كرامات كثيرة .

وأخبرني صاحبنا الشيخ محمد بن العلم المقدسي الصوفي الصالح أنه رآه في الواقعة يأمره بترك الدنيا وبالإنابة | على طريقته | (٤) ففعل ما أمر به ، وبادر إلى ترك تعلّقات الدنيا .

---

(١) هذه الترجمة مؤخرة في « هـ » . وتبدأ التراجم فيها بترجمة « حسن باشا بن محمد باشا » .

(٢) م « صالح » .

(٣) قرية كبيرة هي مركز قضاء قطنا اليوم . وتبعد عن دمشق ٢٤ كيلو متراً ، في الجنوب الغربي منها .

(٤) ساقط من هـ .

وكان الشيخ محمد العلمي المذكور ماشياً على طريق العلم ، وكانت له تعلّقات كثيرة بالدنيا فتركها بعد رؤية المنام المذكور ، وشرع في طريقة التصوّف ، بغير تكلّف ، ولا تصلّف . وها هو الآن من أصحاب الجمعيّات الشهيرة بدمشق ، يذكر [١] بعض العلوم أيضاً لبعض الطلبة ،

وأما الشيخ حسن المذكور فإنه مات في سنة سبع وسبعين وتسع مئة . وقد نظمت تاريخاً لوفاته ، واتفق له في ذلك كرامة عجيبة . وذلك أنه لما توفي إلى رحمة الله تعالى كانت وفاته بقرية قَطَنَا من توابع وادي العجم من نواحي دمشق ، فحضر إلينا رجلان [٢] من مريدي الشيخ وخواصِّ جماعته ومعهم ابريقٌ من القهوة وقالوا : نريد أن تنظموا لنا أبياتاً تتعلق بتأريخ موت الشيخ المذكور . فقلنا : نشربُ القهوة وننظر ذلك على بركة الله تعالى . وبينا أنا في شرب القهوة إذ خطر لي مصراعٌ موزونٌ فقلت لجماعة الشيخ : قد خَطَرَ لي مصراعٌ ، فإنْ كان الشيخُ وليًّا فإنَّ حسابه يكونُ صحيحاً موافقاً لتاريخ وفاته . والمصراع هو قولي :

« مات قطب الشام واحزنا »

فشرعتُ أحسب في المصراع المذكور فإذا هو حساب مطابق [٣] لتاريخ وفاة الشيخ المذكور كما ذكرناه . وهذا من أعجب العجاب [٤] ، ومن أغرب الغرايب التي تحار لها الألباب ، ولما رأيتُ صحّةَ حساب التاريخ على ما ذكرناه أكملتُ عليه نظماً فقلت :

---

(١) هـ « يذاكر » .
(٢) م « رجلاً » .
(٣) هـ « فإذا حسابه مطابق » .
(٤) هـ « العجايب » .

في جنانِ الخُلْدِ قد قَطَنَا　　كاملٌ مَثْواهُ في قَطَنا

لم يَزَلْ مُذْ كان مُتَّبِعًا　　سَنَناً اكرم به سَنَنَا

لم يُضِعْ فَرْضاً لخالقهِ　　بل أقام الفَرْضَ والسُّنَنَا

سَيرُهُ في طول مُدّته　　لم يَزَلْ مثل اسمِهِ حَسَنا

فلذا أرّختُ نقلته　　مات قطبُ الشام واحزَنا

١٠٦

(١٢٧ ب) حسن باشا بن محمد باشا

الوزير الأعظم (١)

تولّى ولاية أناطولي ، ثم تولى ارزن الروم . وكان فرهاد باشا سرداراً على العساكر العثمانية لغزاة ولاية العجم . فاجتمع به في ولايته المذكورة ، فقال إنّ فرهاد باشا المذكور بنى بعض القلاع في ديار المشرق ، ورفع حساب كلفته عليها في دفترٍ ، وطلب من بقية الأمراء إمضاءَ ذلك الدفتر . فمنهم مَنْ أمضاه ، ومنهم من رَدَّهُ وما ارتضاه ، وبلغنا أنّ حسن باشا عرض إلى حضرة الخونكار [بأن] (٢) المبلغ الذي رفَعَ حسابه فرهاد باشا السردار في بناء القلاع ليس كما ذكر بل زاد على جانب السلطنة شيئاً كثيرا ، فنُمي الخبرُ إلى فرهاد باشا بما عرضه حسن باشا ، وكان مقيماً بأرزن الروم حينئذ . فأرسل إليه وعاتبه على ما بلغه عنه ، فدار بينهما كلام في أثناء المعاتبة ، أدى بها إلى قبيح المخاطبة ، فقال فرهاد باشا لحسن باشا : أنت صبيٌ خارج عن الأسلوب ، وقال له حسن باشا : أنت أسود الوجه سَفَلَةٌ كذوب .

فوضع فرهاد باشا يده في القوس يريد ضربه ، ووضع حسن باشا يده على قبضة خنجره قاصداً قلبه ، فدخل الحاضرون في البين ، وبادر

---

(١) ساقطة من هـ « الوزير الأعظم » .

(٢) الزيادة من « هـ » .

حسن باشا إلى دواعي الرحيل والبَيْن ، ورحل من حينه ، خوفاً من إسراع حينه ، لأن السردار قادرٌ على قتل من أراد من الأمراء ، وإنْ كان حسن باشا معدوداً في امارته من أقران الوزراء . ولم يزل يجوبُ الفيافي ، ويرد كل كَدَرٍ وصافي ، حتى ورد قسطنطينية المحميّة ، على غفلةٍ من ساير البريّة ، فماجتْ لقدومه الدولةُ واضطربت ، وجزعت لرحيله إلى الباب نفس السردار وما اصطبرت ، ويُقال إنّ حسن باشا اشترى تفتيش السردار بأحمال من الذهب عَدّه ، ورأى ذلك له أنفع عُدّه . فسار الخبر إلى السردار ، فقبل الأحمال خوفاً من التفتيش على سبيل الاضطرار ، وبُدّل حسن باشا عن ولاية ارزن الروم بالشام ، وعاد اليها طائراً لشدة الشوق والغرام ، فوصل اليها ثانياً ، ولعنان الاقامة نحوها ثانياً .

ومن عجيب مابلغنا أن رجلاً من الجاويشية الذين لهم قدمٌ في خدمة السلطنة رأى والد حسن باشا وهو المرحوم محمد باشا في النوم قبل أن يصل حسن باشا إلى قسطنطينية (١٢٨ آ) عند فراره من السردار كما ذكرنا ، فقال له : يافلان ، اذهب إلى جميع أركان الدولة وأوْصِهِمْ بحسن ولدي ، وقُلْ لهم إني أوصيهم به . فقام الرجلُ المذكور متعجّباً ، ودار على أرباب الدولة وذكر لهم الواقعةَ فتعجّبوا من واقعة حاله ، وحال الواقعة ، ولم يعلموا السببَ في الرؤيا المذكورة ، لأنهم لاعلمَ لهم بأنّ السردار قَاتَلَ حسن باشا وقَابَلَه ، ونَاضَلَه ونَاصَلَه ، حتى إن خبر الرؤيا المذكورة نُمي إلى حضرة السلطان مُراد ، ولم يعلم أحد من ذلك بالمراد ، فما راعهم إلاّ قولُ الناس : قَدِمَ حسن باشا . ولم يعلموا ما أراد بالقدوم وما شا [١] وعلم الناسُ كلهم أن والده الوزير كان

---

(١) م ، ب « ولم يعلم بالقدوم ولا شا » . اثبتنا رواية هـ .

من أهل الولاية ، وأنه لم يَغْفَلْ عن ولده ولا بعد الموت بدليل ماصدر عليه من الوصاية .

ومكث حسن باشا المذكور في ولايته للشام المرة الثانية تزيد على سنتين ، ثم عُزِلَ عنها ، ثم أعيد اليها ثالثاً . ولم يسبق لغيره من أمراء آل عثمان أن يتولى الشام ثلاث مرات .

ومن عجيب ماوقع في أيامه أنّ رجلاً من بوّابي السلطنة العثمانية ، قدم إلى دمشق بأحكام سلطانية ، في أمر يتعلّق بالأشقياء بني الخطاب خذلهم الله تعالى . وذلك أنهم أكلوا ميراث رجل يُقال له محمود الأعور وكان ميراثه يعود للسلطنة لعدم قريب يرثه . فحضر البوّابُ المذكور للتفتيش على مال الرجل المذكور ، وكان اسم البوّاب محموداً ، وكان لقبه بالتركية تكري بلماز [1] يعني الذي لايعرفُ ربّه . فتجاوز محمود المذكور في الأمور حتى أنه سجن من العلماء الشيخ اسماعيل النابلسي المتقدم ذكره [2] . وسجن معه الشيخ محمد الحجازي الحمصي الشافعي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى . وبالغ محمودٌ المذموم في التعدّي الى أن ملأ قاعة بني الزّمن بدمشق من المسجونين الأعيان بغير طريق . فكتب بعضُ أعيان دمشق في شأنه مكاتيب وأرسلوها الى الباب العالي . فحضرت المكاتيب الى حضرة المفتي الأعظم شيخ الاسلام الشهير بجوي زاده ، بلّغه الله في الجنة الحسنى وزاده ، بما فعل محمودٌ المذموم مفصلا ، فعرضها على حضرة المرحوم السلطان مُراد بواسطة الوزير سياوس باشا فخرج الحكمُ السلطانيُّ على موجب الفتوى الشريفة بقتل البوّاب محمود بعد الإثبات عليه . فورد الحكمُ الى دمشق وأميرُ الأمراء بها حسن باشا (١٢٨ ب) صاحب الترجمة وقاضي القضاة بها علي أفندي بن المرحوم قاضي العساكر سنان جلبي أفندي

---

(١) « تكوي بلماز » .

(٢) انظر ص ٦١ من هذا الجزء .

فأمر الباشا أرباب الحل والعقد ، والقول والرد أن يجتمعوا في الديوان بدمشق ، فاجتمعوا بأمرهم وكان قاضي القضاة أيضاً بالمجلس وأخرجوا مَنْ كان في حبس محمودٍ الخبيث على صورتهم بالقيود والأغلال في أعناقهم ، ما عدا العالِمَيْن المذكورين فإنهما كانا قد طلعا من سجنه قُبَيْل ورود الحكم بأيام قلائل . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً . ولمّا أُحضر البوّاب محمود الى الديوان أمر الباشا بنزع كسوته السلطانيّة عنه ، وأُلبس على رأسه لاميةً سوداء من الشعر وأُوقف في حاشية الديوان ذليلاً حقيراً وادعى عليه بعضُ المحبوسين من القضاة وأرباب المناصب ، وقامت عليه البينةُ بتحقيرِ العلماءِ وازدرائهم ، وحَكَمَ عليه علي أفندي بالقتل لثبوت الردّة عليه ، وخاطبه بذلك قائلاً : حكمتُ بإراقةِ دمه هدراً . وكُتِبَ بذلك تمسّك شرعيّ .

وكان الشيخ شرف الدين الأعرج بن يونس الحكيم من أكبر المتعصّبين على البوّاب في اثبات أسباب قتله .

وكان الاثباتُ المذكورُ في بعضِ أيام التشريق ، وكانت الأرجوحة مركّبةً على بابِ دارِ الإمارة بدمشق على قاعدة الأروام في تركيبها أيام التشريق . فأنزلوا البوابَ محموداً . فلمّا تحقق أنّه مقتولٌ لا محالة طلب المُهْلَةَ إلى أن يغتسل كأنه كان جُنُباً فأمهلوه لذلك ، فاغتسل في مسجد عيسى باشا الذي في باب دارِ الإمارة ، وصلّى ركعتين ، وصلبوه في خشب الأرجوحةِ . وكَثُر سرورُ الناس لقتله لأنه كان مبالغاً في الفجور والعناد والفساد .

ولما عُزل حسن باشا عن الشام في المرة الثالثة سافر إلى الباب العالي ، وتقلّبت به الأهوالُ ، وتنقّلت به الأحوال ، إلى أن صار حاكماً في بلاد الروم . واستمر هناك سنين عديدة ، ومديدة . ونسبوا إليه هناك

أموراً لا أصل لها . فورد حكم سلطاني بقتله ، فلم يُسلمه للقتل ثم حضر بعد ذلك إلى الباب وبحث عن أصل الحكم الذي وردَ بقتله ، فوجد ليس له أصل ، وإنما هو منسوبٌ إلى صُنْعِ بعض النساء . ولم يزل يتطلّبُ التفلُّت من قسطنطينية ليبعد عن الباب العالي لأن والدة السلطان تبغضه على ما يقال : فأعطوه ولايةَ بغداد وما يليها من بلاد [عراق] (١) العرَب . فذهب إليها بعسكرٍ (١٢٩ آ) جرّار ، ودخل إليها بعنوان عجيب ، وأسلوب غريب . وأظهر فيها من الحجاب ما لا يُعهد لمثله من أرباب المراتب ، حتى تكلّم الناسُ عنه بما لا يليقُ ، ولم يزل بها حاكماً حتى حدثته نفسُه بحفر نهر أخذه من دجلة وأجراهُ يسقي أماكن كثيرة قيل إنْ محصولها يزيد في السنة على عشرين ألف دينار ذهبا ، ولكن حدث بينه وبين العسكر العراقيّ أمورٌ اقتضَتْ خَرْقَ الحجاب ، والتعدّي إلى ما ليس بصواب . فعرضهم على الحضرة السلطانية فكأنهم أمروه بالخروج عن بغداد . فخرج منها خائفاً من شقّ العصا ، وأن يُقال فلان بَعْدَ الطاعة قد عَصا ، فأقام بالموصل أيّاما ، لم يذق بها مناما ، ثم نازلهم مُنازلة المحارب ، وقاتلهم مقاتلة المباعد لا المقارب ، وجاءه الأمرُ بالانفصال ، بعد أن نهب من جماعته مالهم من الأموال ، فتوجّه إلى ديار بكر . فبينما هو هناك وإذا بالأمر السلطانيّ المحمدي جاءه بأن يصير اصفهْسلاراً على العساكر ، ويذهب لقتال الباغي الخارجي ، عبد الحليم اليازجي . الناجم في نواحي سيواس ، هو والطايفة السكبانية . فتوقف في نواحي ديار بكر توقّفا أساء به الظن ، ولكن ظهر بعد ذلك أنّ التوقّف مـا كان إلاّ عن أصل أصيل ورأي متين ، وما ذلك إلاّ أنه انتظر اجتماع العسكر السلطاني لا سيّما الطائفة الشامية ، فإنّ شجاعتهم مشهورة بين البرية . فلما تحقّق

---

(١) ساقطة من هـ .

قدومهم إلى نواحي الفرات تقدم هو أيضاً واجتمع بهم في مدينة عينتاب ، وهناك عَرَضَ العساكر كلّها ، واستدعى الشّاميين فرأى لهم جمعاً راعه واسترعاه ، وفرح به حيث استمدناه ، لأنهم الآن زينةُ العساكر ، وبهجةُ المناظر ، وأعطاهم العطايا الحسنة . وَوَهَبَهم الهباتِ المستحسنة ، وصافح أميرَهم وهو مولانا الوزير السيد محمد الاصفهاني الذي سيأتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى .

وبلغني ممن شاهدهما عند التلاقي أن الوزير السيّد أهوى لتقبيل يدِ الوزير حسن باشا فأعجله عن تقبيله ، وتواضع معه تواضعاً ظهر عليه وهال به قلبه ، وتسايرا إلى أن دخل السَّرَدار حسن باشا سرادقه ، فنزل معه السيد المذكور . وسقى العسكرَ الشاميَّ الشرابَ المعنبر اللطيف ، وأكرمهم كما أكرم السيد الشريف ، وسار كلٌّ إلى مكانه ، وذهب كل إلى (١٢٩ ب) إصلاح شأنه ، وزحفوا إلى جانب الخارج عبد الحليم .

فورد الخبرُ بأنّ ابراهيم باشا الشهير بحاجي ابراهيم باشا المتقدّم ذكره في هذا التاريخ [١] ورد بالعساكر الرومية السلطانية ، وأنه بادر بهم إلى لقاءِ الخارجيّ ، الباغي عبد الحليم اليازجي ، وأنه كسر كسرة شنيعةً ، وأنّ اليازجي انتصر عليه وعلى عسكره وغنمه جميعه ، فانكسرت القلوبُ لهذا الأمر واستقبح الناسُ من ابراهيم باشا مبادرته إلى لقاءِ اليازجي قبل استكمال العساكرِ المنصورة ، وارتجّت لذلك الدنيا ، وطمع في الإسلام العدوُّ ، وماجت الأطراف . وطمع اليازجي في استمرار الانتصار والانتصاف ، وكان يقولُ لجماعته الذين لفّقهم : بقي علينا مقابلةُ هذه القافلة . ليشير بذلك إلى لقاء حسن باشا السردار ومَنْ معه من العسكر الجرّار ، كأنه يقيسهم على عسكر ابراهيم ، وكم بين السليم والسقيم ، والنادم والنديم ، والغارم والغريم . وكان

---

(١) انظر الجزء الأول ص ٣١٩ .

يقولُ لجماعته اكسروا هذه الشرذمة ، وبعد ذلك يذهبُ كلٌّ أحد إلى منصبه الذي له عيّناه ، وإليه وجّهناه .

فلم يزل العسكر المنصورُ السُلطاني يتقرّب قليلاً قليلا ، واليازجي يقابلهم ظاناً أنه يجد إلى الظفر سبيلا ، إلىأن التقىالجيشان ، فيمكان من نواحي سيواس يقال له البُستان ، فأسندَ اليازجي إلى ذيل جبلٍ ظنّ أنه يعصمه ، وما علم أنه يكسره ويقصمه ،ووضع المدافع الكبيرة التي كان قد أخذها من عسكر الروم حين كسره مع ابراهيم باشا ، وصَفّ رجالَه وراءه بالبنادقِ الصغيرة ، وضَرَبَ المدافع في وجه العسكر المنصـور ، فلم تُصب أحداً ، ولم تسق لمؤمن رِدا ، ولكن سيّر عسكره وصـدموا عسكر الأكراد ، وعسكر (أرزن الروم)وعسكر(وان) ، إلى أنْ أرجعوهم إلى مواقفهم .

هذا والسردار واقفٌ ، والألويةُ تخفقُ فوق رأسه ، وأمارات النصر قد أشعلت نجوم نبراسه .

وكان الأمرُ قد سبق لعسكر الشـام بأن يتوقفوا في لقاء عسكر اليازجي . وكان ذلك رأياً من السيد محمد الوزير ،وما ذاك إلا أنه قال للسردار يامولانا ان ُغلِبَ غير عسكر الشام كانت لهم قدرة على تداركه وتلاقيه ، وأمّا ُهم فإن غُلبوا عزّ على غيرهم صدمة الخارجي وتلاقيه ، فالأَوْلى أن نجعلهم لنا كمينا ، ونبقيهم لسيفِ النُصْرَةِ يمينـا ، وكان ذلك رأياً ُمستَحسناً .

فلما تراجعت العساكرُ السلطانية ، وصدمَتْهُم (١٣٠ آ) العساكر الخارجية ، بادر الشاميّون بالتكبير ، ودهموا عسكر اليازجي متقدّمين من غير تأخير ، فردوهم على أعقابهم ناكصين ، ووضعوا فيهم السيفَ إلى أن عادوا في الدماء غائصين ، وأظلتهم العقبان ، وطعنهم الخِرصـان ، وزَأرت عليهم أسود الشام ، واظهرُوا فيهم الانتقام .

وبلغني أنّ أحمد آغا كبير الطائفة الينكجرية بدمشق الشـــام ألقى عمامته عن رأسه ونادى :

من صُدّ عن نيرانها   فأنا ابن قيسٍ لا يراح

وأنشد :

أنا ابنُ جَـــلاَ وطلاّع الثنايا   متى أضـــع العمامةَ تعرفوني

وتقدم بالبيرق النبوي ، والسنجق السلطاني المحمّدي ، واضعاً سيفه المسلولَ على عاتقه ، مُقْدِماً على عسكر البغاة ، غيرَ مُستَمِعٍ أصوات بنادقه ، فما مضت لحظةٌ من النهار ، ألا وقد حَصَلَ لعسكر البغـاة صورةُ الانكسار ، فولّوا هاربين ، ومن الأبطال راهبين ، وغنّى فيهم السيفُ على تساقي خمرة الدماءِ الحُمْر ، وتلاطمت السيـوفُ البيض مع الرماح السمر ، وتسنتم اليازجي الذي كان قد نزل ذيله ، ولم ينظر إلاّ الدم وقد أجروا عليه سيله ، ووقف في قلّته ينظرُ الدمَ وقد بلغ القلتين ، وسال سيله إلى أن بلغ الرَبوَتـيْن ، ونظر إلى أبطاله والسيفُ يقد قدُودّها ، ويعكس من أيامهم سعودّها ، ورأى أموالهم التي أخذها بالسيف ، وقد أمستْ طعمةً للعسكر النازلِ نزولَ الضيف ، وعلم أن الليالي مالتْ عليه ، وساقت مكروهها إليه ، فولىّ بُعَيْدَ العصرِ هاربا ، وفي الحياة بعد أصحابه راغبا ، وقال : مَنْ نجـا برأسه فقد ربح ، ولعمري لولا اشتغالُ العساكر بالغنيمة لما فات اليازجي ، ولا خرج إلى برّ السلامة الخارجي . والعجب أنّهم أطلقوا الطيرَ من القفص وبعـد إطلاقه طلبوه من الهواء طائرا ، وتفرّقوا أيدي سبأ في الجبال وحاروا في وجوده حائراً واستمروا دائرين وراءه نحو شهر كامل ، فلم يجدوا من أَثرِه سوى قولهم: كان اليوم هنا ، وبالأمس في المكان الفلاني ، واليوم ذهب عنه ، وهلمّ جرا ،

إلى أن استقرّ الأمرُ أنه في جبالٍ في هاتيك(١) البراري يُقال لها جبال (جانبك) ، وسمعتُ ممن رآهـا أنها في غاية التوعّر ، وأنّ الوصولَ إلى ذُراها في نهاية التعسّر . فأقصروا عند ذلك عن طلبه ، (١٣٠ ب) وعلموا أنه قد جدّ في هربه ورَهَبه ، واجتمعت العساكرُ على السردار في نواحي قونية ، وما ذاك إلاّ أن السردار خـاف أن يكون توجّهَ إلى جانب دار السلطنة أو مايقرب منها ، فلما تحقّق مكانَه بإخبار ثِقاتٍ من المسلمين عطف السيرَ نحوه ، وسارت وراءه العساكر كلّها ، إلاّ شرذمةً من عسكر الشـــام فإنّهم لما ساقوا وراء اليازجي الخارجي قاربوا نواحي حلب ، وكانوا يسمعون أن السردار يشتّي بها ، فانعطفوا عليها ، وعلموا أنهم قربوا من أوطانهم ، فاشتاقوا إليها ، لاسيما مَنْ أثقلته الغنيمةُ من أثقال اليازجي وأمواله فإنه طارَ إلى الشام بغير جناح ، ورام أن يستر ماعليه من العتاب والجناح .

ولما قرب السردار من مكان اليازجي الخـارجي أرسل اليه عسكراً كثيفاً ، وجمعاً منيفاً ، فظفر منهم ، وعطف متحوّلا عنهم ، فلحقوه في بعض الجبال فواقعهم ، وكان السردار عليهم حينئـــذ عثمان باشا ابن المرحوم باقي بك التبريزي الأصل ، وهو من أقارب المرحوم شيخ الإسلام سعد الدين أفندي المفتي خواجة السلطان مراد . فإنّه تقدم وأقدم ، إلى أن توسّط هاتيك الجبال الموعـــرة ، والقفار المتوعّرة . فبينما هو على الصباح ، والضباب قد عمّ النّواحي ، وإذا بقومٍ قد وقع بينهم وما عَرفَ عينهم ، لأنّ الكلّ مسلمون ، والكلّ بلسان التركية يتكلمون ، فحقّقَ الحالَ فاذا هو واقعٌ بين جموع مغلولة ، وسيوف مسلولة ، فعرف

---

(١) هـ « الى أن استقر أنه في هاتيك ... » .

أنهم جماعةُ اليازجي . فقال لهم : أنا عثمان باشا ، وأنا حـاكم بلاد أرزن الروم فلا تقتلوني واجمعوني باليازجي ، فإنّ لي به شغلاً . فعرفوه ، وصافوه ممن لم يعرفه ، وسلكوا به طريقاً ضيّقاً بين الأشجار المشتبكة وهو ماشٍ يقومُ ويقعـد ، حتى كادت روحه تخرج ، وهم يقولونَ له وصلنا فلا تخف ولا تحزن .

فلما أقبل على اليازجي عبد الحليم تلقّاه كما يتلقى الصغير الكبير وقال له : لاتخف ولا تحزن فإنك عندنا ضيفٌ عزيز ، ولك منا الخيرُ الكثير وأخذه إليه ، وعطف بالحنوّ عليه ، مروءةً منه وإحساناً ، وإبقاءً على الكبير وامتنانا .

وكان من جملة نجاة عثمان باشا المذكور أمور منها أن في جماعة اليازجي جماعة قد خدموا عثمان باشا في ماسلف من الزمان ، ورأوا منه غـاية اللطف والاحسان ، حتى أن واحداً منهم كان كبير الجـاويشية عنده ، فقال لليازجي يامولاي إن (١٣١ آ) كنت تبقي على عثمان باشا حقيقةً فأعطني إيّاه حتى أحرسه في خيمتي وأصونه بمهجتي ، فقال له : خذه وإيّاك أنْ ينالـه مكروه ، فإنّ كثيراً من طائفتنا السكبانيه يرومون قَتْلَه ، ويترقبون خَتْلَه ، فكن منهم على حَذَر ، وجـانِبْ وقعة الغرر ، فقال له : ياسيدي هذا أستاذي ، وقد خدمتُه وأنا أضعه في داخل عيني ، وأصونه في سويداء قلبي ، فتسلّمَهُ وأخذه إلى خيمته تكرّما ، وأبقاه عنده محترما .

ولقد أخبرني صاحبُنا بهرام آغا المقابل لدفاتر الجند بدمشق الشام ، وقد كان مع طائفة الشام مسافراً في قتال هذا اليازجي الخارجي ، أنه اجتمع بعثمان باشا بعد خروجه من اعتقاله عند اليازجي فأخبره عنه أنه رأى منه مروءة عجيبة . فمن ذلك أنه كان في كل يوم على الصباح يحمل

الفطور وأباريق القهوة المبنيّة مع جماعته الحسان الوجوه الذين يأخذ حسنهم بمجامع القلوب ويحضر إلى الخيمة التي بها عثمان باشا المذكور ، وما كان فقط الحضور إليه . وكان إذا حضر إليه سلّم عليه من بعيد كتسليم العبيد ، وأنه كان يخاطبه مخاطبة العبد لسيده الكبير ، وأنه ماكان يغسل يده بعد الطعام إلاّ في أباريق الفضة ، واستمر في اعتقاله نحو أربعين يوماً ، لكنه كان يُقاسي شدةً عظيمة في تنقله وتزلزله معهم حيث ساروا ، لأنّ العساكر السلطانية ماكانت تُهمِلُ التفتيش على أماكن اليازجي . وكان يتنقّل خوفاً منهم من مكان إلى مكان ، ويلزم أن يأخذ معه عثمان باشا المذكور إلى حيث ذهب . فقال عثمان باشا يوما لليازجي وقد أجهده السيرُ معهم من جَبَلٍ إلى جبل ، ومن وادٍ إلى واد ، ومن أنجادٍ إلى وهاد : بالله عليك يا أمير ، إنْ كنتَ تقتلُني فافعلْ | فإنّي قد عدمتُ البصرَ في هذا التنقّل والتزلزل ، لاسيّما فأنت تعلم انني ما أنا معتادٌ لمثل هذه الأحوال ، ولا أنا قادرٌ على مقاساة هذه الأهوال ، وإن كنت تُطْلقني فافعل |(1) فإني أرجو الله تعالى أن ينفعك بي كما نفعني بك فقال اليازجي : ياسلطانم ، لاتخف ! والله ثم والله مالك عندي إلا السلامة ، وما نويتُ لك إلاّ العزّ والكرامة ، أفتخاف منّي ؟ ولكن في غدٍ نقطعُ الماءَ الفلاني ، وبعد مرورنا منه نطلقك إلى مأمنك .

فلما قربوا من الماء وأرادوا قطعه رأى عثمان باشا الماءَ عظيماً (١٣١ ب) وظن أنه لايكاد يقطعه بالدابة ، لأنّ الماء المذكور هو جيحان ، وهو ماءٌ عظيم الشأن ، فقال لليازجي : يا أمير ! إنّ البغل الذي أنا راكبه لايقطع بي هذا الماء لكونه نحيفاً ضعيفاً ، ولكونه قصيراً إلى الغاية . فعند ذلك أعطاه بغلاً غيره أصفر قوياً طويلاً . فركب وتبع مواطيء أقدام اليازجي في الماء ونجا معه إلى ذلكَ الجانب .

---

(1) ما بين الخطين القائمين ساقط من هـ .

فلما عبر معه الماءَ وعبر أصحابُ اليازجي أيضاً ، وكانوا عند عبور الماء نحو الف رجل غرق منهم نحو عشرين رجلاً . فعند ذلك حضر مَنْ قال لليازجي : إنّ هنا جمعاً من الناس نحو مئتيْ رجل يريدون الاجتماع بك ، فهل تحب الاجتماع معهم ؟ فقال للقائل : إذهب إليهم وقُلْ لهم ليأتِ إليّ منهم نحو خمسة عشر رجلاً من أعيانهم ، وليكونوا بغير سلاح ، وعليهم الأمانُ مني إلى أن يذهبوا إلى مأمنهم .

وعند ذلك أجلس عثمان باشا منفــرداً تحت شجرة هناك ، وجلس متباعداً منه بحيث كان يسمع كلامَه عند الإصغاء إليهم . فلما جاء إليه المقدار الذي طلبه من القوم سألهم عن مرادهم ، ومن أيّ قوم هم ؟ فقالوا له : نحن عسكر بلاد أرزن الروم ، وقد رأيناك قطعتَ الماء ، ودخلت إلى أرضنا . ونحن لانخشى منك لأنّ معاملتك مع الناس مليحة ، وما عندك ظلم لرعاياك ، ولكنك تعلم أنّه يلزم من دخولك إلى أرضنا أن تتبعك العساكر السلطانية وأنت تعلم مايحصل لنا ولبلادنا من دخولهم إليهم فَـ﴿ إنّ الملوكَ إذا دخلوا قرية أفسدوهـا وجعلوا أعِزّةَ أهْلِهـا أذِلّة ، وكذلك يَفْعَلُون ﴾[1] وقد سمعتَ ماحصل للبلاد التي دخلوها من الخراب . فإذا ذهبتَ إلى بلادٍ أخرى وتركتَ بلادنا لكَ منا من الرعاية ماهو كذا وكذا ، وذكروا له شيئاً من المال يحملونه اليه ، وإن أبيتَ إلاّ الدخول إلى بلادنا والحلول بها كنت ضاراً لنفسك ولنا . فإنّ عِدّتَنا ثمانيةُ آلاف رجل ، وكلّنا يبذلُ نفسه في قتالك ، لأن دخولك إلى بلادنا موجبٌ لدمارِها على كلّ حـال . فقال لهم : اقبلوني ضيفاً هذه الليلة فقط وفي غدٍ أرجعُ وأقطعُ الماءَ ثانياً ، وأعود إلى الأماكن التي كنت فيها .

---

(١) سورة النمل ، ٢٧ ، الآية ٣٤ .

فقبلوا منه ذلك ، وودّعوه بعد أن وادعوه . ورجع إلى عثمان باشا فوجده حيث أجلسه تحت الشجرة فخلا به وقال له : سِرْ ، أنا أقطع معك الماء ثانياً وأرسلك ، وأخرج له من جيبه منديلاً فيه ثلاث مئة دينار ذهباً وقال له : خُذْ هذا يكونُ حقّ القهوة إلى أن تصل (١٣٢ آ) إلى العسكر . واعتـــذر له عن قلّة ما أعطى بأنه منهوبٌ منكوبٌ ، وأنه على جناح هزيمةٍ . فقبل منه العذرَ ، ورآه يرتعد من البرد فاستدعى غُلاماً كان معه وقال له : هات الجوخة الحمراء التي معها السمّور . فأتى بها فألبسها لعثمان باشا ، واعتذر إليه . وقطع معه الماء ثانياً ، وقال له : أوصيك بأمورٍ منها : أنك لاتدخل إلى غير (١) عسكرِ الشام ، فإنّ كلّ عسكر ماعدا أهل الشام يقتلك ، ولو علم أنك عثمان باشا . ومنها أنك لاتُعلِمْ أحداً بنفسك قبل وصولك إلى مأمنك . ومنها أنني أُرسلُ معك [ستة] (٢) رجال من جماعتك الذين كانوا معك عندما وقعت عندنا فاحذر منهم فإنّهم يرجعون عنك . وقال له : أنا عملتُ معك مروءةً على مقدار قدرتي فإن استطعتَ أن تفعل معي جميلا عندمـــا تصل إلى حضرة السلطان فافعل . فقال له عثمان باشا : مايظهرُ لك فعلي إلا إذا وصلتُ إلى موضعٍ أقدرُ فيه على الكلام النافذ ، وإلاّ فلي العذر ما دمتُ لاأقدر .

وودّعه وسار ومعه ستةُ أنفار منهم واحدٌ صغيرٌ أمرد ، والبقيةُ رجالٌ . فلما قاربَ العساكرَ السلطـــانيّة رجعَ عنه الخمسةُ ولم يتبعه سوى الولد الصغير الأمرد . فالتفت اليه الباشا وقال له باسمه : يافلان أنتَ رفيقي ، وقد صرتَ من اليوم صَديقي ، فتكون بعدها شريكاً لي في المنصب والنعمة والدولة . والله لا أصعد إلى مكان إلاّ وأنتَ معي صاعد ، ولا أقدر على سعادة إلاّ ولك منها الكفّ والساعد .

---

(١) ساقطة من ب ، م .

(٢) الزيادة من ه .

فلما دخل إلى العساكر السلطانية نزل جانباً عن الطريق لأنه صدفها سائرةً مجدّة ، وراء[1] اليازجي لما بلغهم أنه سار ليقطع الماء . فكان كلّما مَرّ به أحد يقول من هذا ؟ فيقول : أنا من العسكر نزلتُ لأريق الماءَ . فلم يزل على ذلك إلى أن صدف عسكر الشام وعرفهم ، مع أنه صدفهم ليلاً بسبب أنه سمعهم يتكلّمون بالعربية ، وما في العسكر مَنْ يتكلّم بالعربيّة سواهم . فعند ذلك دخل بينهم وقال لهم : تعالوا إليّ يا شباب ! فأنا عثمان باشا . فعند ذلك أسرعوا إليه وأحاطوا به وأخبروا أكابرهم به فجاؤا إليه وعَرَفوه حق المعرفة ، وقال لهم : إلى أين تذهبون ؟ فقالوا : نريد اليازجي . فقال لهم : إنه قطع الماء وسار . فرجعوا معه إلى أن أدركوا محطة السردار ، واجتمع به عثمان باشا فلم يجد منه إقبالاً ، وكلمه بما آلم فؤاده وقطع أكباده ، وقال له : أين صاحبك اليازجي ؟ وماذا فعل ؟ فقال له : ها هو هاربٌ من جبل إلى جبل (١٣٢ ب) ومن واد إلى واد . فقال له السردار : وحياة رأس السلطان لو دخل إلى أضيق مكان لدخلت وراءه .

وطلع من عنده وهو يبكي لِمَا أسمَعَهُ من الكلام المبكي . وسار من وقته ولم يجتمع بعدها بالسردار بل استخفى ولبسَ رداءَ الليل . وسار إلى مراده ينحدر كالسيل ، وأنشد :

إذا أنكرتْني بلدةٌ أو نكرتُها   خرجتُ مع البازي عليّ سوادُ

وما ذاك إلاّ أنّ السردار المذكور أُعطي منصبه عند اعتقاله ، وظن أنه لا يخلص من اليازجي إلا بموته وانتقاله . فلما رأى أنّ منصبه قد صار للسِوى ، نوى على السيرِ إلى باب السلطنة وما ثوى . وسيُدركُ ماطَلَب ، ولكلّ عبدٍ ما نوى .

---

(١) م ، ب « ورأى » .

ولما تحقّقَ السردارُ سيْرَهُ الى الباب خافَ أن يتكلم في حقه بما لا يليق ، وخشي عواقبَ التصديق . فأرسل وراءه عَرضاً يسوء عرضه وقال فيه : إنّ عثمان باشا قد وقع في يد اليازجي مأسوراً ، والظاهرُ أنّ الاعتقال كان عُقْلَةً لعَقْلِه ، وموجباً لتغيّر إدراكه ونقله ، فلا تقبلوا مقاله ، ولا تُصَدّقوا أقواله ، وها هو الآن ماكث في الروم ، ولم نسمع بما يطلبه من السلطان ويروم .

وأما السَردار فإنه قد شتّى في بلدة توقات ، والعساكرُ في مواضعَ متفرّقات ، وأما اليازجي فقد شتّى في جوانب سَمْسُون ، وهي مدينةٌ على ساحل البحر الأسود ، والقومُ له مترصّدون ، وبأحواله متقيّدون ورجع العسكرُ الشاميُّ إلى نواحي حلب ، ومنهم مَنْ له في حلب بيتٌ ومأوى ، وسَكَنٌ ومَثْوى . فلما أرادوا الدخولَ إلى مساكنهم ، والمُكْثَ في أماكنهم ، صَدّهم العساكر الحلبيّةُ عن الدخول ومنعوهم من الوصول ، فلزم أنّهم يتوقفون للقتال ، ويتوقّعون للنزّال لمنعهم من المساكن ، وطَرْدِهمْ عمّا لَهُمْ من الأماكن . وأغلق أهلُ حلب الأبوابَ في وجه العسكر الشاميّ ، فاستعان الشاميّون بالأمير دَنْدَن ابن الأمير محمد الحياري الشهير بابن أبي ريشة ، وأرسلوا استعانوا بالأمير يوسف بن سيفا التركاني أمير بلدة عكّار وما والاها من الاقطار .

فأما دندن فإنه ذهب بنفسه على مساعدتهم وأمدهم بخيله ورَجْله ، ونزل معهم على منازلة حلب . وأما ابن سيفا فإنّه أرسل إلى الشاميّين معونةً نحو الف رجل مابين فارس وراجل ، ودخلوا إلى الحارة (١٣٣ آ) الخارجة عن داخل حلب ، وهي المحلة المعروفة ببانقوسا ، واستمروا يحاصرون المدينة والأبواب مغلقة دونهم إلا باباً واحداً فإنهم تركوه مفتوحاً لأجل الداخل والخارج .

ولما اشتدت مضايقة أهل حلب من نزولهم على أبوابها وآل أمرهم إلى كمال القحط مع ارتفاع الأسعار إلى أن صار رطلُ اللحم البقر بعشرين قطعة ، أرسل أهلُ حلب قاضيهم ومفتيهم وبعضَ أعيانهم يطلبون من عسكر الشام العفوَ ويحذرونهم عواقبَ البغي ومصارعَ أهل الفساد . فبينما هم كذلك إذ قال عسكر حلب الذين داخل المدينة : الرأي أن نترك الجماعة مشغولين بمحادثة مَنْ طلع إليهم من الأعيان ونطلع نحن من بابٍ آخر ، ونكبس الأمير دندن على حين غفلة . فلما برزوا إلى جانب دندن فرآهم فارتاب بمرآهم ركب ووقف مع جماعته إلى أن أقبل إليه عسكرُ حلب ، فناوَشَهُمْ القتال ، وعَرَضَ عليهم النزال ، وأرسلَ إلى الشاميّين يخبرهم بأن عسكر حلب دهموه ، وأنهم استغفلوكم وقصدوه ، وصار يقاتلهم دندن مقاتلة المخاتل ، وجرّهم مُوهماً أنه انهزم منهم ، فتبعوه مغترّين بهَرَبه أمامهم ، واذا بعسكرِ الشام قد جاؤهم كأنّهم الأسود ، وحالوا بينهم وبين المدينة ، ووضعوا فيهم السيوفَ حتى إنه لم يَسْلَمْ منهم سوى القليل ، وأعادوا المحاصرةَ إلى أنْ دخل إلى حلب قاضي القضاة مولانا يحيى أفندي ابن المرحوم شيخ الاسلام محمد أفندي ابن قاضي العسكر سنان أفندي عليه رحمة الله تعالى ، فاستقبله بعضُ الشاميّين ، ودَخَلَ إلى حلب وشَرَعَ في الصلح بين الفريقَيْن فما تيسّر إلى أن قدم حسن صوباشي الشهير بين عسكر الشام بتركان حسن من جانب السردار المذكور صاحب الترجمة ، فإنّه كان عنده في مدينة توقات . فلما قدم المذكور دخل في مابين الفريقين بالصلح حتى كاد ينبرم على شرط أنه يمكث في حلب سَردار من جانب الشاميّين بماءتي رجل منهم ، وأن عسكر حلب تَعُود إلى خدمة القلعة كما كانوا أوّلاً ، ومَنْ كان له منهم بيتٌ وعيال في حلب فليمكثْ فيها ، ومَنْ ليست له ذلك

يخرج من المدينة . وفُتحت الأبوابُ ودخلوهـا ، وأمهلوهم ثلاثة أيّام للخروج ، فلم يخرجوا بعدها فأدخلوا إليهم ثانياً حسن التركاني ، فلما رأوه كتفوه وغلّوا يديه إلى عنُقِه وأرادوا قتله . فقال لهم : أنا مالي (١٣٣ ب) أنا ما جئتُ إليكم إلاّ مصالحاً لا محاربا . ومال اليه غالبُ الكبار ، فأطلقوه وشرطوا عليه أن لا يخبر جماعته بما فعلوا معه . فقبل الشرط وفارقَهُمْ وصادَفَ جماعته بتمامهم داخلين إلى المدينة ، وذلك لأنهم سمعوا بما صارَ على حسن التركان بل ربما قال لهم بعضُ الناس إنهم قتلوه . فأراد إرجاعهم فلم يرجعوا ، وهجمُوا على العسكر الحلبيّ وأوقعوا فيهم السيف ، فلم يَسْلَمْ منهم إلاّ القليل ، وهم الآن منازلون حلب ، وفي حلب رجلٌ مُفْتٍ يُقال له الشيخ أبو الجود البتروني كان قد أفتى بجواز ضرب الشاميّين بالمدافع الكبيرة من قلعة حلب ، وذلك لأنهم صائلون على المدينة . فطلب الشاميون المفتي المذكور لأجل ما أفتى من جواز ضرب المدافع . فطلع إلى قلعة حلب خائفاً يترقّب . وهو الآن بقلعة حلب خائفاً أن يهجم عليه أهلُ الشام .

وبالجملة فالذي صدر من النهب والغارة والقتل والخـراب في حلب ونواحيها لم يُفعَل في مدينةٍ قطّ ، لاسيّما من عسكر السلطان المؤمنين الموحّدين الذين يدّعون كال الإطاعة للسلطان بنصرة الله تعالى .

وفي هذا التاريخ وهو يوم الجمعة ثاني عشر شوال من سنة عشر بعد الألف ورد الخبرُ إلى دمشق بأن المحاصرة باقية ، وأنّ الشاميين دخلوا المدينة ، وصدر من بعض الأتباع نهبٌ وغارةٌ لبعض المحلات الخارجة . وفي قصد عسكر الشام أن يجازوا الأمير دندن الحياري على مساعدته لهم بإدخاله إلى مدينة سلميّة قهراً على عمّه الأمير أحمد الحياري ، وفي قصدهم أن يجازوا ابن سيفا على مساعدته لهم أيضاً بأن يذهبوا الى مدينة

بعلبكّ وأن يسلموها لجماعته ، لأن أمير بعلبك الأمير موسى بن الحرفوش عدوُ ابن سيفا ، وقَتَلَ أخاه المرحوم الأمير علي كما سيأتي ذكره انْ شاء الله تعالى ، وكلُّ ذلك بغير أمر السلطان وإنمـا هم قومٌ استحسنوا العِصيان ، ولم يُبالوا بغضب الرحمن ، والعقاب من الملك الديّان ، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم .

والقائم بأعباءِ أمورهم شابٌ يقال له كنعان ، جركسي الصنف ، كان مملوكاً لقاضٍ يقال له شيخي چلبي ، ورجلٌ آخر يُقال له خداوردي صوباشي . ولقد كان في مبدأ أمره من أسقاط الناس .

وقد عرض السردارُ المذكور (١٣٤ آ) لحضرة السلطان محمد نصره الله تعالى بأنه لا يُريد عسكر الشام في محاربة اليازجي وإنما نهاية أمرهم أن يسافروا إلى سفر النصارى في بلاد الروم ، وانهى إلى السلطان أنهم خائفون ، وأنهم لو كانوا مستقيمين لما فات اليازجي . ولعمري لو صدر منهم السعيُ الصادقُ والإعراضُ عن النهب لما فات . ولكن الأمر إلى الله جلّ وعلا .

وأمّا عثمان باشا فإنّه قد استمرّ بقطع الأنجادِ والأغوار ، يسيرُ الليلَ والنهار ، حتى وصل إلى باب السلطنة العالية بقسطنطينية المحروسة ، واختفى عند قدومه الى أن طلبه مولانا السلطانُ محمد نصره الله تعالى ، وسأله عن اليازجي فقال : يا مولانا السلطان ! أما اليازجي فإنه أقسم عليّ بأنني إذا وقفت في أعتابكم أقول يا مولانا يطلب أن يُعْطى منصباً في ولاية الروم ، ويتكفّلُ بجهاد الكافرين على ما يحب ويروم ، ويسلك بعد ذلك طريق الطاعة ، بحسب الاستطاعة . ويعطى أخوه حسن صنجق جروم في بلاد سيواس . هذا ما قاله لي وحلّفني يميناً مغلّظة على أن أقوله في الأعتاب العليّة . وأمّا ما أعلمه أنا من أحواله فإنه خائن أول النهار وآخره ، وأنه ما يقصد بما ذكره من الطلب إلاّ أن يرفع عنه السردار ، ويعود إلى العصيان بهاتيك الديار .

فعند ذلك صَدّقَ مولانا السلطان كلامه ، وبلّغ السردارَ من الإكرام مرامَه ، وأرسل إليه من خواصه المقربين رجلاً يقال له قيطاس كدخدا ، وأرسل معه من جانب السلطنة تجملات واستعمالات ورسالة بخط يد السلطان وهذا من أعظم أنواع الإكرام ، في اصطلاح بني عثمان ، وما هو الآن منتظر خروج الثلج وما يتبع من البرد والطين ، ويهجم على اليازجي بالعساكر المنصورة . والأعلام المنشورة ، والعساكرُ محيطة بالخارجيّ من جميع جوانبه ، إحاطةَ السِّوار بالمِعْصَم ، والجيش بالمغنم ، ولعله لا يفلتُ منهم أبداً بعون الله تعالى هذا .

ولقد كان شيخنا المرحوم العماد الحنفي السمرقندي البايسوني الآتي ذكره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ملازماً للوزير حسن باشا صاحب الترجمة . وقدم معه الى دمشق عند قدومه في المرة الثانية والثالثة . ولما اتّصل الفقيرُ بالمولى عماد الدين (١٣٤ ب) المذكور لزم التعرّفَ بالوزير المذكور فتعرّفنا به ، ورأينا إحسانه . ولقد كنت عند العماد المذكور في حجرته بدارِ الإمارة بدمشق ليلاً ، وكان في صحبتنا الحسين الحافظ والحسين المذهّب الشيرازي الآتي ذكرهما إن شاء الله تعالى . فورد الرسولُ من جانب الوزير المذكور ليلاً للمولى العماد بأنه يحضر الى مجلسه فاعتذر بوجودنا عنده فرجع الرسولُ اليه بأن يحضرَ مع الأصحاب كلّهم فقام وقمنا معه إلى مجلسٍ لا يكونُ الاّ لكبار السلاطين . رأينا به بعضَ أكابرِ الدولة ، ورأينا شموعاً كأنّ كلّ واحــدةٍ منها رمحٌ في رأسه سنان ، ورأينا خَدَماً كأنّ كلّ واحدٍ منهم بدرٌ كاملٌ من غير نقصان ، ورأيناه جالساً في صدر مجلسه منفرداً في فرشة عالية ، فوق مكانٍ قد ارتفع بالدفوف . ورأينا في الموضع مماليكَ حساناً ، يضربون بآلات الطرب : منهم جنكيّ ، ومنهم عوديّ ، ومنهم مَنْ يضرب بالقَصَب ، ومنهم

واحدٌ يضرب على زبادي الصين ضرباً موافقاً لحركات بقية الآلات ، ولم نَرَ في مجلسه من الأواني إلاّ الذهب والفضـــة . الى أن جاءت الأشربةُ السُكّريّة في أواني الذهب والفضة ، وجاؤا بصينيّة من الذهب كبيرة أخبرني مَنْ أثقُ به أنّها من عشرة آلاف دينـــار ذهباً ووضعوها في وسط المجلس أمامه . فأكل من الحلويّات ، وشرب من المشروبات ، ولم يتقدّم أحدٌ من الجماعة ليأكل معه . وإنمـا هو كان يرسلُ من الأشربة للجالسين فيتناولون من غيرِ قيامِ أحدٍ من مجلسه . ولما انقضى مجلسُ المشروبات السكريّه جاء رجلٌ شيخٌ أسمرُ اللون ، أبيضُ اللحية يقال له ملاّصوتي ، ووضعوا له كرسيّاً صغيراً جلس فوقه ، وفي يده كتابٌ من نظم الفرس يتعلّق بأحوال السلاطين الماضية ويذكر قصصهم وما يتعلق بوقائعهم . فكان يقرأ النظمَ المذكورَ بصوتٍ حسن ، ويُفَسِّرُ معناه بالتركيّة . ولعمري إنّ هذا الرجل من محاسن الدنيا . ولما أتمّ الرجلُ المذكور قراءته قام ، ورفعوا الكرسي . فكان كُلُّ أحدٍ يقومُ ويُسلّمُ ويخرجُ من المجلس وقام المولى العمادُ وقمنا معه بعد مصاحبةٍ يسيرة صدرتْ مع الوزير المذكور . فإنّه سألَ الفقير عن حاله ، واستفسر عن مجمل أحواله ، وأحسن (١٣٥ آ) إلينـــا في اليوم الثاني على يد العماد بإحسانٍ وافر .

ولما صار سردار العساكر لحرب الخارجي اليازجي كما شرحناه أردتُ أن أكتبَ له مكتوباً ، ثم عدلتُ وقلت لعله نسيني ، فإنّ متعلقاته كثيرة ، وأحوا له تُنسي الرجل نفسه ، لاشتغاله بأحوال العساكر المنصورة . فكان على خلاف ما ظننت ، فإنه أرسل لي مكتوباً مع العسكر الشامي عند رجوعه إلى دمشق ، وذكّر في المكتوب المذكور باجتماعنا به في دمشق ، وطلب الدعاء منا ومن المجاورين بدمشق من العلماء والصلحاء .

وكتب في موضع الاسم : الفقير حسن سر عسكر . وسر عسكر معناه رأس العساكر . وها هو الآن مقيم في مقابلة الموضع الذي استقرّ به اليازجي ، وعازمٌ على أن يصدمه بالعساكر المظفرة في ابتداءِ الربيع . أسألُ الله تعالى أن يؤيّده وينصره ، وينجده ويظفره بعونه وعنايته ، ولطفه وحمايته ، إنه أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، والحمد لله ربّ العالمين .

ثم إنّه قد ثبتَ عندنا بدمشق أنّ حسن باشا المذكور صاحب هذه الترجمة قُتِلَ في قلعة توقات بضرب البنادق في أوائل سنة إحدى عشرة بعد الألف . واختلفوا في قاتله . فقيل إنّ السلطانَ أرسل إليه مَنْ قتله فما تيسر إلا بالبندق ، وقيل إنّ حسن بك أخا اليازجي رَصَدَه وقتله بها والله تعالى أعلم .

١٠٧

السيد حسن المجذوب المكاشف
القاطن بالسفح من جبل قاسيون (١)

قد صار يوم الاثنين رابع عشر صفر سنة ثمان عشرة وألف غريبةٌ وهي أنّ الزمان كان ربيعاً بل لم يبق ذلك الأوان من فصل الربيع الا القليل . فجاء بعد العصر من اليوم المذكور رعدٌ وظلمةٌ في الوجود ، وتبع ذلك مطرٌ عظيم وبَرَدٌ كبير ودام ذلك حتى وقت الغروب . فأمّا دمشق فإنّ الماءَ زاد فيها ، وسال السيلُ في كلّ زُقاقٍ حتى قطع الطريق ، لكنه لم يؤذِ في نفس المدينة . وأما الصالحية فانه فعل فيها ما لم نسمعه قبلها . وذلك أنه نزل من الجبل ثلاثة أنهر ، فكلّ نهرٍ مرّ من ناحية ، فهلك من ذلك أكثرُ من مئةَ نفس ما بين رجلٍ وامرأة وصبيٍ وصبيّة ، وخرّبتْ بيوتاً كثيرة ، وأتلفت أرزاقاً جليلة ، ومن جملة من مات (١٣٥ ب) تحت ردم السيل المذكور صاحب هذه الترجمة ، وصورةُ ذلك أنّ السيد المذكور كان من بلاد نابلس ، وقيل إنه من قرية زيتا . فقدم الى دمشق وجاور بالجامع الأموي عند رواق اليانية ، وكان يكثر الكلام في الجامع بالصوت العالي ، ثم إنه خرج من الجامع الأموي وجلس في جامع يلبغا ، وجعله مقرّ جلوسه ، فاتفق أن رجلاً مولوياً قتلَ هرّةً في الجامع المذكور ، ثم نام . فقام اليه السيد حسن المذكور وألقى فوق رأسه صخرةً عظيمةً فقتله ، فأخذوه الى الحاكم ، فرآه غير

---

(١) هذه الترجمة ساقطة من هـ .

منتظم الكلام ، فقال : هذا ليس له عقلٌ فلا يكون مكلّفاً وأطلقه . فراح من مجلس القاضي الى بستانٍ من بساتين النيرب ، وجلس فيه مجاوراً له نحو خمس سنين لا يُفارق البستان في الفصول الأربعة ، حتى إنّ الثلج كان ينزل عليه يطمه ويعمه وهو جالسٌ لا يبرح . فبعد ذلك حضرَ من الروم رجلٌ من الجند يقال له حُسين فجاور في مغارةٍ في جبل قاسيون ، واجتمع بالسيد حسن المذكور فجذبه الى الصالحية ، وجاورا في المغارة الكائنة في باب الريح في جبل قاسيون ، وتردّد الناسُ اليهما كثيراً . وكان حسن مجذوباً يتكلّم بالكلام الكثير عند زيارة الزائر فيأخذ كلُّ أحد من كلامه حصةً لنفسه تناسب مقصدَه . فاشتهر بالمكاشفة . ووقع أهل دمشق عليه لا سيما النساء ، فإنهنّ كنّ يترددن إليه تردداً كثيرا . وقد كان يجتمع عنده منهن في الوقت الواحد ما يزيد على مئة امرأة ، وكان على ما قيل يقبّلهنّ ، هكذا نقلَ لي بعضُ مَنْ شاهده . وكان حسين الرومي عاقلاً يعرف الكلامَ ويفهم المرام . وكان من العجايب في كونه قيّد السيد حسن المذكور في مكان واحد ، وكان يُطعمه ويسقيه وينوّمه ويُغطّيه ، والحال أن السيّد المذكور كان مجذوباً مستغرقاً . والحاصل أنهما استمرّا في المغارة مدةً ، ثم إن حسيناً تزوّج بامرأةٍ من نساء الصالحية ، ونزلا من المغارة الى بيتِ المرأة المذكورة . وكان بيتُها في الجبل ، وكان الناسُ أيضاً يقصدونه في بيت المرأة المذكورة ويزورونه ويهدون إليه الهدايا الجليلة وكان حسين يطبخ الطعام ويطعم السيدَ حسناً .

والحاصل أنه كان لحسن بمنزلة الشجرة المثمرة كلّما هزّها ينزل ثمرها ، (١٣٦ آ) واستمرا على ذلك كذلك سنين عديدة ، إلى أن نزل السيلُ المذكور ، فجاء حسين الى السيد حسن وقال له : قم من هذا البيت فإن السيل قد هجم علينا ونخافُ منه . فلم يلتفت السيد الى كلامه ، ولا نظر الى تحقيق مرامه ، فقال له حسين : وحيثُ لم تذهب أنتَ

فأنا معك ، لا أفارقك لحظة واحدة . فجلس ، فجاء السيل فمات منه الحسن والحسين .

فأما السيد حسن فإنّ البيت الذي كان فيه وقع عليه فقتله . وأما الشيخ حسين فإنّ الماء طغى على المكان الذي هو فيه فغرقه وخنقه ، ووجدوه مستنداً إلى مدخنة كانت هناك ويده الشمال على فمه وأنفه ، ووجدوا إصبعه السبّابة قائمةً إشارة الى أنه شهد لله بالوحدانيـــة عند فراغ أجله .

وطلع الناس من مدينة دمشق وحضروا جنازة الرجلين المذكورين .

وكان في دمشق رجل مصريّ يوصف بالصلاح ، فطلع يوماً إلى قاسيون وقصد زيارةَ الرجلين المذكورين ، فرأى السيد المذكور على ما نقله وتقلده المصري يقبّل بعض النساء . فنزل المصريُّ الى دمشق وحمل سيفاً له وطلع الى الجبل ، فلما قرب الى السيد حسن المذكور بادر إلى ضربه بالسيف . فضربه نحو أربع ضربات غالبُها في عنقه وفي كتفه . وحال الناس بينه وبينه . فقام السيد حسن والدمُ يقطرُ من جميع جهاته . وكان يقولُ : ما أكثرَ هذا الدم ! من أين ينزل هذا الدم ؟ وكان يسكب الماء على جروحه والدمُ يفيض . فلم يزلْ على ذلك الى أن أحضروا له رجـــلاً يداويه ، فداواه وصحّ جسده ولم تبق به علّة أبداً بعون الله تعالى ، وكان ذلك دليلاً على كال ولايته .

وأمّا المصري الذي ضربه فإنه حُبس في البيمارستان ، فلما صحّ السيدُ أُطلق المصريُّ وذهب لشأنه ، وكان المصري يقول : أنا ما عملتُ ما عملتُه إلاّ بإجازة رجال الوادي ، وكان المصريُّ كثيراً ما يشتغل بالأوراد وقراءة القرآن ، وصار موتهما في يوم الاثنين المذكور ، رحمهما الله تعالى آمين والحمد لله رب العالمين .

١٠٨

الحسين الحافظ التبريزي

الشهير بابن الكربلائي نزيل دمشق

ورد المذكور الى دمشق في حدود سنة ثمان وثمانين وتسع مئة حاجّاً (١٣٦ ب) ، فمكث بدمشق نحو شهرين في الذهاب والإياب ، فمال قلبُه إليها ، ورآني بالجامع الأموي جالساً أُملي بعضَ دروسٍ فقهيّة وغيرِ فقهية ، فجلس عندي ، وسألني عن بعض مسائلَ تتعلّق بالحج وبالزكاة ، وبغير ذلك . ثم قضى مناسكَ حجّه ورجع الى تبريز . ولم يكن همّه عند الرجوع إلاّ أن يتهيّأ للارتحال الى دمشق ليسكن بها لِما رأى من محاسنها . وقدم الى دمشق وقطن بمحلة القيمرية ، عند المرحوم ملا آغا الآتي ذكره ان شاء الله تعالى ، فأعطاه المذكورُ حجرةً في بيته بالمحلة المذكورة ، ومكث بها نازلاً بها ، مُلقياً عصا الإقامة ، فبعد مدّةٍ وردتْ إليه زوجتُه من تبريز مع ولده الصغير أحمـــد ، وبعد مدة ورد إليه ولدُه الكبير محمد . فمكث مع أولاده وزوجته بدمشق ، وحصل بعض علوفات من مال السلطنة . فمات ولدُه أحمد أوّلاً ، ثم مات هو بعده في شعبان من سنة سبع وتسعين وتسع مئة ، ثم تبعه ولدُه الكبير محمد . ودفنوا في مرج الدحداح تحت الجوزة التي هي على باب مرقد شيخ الاسلام أبي شامة رضي الله عنه ، عند ابتداء الدخول الى التربة المذكورة ، وقبورهم ثلاثة بحجرة مُسطّحة على صفٍّ واحد : الوالدُ في الوسط ، وولده الكبير

محمد شماليه ، وولده الصغير أحمد قبليه ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأمطر على قبره سحائب رحمته الهامعة .

كان في مدّة إقامته بدمشق ملازماً على الكتابة وتحصيل الكمال ، وكان صاحبي وصديقي ، وأنيسي ورفيقي ، وكان له من أوصاف الكمال ما لا يُحصى ، ومن الألطاف بأصحابه ما لا يُستقصى ، كما قلتُ فيه :

محاسنُ مولانا الحسين كثيرةٌ ... يُقصّر عنها وصفُ كُلِّ مقالِ

ففي الشّعر ما وزنُ الهلاليِّ وزنُهُ ... وفي الخطّ قد أربى على ابنِ هلالِ

وكنت كتبتُ اليه قبل هذين البيتين بيتين آخرين وهما قولي :

لي حزنُ قلبٍ لم يزل ساكناً ... ودمعُ عينٍ لم يزل جاريا

مُذْ أصبح الواصلُ لي قاطعاً ... وأصبح الحافظُ لي ناسيا

ولقد كنتُ أليفْتُ هذا الرجلَ الى أن كنتُ أزورُه فأمكث عنده في حجرته ثلاثة أيام بلياليها ، ليلاً ونهاراً ، على المذاكرة والمحاضرة . ومنه تعلمتُ لسانَ الفارسية (١٢٧ آ) وكنتُ أعرفه قبل صحبته في الجملة ، لكن ما استكملتُ تعلمه إلاّ منه ، وكان يعرف تاريخ الدنيا لا سيما ملوك العجم ، وما يتعلق ببلاد العراقَيْن وأذرْبَيْجان وفارس وخراسان . وكان لذيذ المصاحبة الى الغاية ، رقيقَ المحاضرة الى النهاية ، يحكي كلّ حكاية سمراً ، وكان ينظمُ الشعر بالفارسية ، وكان مخلصه على قاعدتهم لفظة « خادم » . وكان يروم النظم بالعربية فلا يحسنه كما ينبغي ، وكان خطه عجباً عجاباً على قاعدة الكاتب المشهور علا بك التبريزي ، وكتبتُ على قاعدته . وكان رحمه الله تعالى محباً لي مُشفقاً عليّ مجتهداً في نشر ذكري بين الخاص والعام ، وكان دائمًا ينوّهُ باسمي

عند الحكام ، وكان قبل حضوره الى دمشق في تبريز معدوداً من حفاظ القرآن العظيم . وكانتْ خدمةُ المزار المشهور بابا فرج التبريزي له ولوالده من قبله ، وكان في أيام إقامته بتبريز ملازماً على خدمة المرحوم الوليّ العارف الكامل شاه مجتبى الشريف الحسيني ، من سادات (لاله) ، واشتهر بخدمتهم حتى صار معدوداً منهم ، وكانوا مشهورين بمذهب أهل السنّة في الجماعه . فنفاهم طهماسب إلى إصفهان نكايةً بهم وإبعاداً لهم عن حدود بلاد سلاطين الروم ، لأنه كان يخشى منهم أن يراسلوهم ، لما هناك من الاتفاق على مذهب أهل السنة والجماعة . واستوطن دمشق عند قدومه إليها ولم يبرح منها . واستحسنها جداً ، حتى إنه كان يقولُ لي : رأيتُ الأرض كلّها إلا قليلاً ، فما رأيت أحسن من دمشق

توفي الى رحمة الله تعالى بدمشق المحروسة أواخر سنة سبع وتسعين وتسع مئة ، وقرأ عليّ الأربعين النواويّة ، ومناجاة موسى عليه الصلاة والسلام ، وحصةً من الغاية القصوى في الفقه للإمام البيضاوي رضي الله عنهم . ولقد مدحني بشعرٍ فارسيّ من نظمه . من جملة ذلك قصيدة مطلعُها[1] :

بِكُشَا قُفْلِ دَر مَخْزَن مَعْنیٰ وَبِبِينْ
هَمِكَي كَوْهَرِ رَخْشانْ هَمِكَي دُرِّ ثَمينْ[2]

الى أن يقول منها وأجاد :

خادِمَا تَرْكِ دُو عَالَمْ كُنُ وبايارْ بِسَازْ
بِكُزِينْ اَزْ دُو جَهَانْ صُحْبَتِ آنْ يارِ كُزِينْ[3]

---

(١) الأبيات الفارسية التي ستأتي كانت مصحفة محرفة في الأصل . أعاننا الأستاذ برويز أتابكي على ضبطها وترجمتها .

(٢) معناه : افتح قفل باب مخزن المعنى وانظر ، فكله جوهر لامع وكله در ثمين .

(٣) معناه : أيها الخادم اترك العالَمَيْن (بفتح اللام) واختلط بالحبيب ، واختر من الكونين مصاحبة ذلك الصديق المختار .

كِيسْتْ آنْ يَارِ گُزِينْ شَيْخْ حَسَنْ آنِكه ازُو
مُتَيَقِّنْ شُدِه هَرْ عِلْمْ چُو آياتِ مُبِينْ (١)

وقد (١٣٧ ب) مدحتُه بقصيدة نونية مطلعها :

لا مُتِّعَتْ مُقلتي يوماً بإنسانِ   إنْ كانَ هذا التنائي عنكَ أنْسَاني
ولا بَلَغْتُ الذي أرجوه مِنْ أملٍ   إن كانَ لَهْوي بشيْءٍ عنك ألهاني

ومن جملة هذه القصيدة قولي :

قد كنتُ أنفضُ ذَيْلي من غبارِكمُ   واليومَ أجعلُه كُحْلاً لأجفاني

وهي قصيدة طويلة .

وكتب إليَّ يوماً دوبيت بالفارسيّة ، وهو قوله :

ازْ پِيرِ خِرَدْ سُؤالَمْ اينْ بُودو بِمَنْ
اوُ كُفْتْ جَوابْ را بِوَجْهِ احْسَنْ
كُفْتَمْ كِهْ بِدَهْرْ كيسْتْ دَرْ عِلْمْ عَلَمْ
كُفْتَاكِه بُوَدْ شَيْخْ حَسَنْ شَيْخْ حَسَنْ (٢)

---

(١) معناه : من هو ذاك الحبيب المختار ؟ هو الشيخ حسن الذي صار كل علم متيقناً بسبب وجوده ، كآيات المبين .

(٢) معنى هذا الرباعي ما يلي :
سألت سؤالاً من الشيخ ذي العقل ، وهو أجابني عن هذا السؤال بأحسن وجه .
سألتُ : من هو في العالم عَلَمٌ في العلم ؟ فقال : هو الشيخ حسن ، هو الشيخ حسن .

وله أيضاً قصيدةٌ أخرى كتبها اليّ مطلعهـــا :

حَسَنْ حَسَنْ بُوَد وغَيْرِ أو حَسَنْ نبُوَدْ

مُحِبٌّ خَادِمِ او هيچْكَسْ چُو مَنْ نَبُوَدْ (١)

الى آخرها .

وحاصلُ الأمر أنه كان من محاسن الدنيا مصاحبةً ولطفاً ومحبّة وتاريخاً ونظماً وفضيلة وديناً . وجدتُ من صحبته خيراً كثيراً ، رحمه الله رحمةً واسعة ، وأمطر عليه من سحايب رحمته الهامعة . آمين .

---

(١) معناه : إن الحسن حسن ، وليس سواه بالحسن
وليس أحد مثلي محبّه وخادمـــه

١٠٩

الملا حسين بن قنبر

الشيرازي المذهب الشاعر

مخلصه « سالك » على طريقة شعر الفرس ورد الى دمشق وتوفي بهـا أيضاً في حدود سنة ست وتسعين وتسع مئة . وكان شاعراً باهراً في شعره . وكان في صناعة التذهيب في غاية التهذيب ، بحيث انه كان يُضرَب المثلُ بتذهيبه . وكان رحمه الله في غاية السلوك ، وفي نهاية التواضع ، بحيث انه كان فقير المشرب ، لا يرى نفسه شيئاً ، ولا يرى لها شيئاً . وكان يصرّحُ بذلك في شعره . وكان رحمه الله تعالى كريم الطبع الى الغاية ، بحيث انه كان لا يدّخر من المال شيئاً . كان أول بدايته بمدينة شيراز من أرض فارس ، ثم طافَ البلادَ ، وجاب الأقطار ، فورد كاشان واجتمع بمن فيها من أصحاب الطبع مثل وحشي ، ومحتشم ، وهما من مشاهير الشعراء . وكان يحكي عنهما وقائع عظيمة ، ومحافل جسيمة . قال لي لما رأيتُه بدمشق : كان وحشي غايةً في تحصيل المعاني العجيبة ، وكان محتشم غاية في تحصيل الألفاظ السلسة القريبه (١٢٨ آ) فكان يتلفق من بينهما شاعرٌ لا نظير له يكون جامعاً لألفاظ محتشم ومعاني وحشي .

وأنشدني من شعر وحشي هذا المطلع وهو قوله :

دُعَا هاي سَحَرْ كُوِيَنْدْ مِيدَارَدْ اَثَرْ آرى
اَثَرْ مِيدَارَدْ اَمّا كَيْ شَبِ عَاشِقْ سَحَرْ دارَدْ(١)

وقد ترجمت معنى هذا البيت بالعربية فقلت :

يقولونَ في الصبحِ الدعاءُ مؤثّرٌ   فقلتُ نعم لو كان ليلي له صبحُ

ولما رأيتُ هذا البيت حسناً في المعنى والتركيب أكملتُ عليه أربعة أبيات أخرى فقلت بعده :

فياعجباً مني أروم لقـــاءهُ   وفي جفنه سيفٌ ومن قده رُمحُ
وإنسانُ عيني كيف ينجو وقد غدا   يطولُ له في لُجِّ مَدْمَعِهِ سَبْحُ
وإن كان ليلُ البعد يسودّ فحمُه   ففي مُهجتي نارٌ ومن نَفَسي قَدْحُ
وليس عجيباً أنّ دمعيَ أحمرٌ   وفي باطني جرحٌ ومن مقلتي رَشْحُ

قلتُ : وقد اتفق في دمشق طاعونٌ في حدود السنة التي مات بها ، فمات له ابن أخ ، ومملوكان ، وجارية . ولم يبق له أحدٌ . فقال لأصحابه ، ومن جملتهم الفقير : قد ذهب كلٌّ واحدٍ في نوبته ، وبقيت نوبتي . فسلّيناه في الجملة . فنظم غزلاً بالفارسية يتعلّق بموته وما يتعلّق به . فمات بعد نظمه لهذا الغـزَل بأربعة أيام أو خمسة . وهذا من غريب الاتفاق . والغـزَلُ المذكور هو قوله :

---

(١) معناه : يقولون إن لأدعية السحر تأثيراً . نعم لها تأثير ، ولكن هل لليل العاشق من سحر ؟

رُوزِي كِه مَا بِرَاهِ طَلَبْ رُونِهَادَه اِيمْ
اَوّلْ وُجُودِ خويشْ بِيكْ سُونَهَادَهْ اِيمْ (١)

اِسْتَادَه اِيمْ مُنْتَظِرُ ونَقْدِ جَانْ بِكَفْ
اَزْ بَهْرِ يكْ كِرِشْمِئه اَبْرُو نَهَادَه اِيمْ (٢)

بَرْكَرْدَه اِيم سَرزِ كِرِيبانِ نِيسْتي
آنْكَاهْ پَايْ بَرْسَرِ آنْ كُو نَهَادَه اِيمْ (٣)

سَرْ هَمْچُو شَانِه دَرْسَرِ آنْ زُلْفْ كَرْدِه اِيمْ
دِلْ هَمْچو عُقْدِه دَرْخَمِ آنْ مُونهادِه ايمْ (٤)

پِيشَاني اَزْ خِيَالِ تُو هَرْشَامْ تَا سَحَرْ
آيِينِه وَارْ بَرْ سَر زَانُو نَهَـــادِه اِيمْ (٥)

---

(١) معناه : في اليوم الذي توجهنا فيه نحو طريق الطلب ، وضعنا أولاً وجودنا جانباً .
(٢) معناه : وقفنا منتظرين وقدمنـــا حياتنا في كفنا عارطين ، لأجل اشارة من حاجب (المحبوب) .
(٣) معناه : أخرجنا الرأس من جيب العدم ، ثم وضعنا القدم على ذلك الطريق (الى العدم) .
(٤) معناه : أدخلنا رأسنا كالمشط في تلك الخصلة من الشعر ، ووضعنا فؤادنا مثل عقدة في تجعيد ذلك الشعر .
(٥) معناه : وفي كل ليلة ، وضعنا جبيننا ، من أولها الى السحر ، على ركبتنا ، كمرآة ، لنرى خيالك .

پَرْوَانِه وَشْ رَوِيمْ دَرْ آتِشْ زِمِهرِ دوُست
دَرْ عِشْقْ رَسْم وعَادَتِ هِنْدو نَهَادَه ايمْ [(١)]

اُفْتادِكَيْ و جَوزْكشِي پيْشِه كَرْدِه ايمْ
قُوَّتْ زِپَنْجِه زُورْ زِبَازو نَهَادِهْ ايمْ [(٢)]

عَقْلِ سَبُكْ عيارْچِه سَنْجَدْ بِنَقْدِ عِشْقْ
صَدْ بارْ هَرْدُرا بِتَرازُو نَهَادِه ايمْ [(٣)]

سالِكْ بِسِحْرْ كِلْكِ تو شُدْ دَرْ جَهان عَلَمْ
نامَشْ نَهْ بيمُلاحِظَه جادُو نَهَادَه ايمْ [(٤)]

قلتُ : ومن كان عارفاً باللغة الفارسية ومعاني شعرها علم دلالةَ هذه الأبيات على قرب رحيله من هذه الدنيا ، فتأملها واعلم ما فيهـا ، من قوادمها الى خوافيها .

قلتُ : وله نظمٌ يُسمى عند الفرس شاه نامه ، وأسلوبه على أسلوب الرَّجَز في العربية ، لأنّ كلّ بيت بقافيتين ، ولذلك يسمّونه المثنوي .

---

(١) معناه : ندخل في النار كالفراشة لحب الحبيب ، وضعنا في العشق رسم الهنود وعاداتهم .

(٢) معناه : لقد اخترنا لأنفسنا التواضع وتحمل الضيم ، تخلينا عن القوة في أكفنا ، وعن العزم في سواعدنا .

(٣) ماذا يوزن من العشق بواسطة العقل الخفيف العيار ، مئة مرّة وضعناهما ، كليهما ، في الميزان (ولم نستفد) .

(٤) معناه : ياسالك ، لقد صار قلمك عَلَماً في العالم بالسحر (المبين) وكذلك نسميه السحر .

وهو في غزوات تتعلق بأمراء سلاطين بني عثمان في قتالهم لسلاطين العجم أرباب البدع القبيحة . ولكنّ الكتابَ باسم الوزير السردار ، هو حسن باشا ابن الوزير الأعظم محمد باشا السابق ذكره في هذا الكتاب . وحاصل ما في الكتاب المذكور حكايةُ الوقعات بألفاظ حسنة ، ومعانٍ مستحسنة ، وعادةُ من ينظم في مثل هذا الأسلوب أنه كلما ذكر موتَ أحدٍ من سلاطينهم أو من شجعانهم المذكورين يذكر عقب ذكر ذلك فصلاً يتعلّقُ بذمّ الدنيا وعدم وفائها ، ويذكرُ في ذلك بعض مَنْ مضى من الملوك السالفين إلى أن يذكر في آخر المبحث بيتين يتعلّقان بطلبه السُّقيا من الساقي الصهباء ويقول له : قد كدّر وجودي ما كنتُ فيه من المباحث التي يصدأُ لها سيفُ الفهم ، فأزِلْ ذلك الكدَر بسقيا بعض أقداحٍ من الصهباء .

وقد ذكرتني قطعة من نظم الحسين المذكور فيما يتعلّق بالأسلوب المسطور ، وفي آخرها طلب السقيا كما ذكرنا . وهي قوله :

چنين آست رَسْمِ سَرَايِ دُو دَر
كِهْ هَرْ لَحْظَه باشَدْ بوضعِ دِگَرْ[1]

بخَاكْ أفْكَنَدْ اَزْ سَرِ اِيْن كُلاهْ
سَرِ آنْ دِگَرْ بَرْ فَرَازَدْ بماهْ[2]

---

(١) معناه : هكذا حال هذه السراي (يعني الدنيا) ، لها بابان ، تتغير كل لحظة من صورة الى صورة .

(٢) معناه : تأخذ من هذا قبعته فتلقي بها الى الأرض ، وترفع ذاك حتى يلامس رأسه القمر .

أزِينْ وَرْطِه سالِكْ كِناري بِكير
زِ اوْضاع دَهْرْ اعتباري بِكِير [١]

چرا بَهْرِ كَارِ جهـــان غَمْ خُوِيمْ
بيا تا مِيْ ازْ سَاغَرِ جَمْ خُوريم [٢]

بِدِهْ ساقي آنْ راحِ دْيرِينه را
كِهْ شُويَمْ زِ فِكْرِ جَهَانْ سِينَه را [٣]

دَماغ و دِلْ ازْ ذَوْقِ آنْ خُوشْ كُنَمْ
زِ غَمْهاي كيتي فَرامُشْ كُنَمْ [٤]

قلت وقد مات رحمه الله تعالى في أواخر سنة ستٍ وتسعين أو في أوائل سنة سبع وتسعين وتسع مئة ، وأوصى الى أصحابه وأحبابه أن يدفن بمرج (١٣٩ آ) الدحداح تحت شجرة العنّاب الكائنة في الطريق ، على يمين الذاهب الى جهة الماء الجاري ، بالقرب من مدفن الدحداح . فأنفذوا وصيته ، ودفنوه تحت الشجرة المذكورة . وقبره مُسطّح مُحجّر رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه انه أرحم الراحمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) معناه : فياسالك اجتنب واحترز من هذه الورطة، وخذ عبرة من أحوال الدهر والزمان.
(٢) معناه : لماذا نهتمّ لأجل مصالح الدنيا وأغراضها . تعال حتى نشرب الخمر من كأس جم .
(٣) معناه : تعال اسقني يا ساقي من تلك الراح العتيقة ، حتى أغسل صدري من هموم الدهر .
(٤) معناه : فأفرّح قلبي ودماغي بشربها ، وأنسى هموم الدنيا بأكلها .

١١٠

الشيخ حسين بن القاسم المغربي العتيقي

المنسوب الى وادي درْعة بفتح الدال المهملة وسكون الراء بعدها عين مهملة.

قال لي : إنّ الوادي المذكور من توابع مدينة مراكش .

ورد الى مدينة دمشق في أواخر صفر سنة خمس بعد الألف ، أحسن الله ختامها ، فزارني في منزلي بالمدينة المذكورة ، وتردّد اليّ مراراً في مدرستي الناصرية الجوّانية ، بدمشق المحمية ، وكان ذا فضلٍ ظاهر ، وذكاءٍ باهر ، وأخبرني أنّ سبب خروجه من بلاده زيارة بيت الله الحرام ، وتقبيل عتبَة سيّد المرسلين عليه من الله الصلاةُ والسلام ، فطافَ الأقطار ، وجابَ الديار ، الى أن ورد الى دمشق في التاريخ المذكور ، وزار بيت الله المقدّس ، وخرج منه الى مصر . وسمعتُ من بعض الواردين أنّه رجع الى بلاده .

ولما كان بدمشق سألتُه عن المرحوم السلطان أحمد الملقب بمولاي أحمد المنصُور فقال لي : اجتمعتُ به في مقرّ سلطنـــة مراكش المحروسة ، وسمعتُ من لفظه كثيراً من نظمه .

قال : فمن جملة ما أنشدنيه لنفسه هذه الأبيات السلطانية وهي :

لا ولحظٍ سَلَبَ السيفَ المَضَا ... وثنايا مثـــلِ دُرٍّ أو بَرَدْ

ما هلالُ الأُفقِ إلاّ حاسدٌ ... لعُلاها وبَهَاها والغَيَـــدْ

فلذا أمسىٰ ضئيلاً ناحـــلاً ... كيف لا يضنىٰ نحولاً مَنْ حَسَدْ

وأنشدني أيضاً للسلطان المذكور هذا النظم الذي يفوق على قلائد النحور :

من عَنْبَرِ الشحْرِ أومن مِسْكِ دارينِ بلى ، وسنه نسيماتُ الرياحين

مُهَفْهَفٌ إِنْ تَثَنّى قلتُ مُقْتَضَبٌ من قُضْبِ نُعْمان أو كثبان يبرين

اذا تَبَسَّمَ خِلْتَ الدُرَّ منتظماً تحت العقيقِ وورداً فوق نسْرين

وإِنْ رَنا فسهامٌ من لواحظه لها بشِقّ قلوبٍ أيّ تمكين

(١٣٩ ب) قلتُ : وأخبرني الشيخ حسين المذكور أنه ولي القضاءَ في بعض نواحي مرّاكش، من جانب الملك المنصور المذكور، وعاد اليه والله أعلم ٠

١١١

الحسين بن عبد النبي الشعّال بجامع بني أميّة

كان رجلٌ روميٌّ قدم إلى دمشق فأحدثَ له بعضُ قضاةِ الشام إمامةً بجامع بني أمية . فكان يقرأ الفاتحة ويقولُ : ولا الضالّيْن بفتح اللام على صيغة التثنية . وكان أيضاً يقولُ : غـير المغضَوْب بفتح الضاد وسكون الواو . وأنكر عليه الناسُ ففرغ لحسين هذا عن وظيفة الإمامة المذكورة .

وحسين المذكور نشأ بالجامع الأمويّ لكون والده نشأ شعّالاً به ، وبيده خدمة مزارِ حضرة يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام . فقرأ حسين القرآن بالقراءات المختلفة ، وقراءاتُه جيدةٌ وصوتُه لا بأس به ، غير أنه مع حداثة سنه يلبس عمامةً توازن قبّة جيرون كبراً ويتصنّعُ في مشيته ، ويتنطّعُ في كلامه ملتزماً في قراءته المدود الطويلة ، وفي كلامه القواعد النحويّة ، على مقدار معرفته فاتفق أنّ قاضياً ورد الى دمشق وهو يعرفُ شعر اللسان العربي وشاع ذلك عنه ، فمدحه مَنْ يعرفُ الشعر العربيّ بدمشق . فاتفق أن مَنْ لا يُشْعِرُ بالشعر تَصَنّع وتكلّفَ نظم الشعر ، وإن لم يكن عارفاً به ، وصدر في ذلك عجائبُ وغرائبُ . فمن جملة مَنْ نَظَمَ في مدح القاضي الإمامُ حسين المذكور وأحببتُ

إثباتها هنا لكونها عجيبة لم أسمع بمثلها ، ولا نهج أحد على أسلوبها . وهي قوله ، ومن خطّه نقلتُ : (١)

مُحَمَّدٌ قِرْمُ حَشْدٍ مُحَدَّثٌ خَدِلٌ خُبْرٌ
مُطَهَّرٌ حِدْثٌ خِدْنٌ مُصَدَّرُ الحكمِ مِسْبَارٌ (٢)

* * *

سِطَاعُ سَعْدِكَ سَلْعٌ سِمَاكُ سَمْحِكَ سَرْحٌ
سُكَاتُ سِرِّكَ سَهْمٌ سِمَاطُ سَجْلِكَ مِدْرَارٌ (٣)

* * *

(١) للعمري شرح قيّم بنفسه لهذه القصيدة ، سماه « شرح القصيدة القرمحمدية ، أو مزج الصواب بالمجون » . وفيه سخرية وتهكم ، ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية . وقد اعتمدنا على هذا الشرح في ضبط الألفاظ . والشروح اللغوية التي ستأتي مأخوذة منه .

(٢) قال العمري : محمد معروف ، وهو كثير المحامد . والقِرْم ، بكسر القاف وفتحها الفحل والسيد . والحَشْدُ الجماعة من الناس وغيرهم . والمحدَّث بفتح الدال المشدّدة هو الملقى اليه الحق والصواب إلهاماً .. والصادق الظن . والخدل بالخاء المفتوحة الضخم ، والخُبْر برفع الخاء العلم . ومطهّر إن كان مفتوح الهاء فظاهر ، أي أنه كان منجّساً فصار مطهّراً ، وإن كانت الهاء مكسورة معناه مطهِّرُ غيره ، وتكون حدَث مفتوحة العين والفاء ، وعلى المعنى الأول حدث مكسورة الحاء مجزومة الدال ... والخِدْنُ بكسر الخاء وسكون الدال الصديق ، ومصدّر صاحب الصدر في المجلس ، والحكم معروف ومسبار الآلة من الحديد يُسبر بها الجراحة .

(٣) قال العمري : السطاع العامود الحامل لبيت الشعر الذي تسكنه العرب بالبادية .. ، سعد : معلوم وهو نقيض النحس . سلع : جبل بالمدينة المنوّرة . السماك : نجم ، وهو منزلة من منازل القمر . السمح : بفتح السين السماح . السرح : المال المسروح ، والسارح من بقر وغنم ومعز وتيوس ... سكات : يعني سكت أو سكوت ، وحية تلدغ . السر معروف السهم : نصل . سماط معروف . السجل : الدلو الممتليء ماء . مدرار : مبالغة في الدّر .

نِجـــافُ نجدِكَ نجح نِطافُ نَسْلِكَ نَهْر
نِجـــارُ نجحِكَ نور نِقاطُ نجلِكَ مِكْثار [١]

* * *

نِقابُ نَعْتِكَ نُشْر نِحاسُ نَجْرِكَ نقع
نِبالُ نُدْحِكَ نَظْم نِفاسُ نُكْحِكَ مِذْكار [٢]

* * *

شِعابُ شَبْرِكَ شِقْص شِمالُ شَهْمِكَ شَرْخ
شِعارُ شَبْحِكَ شُكْد شِقابُ شَهْدِكَ مِهْمار [٣]

---

(١) قال العمري : نجاف : العتبة للباب . نجد : ما ارتفع من الأرض والطريق . النجح : اسم من النجاح . نطاف : جمع نطفة كنكتة ، ونكات على غير قياس ولا أساس . النسل : ما تناسل من الولد . نهر : معروف .
وليس في المخطوطة شرح لغوي لألفاظ البيت الثاني .

(٢) قال العمري : نِقاب : بكسر النون هو العالم بغامضات الأمور . وجمع نقب أيضاً وهو الطريق في الجبل ونقاب المرأة . والنعت : الوصف . ونشر : بضم النون كريم الأصل في الطبيعة . والنَجْرُ بالفتح الأصل واللون . النقع : الأرض الحرة الطيبة ، والغبار أيضاً . نبال : جمع نبل . النُدح بالضم المتسع من الأرض ، ونظم : نظم اللؤلؤ . نفاس : جمع نفساء . نكح بضم النون ما يُنْكَحْ . المِذْكار : المرأة التي من عادتها أن تلد الذكور .

(٣) قال العمري : شِعاب : جمع شِعب بالكسر . والشبر : بفتح الشين العطية ، ومصدر شَبَرَ اذا قاس شيئاً بشبر . الشقص : بكسر الشين الطائفة من الشيء أي شيء كان . شِمال : بالكسر ، واحد الشمائل من الأخلاق وغيرها . وشمال اليد غير اليمين ، وبفتح الشين ، اسم لبعض الرياح . والشهم : الذكي الفؤاد . والشرخ : أولُ الشباب . والشعار : ما ولي الجسد ولاصقه . والشَبْح : مجزوم المبالغة في الشَبَح المفتوح ، وهو الشخص . والشكد : بالضم العطاء . والشقاب : جمع شقب ، وهو الشق في الجبل والشهد : العسل . ومِهْمار : كثير السَيَلان .

صِدَارُ صَمْدِكَ صرف   صناب صَبْرِكَ صدع
صِراطُ صَدْقِكَ صَتْم   صِحَابُ صَفْقِكَ مِقْدار (١)

* * *

مضاغ مَرْدِكَ مَحْض   مخاضُ معقك مخض
مِلاكُ مُلْكِكَ مِلْك   ملاعُ مَجْرِكَ مِضمار (٢)

* * *

دِثار دِينك دَبْس   دلاص دِبْرِكَ دمخ
دِهاقُ دِبْسِكَ دِبْل   دَبَارُ دَبْرِكَ مِسْعار (٣)

* * *

(١) قال العمري : صدار : بكسر الصاد ما يلي الصدر . الصَّمْد : المكان المرتفع الغليظ . الصرف : التوبة . وحدثان الدهر أيضاً . الصناب : الخردل مع الزبيب . الصبر : معلوم ، وهو حبس النفس عن الشيء . الصدع : الشق في كل شيء . الصراط : معلوم وهو الطريق القويم . الصَّدْق : بالفتح . يُقال : رمح صَدْق ، أي صلب . وصدق النظر . وصتم : بصاد مفتوحة وتاء مثناة من فوق مجزومة ، كحتم وزناً : أي غليظ . وصحاب : جمع صاحب . وصَفْق : بفتح الصاد ، وفاء قبل القاف : الناحية . ومقدار بمعنى القدر .

(٢) قال العمري : المضاغ : ما يمضغ في الفم ، والمرد : بالفتح ثمن الأراك الغضّ منه ، وبالضم : جمع أمرد . ومحض : بالحاء : خالص . ومخاض : الحوامل من النوق . والمعق : القفْر من الأرض . والمخض : اللبن أو الميزان . وملاك الأمر : قوامه . ومُلكك بالضم معلوم . ومِلك : بالكسر : ما ملكت يدك . وملاع ، المفازة المقفرة . والمَجْر : الجيش الكثير ، والثقل أيضاً . ومضمار ظاهر .

(٣) قال العمري : دثار : ما يُلبس فوق القميص . الدين : القهر والعبودية والملة والجزاء والحال والطاعة والعادة . جمع هذه الأشياء يُطلق عليها لفظ الدين . والدبس :—

مِهاد مِزْرِكَ مُثْك   مِلاطُ مرجك مِلْح
مُجاش مَعْمدك مَهْد   مُلاحُ مِصْرِك معشار (١)

☆ ☆ ☆

دَوامُ دَوْلِكَ درس   دبار دبرك دعص
دِوام دُرّك درّ   دلاث دهنك مِعْطار (٢)

☆ ☆ ☆

— بفتح الدال ، الكسر من كل شيء . الدلاص : الدرع اللينة . والدبر : بكسر الدال المال الكثير . والدخ : الجبل . والدهاق : المملوء . والدبس ، بالكسر ، عسل التمر والزبيب أيضاً . والدِئْل : بالكسر والفتح الأرقم العظام . ودبار : بفتح الدال ، الهلاك . ودبر كل شيء مؤخره . ومِسْعار : الشيء تسعر به النار .

(١) قال العمري : المهاد : الفرش . والمزر : بكسر الميم ضرب من الأشربة تصنعه السودان من الأرز ، وتارة من الدخن والشعير أيضاً ، بحسب أوقات البرد والحر . والمثك : بضم الميم الأترج . والملاط : ما يجعل بين سافي البناء ، وهو معلوم . والمرج : المرعى . والملح : معروف . والمجاش : المتاع والأثاث . والمهد : ما يمدّ ويُبْسَط من كل ناعم ليّن . والمهد : معروف ، وهو الذي يتخذ للطفل . ومُلاح : بضم الميم لغة في المليح . ومصرك : معروف . ومعشار : معشّر الجماعة .

(٢) قال العمري : الدوام : هو البقاء والاتصال . والدول : بفتح الدال ، انقلاب الدهر من حال إلى حال . ودرس : ذهاب رسوم الدار ، ودرس الحب ، والوطء بالقدم ، والقراءة . دبار ، بكسر الدال جماعة النحل . الدعص : القطعة من الرمل المستديرة دِوام بكسر الدال مصدر داومت الشيء اذا دمت معه . والدُرّ : معلوم ، وهو الجوهر . والدرّ : بفتح الدال اللبن . والدلاث : الناقة السريعة . والدهن : معروف . ومعطار : كثير العطر . وبهذا البيت ينتهي الشرح في المخطوطة .

جَرَادُ جَزْلِكَ جِدْر جماع جَحْلكَ جَفْل

جِبَارُ جَرْسِكَ جِيْل جرابُ جَلْبِك مِهْدار [١]

قلتُ : وقد كتب الشاعر المشهور ، في آخر شعره المكسور ، بخطه المسطور : ومن محاسنها لزومُ ما لا يلزم » .

ولما أنشدها القاضي المذكور . قال القاضي : أما يوجد هنا رجلٌ يأخذُ هذا المجنون إلى البيمارستان ليكون فيه مع جملة المجانين ، فإن هذا الكلام لا يصدرُ عن عاقل .

وشاعت في دمشق بين الخاص والعام وصاحبُها يظنُّ أنها من محاسن الكلام فسبحان الملك العلاّم .

وكان ذلك النظم الذي لا نظام له في أوائل ذي القعدة من شهور سنة سبع عشرة بعد الألف انتهى . [٢] وهذه القصيدة من قبيل :

مالكم تَكَأْكَأْتُمْ عليّ كتكأكُئِكُم

على ذي جِنّـــة افرنقعوا عني

وقد شرح هذه القصيدة المذكورة صاحبنا الشيخ أبو بكر العمري ، فلا بأس بذكر شرح بعض الأبيات وهو :

---

(١) قال العمري : جَراد : ضرب من الحلي ، والطير المعروف . والجزل : الكثير . والجدر : بكسر الجيم وفتحها الجدار ، والأصل أيضاً والجماع بالفتح : شيء جمعه ، وبالكسر النكاح . والجحل : بتقديم الجيم وفتحها الصفا . والجفل : السحاب المهريق ماءه والجبـار : بالكسر ، جمع جبر ، بمعنى عبد . والجرس : بفتح الجيم ، الصوت . والجيل الصنف من الناس . والجراب : بالكسر ، معروف . والجلب : مصدر جلبتُ الشيء من موضعه . ومهدار : مبالغة في الهدر . وهذا البيت في مخطوطة الشرح مقدّم .

(٢) كل ما سيأتي ساقط من هـ .

« الحمد لله الذي خلق العقل وأودعه مَنْ أحب من هـــذا الحيوان الناطق ، وجعله زينةً للنوع الإنساني وميّز به الصاهل (١) والناهق . وصلى الله على عبدِه ورسولِه سيّدِ العبــادِ وأكرم الخلائق ، أكمل المرسلين سُؤدُداً وفخراً ، وأشرف النبيّين وأعلاهم منزلاً وقَدْراً ، القائل إنّ من الشعر لحكمة ، وإنّ من البيان لسحرا ، وعلى آله أولي المآثر وغيوث الندا ، وأصحابه أهلِ المفاخرِ ونجومِ الهُدى ، صلاةً دائمة متوالية باقية . سامية نامية ، ما جرّ النظمُ على النثر ذَيْلَ فخارِه ، ورفع أنفه شامخاً عليه بافتخاره ، حيث وَصَفه بالحكمة منبع (٢) الأنوار ، ومهبط الأسرار . وسلّم تسليماً .

وبعدُ فإنّه لما تبيّن لنا من قوله ﷺ « ان من الشعر لحكمة » وحَكَمَ بما قضاه لنا (٣) فنفذنا حكمه ، وعلمنا أنّ الشعرَ من أملح الفنون حُسنا ، وأرفعها مرتبةً وأرجحها وَزْنا ، تفاخرت بالبليغ منه فصحاءُ العرب ، وبلغوا ببداية بدائعهم فيه غاية المرام والأرب . وتَبيّن أنّنا فهمنا من تقييد هذا الحديث بمن التبعيضيّة ، أنه ليس كل شعر تكون له (١٤٠ب) مزية (٤) . ولا يبلغ لقصورِه درجةَ الحكمةِ العليّة . وعُلِمَ من ذلك أنّ أهل صناعته فيه على أقسام : فمنهم مَنْ أسفَرَ له عن محاسنه وقابله بالابتسام ، ومنهم مَنْ عبس في وجهه فتولّى ولم يَنَلْ منه غايةَ المرام . ومنهم مَنْ نهج فيه مَنْهَجَ البلاغةِ وتغافل عن الانسجام ، ومنهم مَنْ شرد وتاه في بيدائه على ضامرة بغير لجام . ومنهم مَنْ أخرجه بفلاظة

---

(١) م « الماهل » .

(٢) م « نبع » ، وفي مخطوطة الشرح « صاحب الأنوار » .

(٣) في الشرح « له » .

(٤) في الشرح « تكون له هذه المثابة والمزية » .

طبعه عن الهيئة الحسنة ، وألبسه الثياب الرثّة الخشنة ، فعُدّ ذلك من قبيح النظام . كقول من قال ، وأفحش من المقال (١) . شعر :

أنْتَ كالكَلْبِ في حفَاظِكَ للودّ وكالتيْسِ في قِرَاعِ الخُطوبِ

أنت كالدّلْوِ لا عَدِمْنَاكَ دَلْواً من كبارِ الدلاء كثيرِ الذَنوبِ

فقائلُ هذا الكلام لم يردْ إلاّ المدحَ في وهمه ، ولم يسبق الى غير ذلك طرفُ فهمه . والذي أوقعَ المسكينَ في هذه البليّة ، أنه نشأ في القفارِ وصحارى البرّية ، وشاركَ الوحوشَ في طباعها الرديّة ، فهو معذورٌ بهذا الاعتبار ، ويُعَدّ له ذلك من أكبر الأعذار .

وأمّا مَنْ خالط أهلَ الحضَر في معالمهم ، وسمع رقيق المعاني من فاضلِهم وعالمهم ، فإذا بدت من ألفاظه وحشةٌ أو هُجْنَة أو خطرَتْ على خاطره (٢) كآبة الركالة واللكنة ، نفرت من تنافرها الطبـاع . وشمخت من قبولها القلوب قبل الاستماع . كناظم القرمحشدية ، والسلسلة المهملة الرديّة .

سلسلةٌ صارَ بهـا شهرةً كشهرة البـائل في زمزمِ

أو كما قيل :

ما العقلُ إلاّ زينـةٌ سبحانَ مَنْ أخلاهُ منهُ

قُسِمَتْ على الناسِ العقو لُ وذاك أمرٌ غابَ عنهُ

---

(١) في الشرح « وهو علي بن الجهم يمدح المتوكل على الله » .

(٢) في الشرح « أو ظهرت على نظمه ... » .

وهذه القصيدة المذكورة ، والخزاعات المنشودة ، امتدح بها السيّد الشريف والمولى العفيف ، السيد محمد ابن المرحوم العلاّمة السيد محمد الحسيني المتّصل نسبه الكريم بالسيد برهان الدين صاحب الكرامات الظاهرة ، والمكارم الوافرة الباهرة ، رحم الله سلفه ، وأبقى بوجوه خَلَفَه ، والسيد المنوّه بذكره خليفة الحكم العزيز يومئذ بدمشق الشام ، لازالتْ محميةً إلى قيام الساعة ، وذلك سنة ثماني عشر بعد الألف من الهجرة المنوّره [1] على مهاجرها أفضل الصلاة وأتم السلام .

(١٤١ آ) وقد التمس مني بعض اخواني ، خلاصة أصدقائي وخلاني ، أن أثبت لألفاظها اللغويّة بياناً ، ولعجمة كلماتها العربية ترجماناً ، ليحلّ عقالها ، ويخفّف أثقالها ، ويفك مُشْكلَها ، ويفصّل مُجملها . فأبيت عن ذلك هرباً من فظاظتها ، وطلباً للتخلّص من قُبحها وغلاظتها . ثم بعد ذلك أجبته إلى مراده ، راغباً في اسعافه وإسعاده . وابتدأتُ أوّلاً في حلّ كلماتها اللغوية ، ثم تأملت في إعرابها فإذا كلّ سجعة من أبياتها مشتملة على المبتدأ والخبر ، فرأيتُ أن تكرار ذلك في كلّ بيتٍ مما يملّه السمع ويؤذن بالعيّ والحصر ، فاقترحتُ لها إعرابا على طريقة التمليح والمجون ، ليحصل لسامعها المفاكهة ويقضي على ناظمها بالجنون .

ولا بدّ قَبْلَ الشروعِ في المقصود من ذكر بعضِ أوصافٍ لهذا الناظمِ المتكبّر المتعاظمِ ، دالّةٍ على قلّةِ أدبه وحماقته وجنونه .

فمن ذلك ما شوهد على وجه العيان ، ولا يحتاج إلى دليل ولا برهان ، أنّه في الغالب يدخلُ الجامعَ ووالده من خلفه ، فإذا خلع نعله نزل ليحمّله أباه على رغم أنفه ، وفي الأسواق والشوارع لا يمشي إلاّ أمامه . وذلك دلالة على شقاوته وعلامة .

---

(١) في الشرح « النبوية » .

ومن ذلك أنه لما صار إماماً بالجامع الاموي ، وذلك من الدلائل على اقتراب الساعة . فكان إذا أقام المؤذنون الصلاة للمغرب في صحن الجامع يتباطأ بالخروج من الحرم بعد إقامة الصلاة لترمقه الناسُ بأبصارهم ، ويعلموا أنه الإمامُ ، فيمشي متبختراً إلى المحراب .

ومن ذلك ما شاهده الفقير منه في تربة الدحداح ، وقد خرج المذكورُ في جنازة . فلما دُفن الميت ووقف الناسُ للتعزية تنحّى جانباً عن الناس ، وهو في عظمته القشروية ولا يلتفت يميناً ولا شمالا « فلمّا تمّت التعزيةُ وانصرفت الناسُ رآه وليّ الميت واقفا ، فمشى إليه ليصافحه على العادة ، فمدّ المذكور ظهر كفه حتى وضعه على فم الرجل [وهو يقول له : « عظّم الله أجرك وأحسن عزاك »] :[1] فلم يسع الرجل إلاّ أنه |[2] أجابه إلى مراده ، وقبّل ظَهر كفّه وانصرف .

وله مثل هذه الأشياء أمورٌ لا تكاد تُعَدّ لكثرتها . فهو الأحقّ بقول القائل :

قَالَ الأنامُ وقد رأوهُ   على الحداثةِ قد تَصَدَّرْ

مَن ذا المجاوزُ حدَّهُ   قلتُ : المقدَّم بالمؤخّرْ

وقد آن وقتُ الشُروع بالمقصود في حل القصيدة المذكورة ، بحسب الطاقة إلا أنني لا أذكرُ كيفيّة تركيب ألفاظها اللغويّة مع تنافرها وعدم ارتباط كل كلمة بأختها إلا بما يُشبه الاستعارة أو المجاز أو نسبة المحمولات إلى موضوعاتها والله المستعان .

(١) الزيادة من الشرح .

(٢) من هنا ، إلى قوله « الطف مما قبله .. » في ص١٩٢ ساقط من الأصول وقد أضفناه من الشرح .

محمَّـــد قَرْمُ حَشْد مُحَدَّثٌ خَدْلُ خُبْرٍ
مطهَّرٌ حَدْث خِدْنٍ مُصَدَّرُ الحكم مسبار

هذا البيت يُقال له : المستطيلُ والأطولُ من كل طويل ، إلاّ أنه جمع بين المشرق والمغرب طولا ، ولا عرض له . فهو الخطّ على اصطلاح المنطقيّين ، وهذا البيت ليس من بحر السلسلة المشهورة ، بل من التي في القرآن مذكورة ، وربما هذا أطول من ذي ذراعاً أو باعا .

اللّغة

محمّد : معروف ، وهو كثير الحامد . والقِرم : بكسر القاف وفتحها الفحلُ والسيّد . والحَشْدُ : الجماعة من الناس وغيرهم ، والمحدّث : بفتح الدال المشددة هو المُلقى إليه الحقّ والصواب إلهاما ، كما ورد أنّ في هذه الأمة المُحَدّثين وأنّ منهم لَعُمَر . والمحدّثُ هو صادقُ الظن . والخَدْلُ : بالخاء المفتوحة الضخم ، والخُبْر : برفع الخاء العلم . ومُطَهّر إنْ كان مفتوح الهاء فظاهرٌ أي أنّه كان مُنَجّساً فصار مُطَهّرا ، وإن كانت الهاءُ مكسورة معناه مُطَهِّرُ غيره . وتكون حَدَث مفتوحة العين والفاء . وعلى المعنى الأول حدث مكسورة الحاء مجزومة الدال ، ويكون حدث بالكسر نسق على مطهر بالفتح فيكون الكلام مُطَهّر خالص . وحدث كلام ثان .

والخِدْن : بكسر الخاء وسكون الدال المهملة الصديق ، ومصدّر : شديد الصدر وصاحب الصدر في المجلس ، والحكم معروف .

ومِسْبار الآلة من الحديد يستبر بها الجراحة .

الاعراب

محمد مبتدأ مبيّن لما لم يُسَمّ فاعلُه أو قائله . وقِرْمٌ حَشْد جملة حرفية خبرية ، وليس حشد مضاف إليه على ما توهمه سيبويه ، فإنّ حَشْد قلب بعضها دحش ، وهو الادخال بعنف ، فلهذا عزل عن معنى الإضافة . ومحدث خدل لم نر إعرابها في القاموس ، وإنها مستخرجة من الدرك الخامس من الباطوس ، فلا حاجة إلى إعرابها فإنّه ظاهر ، ومطهّر حدث خدل مرفوع على البدليّة بإضافة حدث وخدن إلى مطهر . نُقِلَ من حياة الحيوان لابن البوّاب ، ومصدر الحكم مسبار غير محتاج إلى اعراب فإن الحمير يعرفون اعرابه .

المعنى

إنّ هذا الممدوح الذي هو محمد المُبْدَأ بذكره في براعة استهلاله ، سيدٌ فحلٌ ، مُغَفّل ، صادقُ الظن والطوية ، كبيرُ العلم متواضع ، بحيث أنه يغسل خرا أصدقائه ونجاساتهم مع تصدّره في مجلس حكمه . ومهما حصل لهم من الجراحات الظاهرة والباطنة فإنه يسيّر الباطنة بعقله ، ويعالجها ويدخل المسبار الحديد في الجراحات الظاهرة ويعالجها أيضا ، فهو مع سيادته ورئاسته جرائحي أيضا . ما ألطف هذه التخيلات من هذا

هذا الأستاذ ! ليس هذا في قوة البشر ولا البقر . وفي البيت التشجيع والموازنة والتجنيس في محدث وخدل والمطابقة بين الطّهر والحدث .

قال الناظم ، آخره عليه لاطم :

سطاع سعدك سلع　　سماك سَمْحك سرح

سكات سرك سهم　　سماط سجلك مدرار

سبحان المانح . اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ ، وأعطنا ما أُعطي ذقن هذا الأستاذ ! ما ألطف هـذا الانسجام المختلط بالسخام ، وهو على غيره حرام ! .

اللّغة

سطاع : العامود الحامل لبيت الشعر الذي تسكنه العرب بالبادية ، ويطلق على العامود الحجارة المجاز .

وسَعْد : معلوم ، وهو نقيض النحس .

وسلع : جبل بالمدينة المنورة مشهور .

والسِماكُ : نجم وهو منزلة من منازل القمر .

والسَمْح : بفتح السين السماح . والسرح : المال المسروح ، والسارح من بقر وغنم ومعز وتيوس وجمال باركة أيضاً ، فإنه يطلق عليها اسم السرح ، وإن كانت في معاقلها ومعاطفها .

وسُكات يعني سكت أو سكوت ، وحية تلدغ من غير شعور .

وسِرّك : مـا استتر عن غيرك . وسهم : نصل ، لا السهم الذي بمعنى النصيب .

وسِياط : معروف ، والسجل : الدلو الممتلىء مـــاء . ومِدْرار مبالغة في الدر .

الاعراب

جميعه وإن كان مشتملاً علىّ المبتدأ والخبر في جميـع تشجيعاته ففيه نُـكاتٌ خفية عن فحول النحاة . فإنّ سطاع ، وسماك ، وسكات ، وسماط ، هذه الأربعة مرفوعة بحسب مضافاتها ، كما تجرْ أربعة بالحبال للصَلْب . وسهم ومرح وسلع ومدرار مرفوعة أيضاً كأنهم رفعوا رؤوسهم للفرجة على المصلّبين .

المعنى

كأنه يُخاطب ممدوحه ويقول له : إن عمود سعدك مثل الجبل المعروف بسلع ، أو هو بعينه مجازا ، فلا تظن أنه من خشبٍ كأعمدة البيوت المضروبة من الشعر .

وقوله : سماك سمحك مرح ، فلا يخلو من أربع قناطير من الركاكة ، فإنه يريدُ الذي تسمح به وتجودُ من جنس الماشية ، من الأنعام . وصدّر ذلك بالسماك . فهذا ليس بينه وبين السماك الذي هو النجم أو منزلة القمر نسبة البتّة ولا تعلق بوجه .

وقوله : سُكات مرّك سهم . في غاية الضعف من المعنى ،|(١) إلا أنه ألطف مما قبله . فإنه يريد أنّ سكوتَ ممدوحه وهو بعيدٌ من العقل كلام ، أو أنه مصيب في سكوته كإصابته حالةَ تكلّمه ، كإصابة السهم إذا رُمي . وهو بعيد عن التعقّل جدا .

وقوله : سماط سجلك مدرار ، فهو في غاية الحسن وتمكين المعنى ، كأنه يقول : إذا وفد عليه ضيوفه وأمدّهم بموائد كرمه من ذلك السَرْح الذي هو البقر والغنم والإبل ، وأكلوا من لحومهـــا الحامية ، فإنهم يعطشون عطشاً شديداً ، فيحتاجون (١٤١ ب) إلى الماءِ ضرورةً . فذكر الناظم أن لممدوحه دلاءً كثيرة ممتلئة بالماءِ المدرار ، فهو بهذا الاعتبار معنى غريب عجيب . هكذا هكذا وإلا فلا لا .

وفي البيت الترويع المعبّرُ عنه بالتوزيع ، لأنه قطع حرف السين شذر مذر ووزّعه على كلماتِ البيت ، وبين سماط وسماك الجناس المبدل ، وفيه كما في غيره من الموازنة والتشجيع .

قال الناظم :

نجاف نجدك نجح ‌ ‌ ‌ ‌ نطاق نسلك نهر

نجار نجحك نور ‌ ‌ ‌ ‌ نقاط نجلك مكثار

هذا البيتُ يقالُ له عجايبُ الغرائب ، ولا بدع (٢) ، فإنّ ناظمه مالكُ أطراف البلاغةِ بأجمعها ، لا بل كأنه كوم من كيان مصر المحتوية على أجناس القيامات ولكن هكذا هكذا يكون الخرَاعُ .

---

(١) الى هنا انتهى ما سقط من الأصول ونقلناه عن الشرح .

(٢) في الأصول « عجائب البلدان ، ولا عجب » أثبتنا ما في الشرح .

اللغة

نجاف العتبة للباب ، ونجد ما ارتفع من الأرض والطّريق . والنُّجْح : اسم من النجاح . ونِطاف : جمع نُطْفَة كنكتة ، ونِكات على غير قياس ولا أساس . والنسلُ ما تناسل من الولد . ومِكْثار : مبالغة في الكثرة .

الاعراب

نجاف معطوف على سطاع ، ونطاف على سماك ، ونجار على سكات . ونقاط على سماط ، كعطف نجدك على سعدك إلى آخره . والجمل من المعطوفاتِ لا محلّ لها من الإعراب ، بل يتعينُ عليها الإضراب ، لأنها في غاية الإهمال ، على كلّ حال .

المعنى

مُخْتَلٌ كعقل ناظمه كأنّه يقول أيها المبتلى بهذا المدح المشئوم على قائله : إن عتبة محلك الرفيع ، وجنابك المنيع ، مبلّغة لمن أمّها أو حلّ بها النجاحَ ، وإنّ نطف نسلك أي أولادك في غاية الكثرة بحيث أنهم ينصبون من فروج أمهاتهم كانصباب النّهر .

يا مسلمين ! يا أُمّة الدين ! هل طرق مسامعكم مثل هذه المعاني الغلاظ ؟ إنا لله وإنّا إليه راجعون .

وقوله : نجار نجحك نور ، يعني : أصل طريقك أو اصالة نسبك نور ، أي إضاءة وسناً . هذا المعنى لطيفٌ . لكن الممدوح شريف كأنه يقولُ : أصالتك منوّرة بنور النبوّة إلا انه تعسّف وأخرج هذا المعنى بالمناقيش ، فهو لا فيش ولا عليش . مثل عامّيّ .

وقولُه : نقاط نجلك مكثار . لا يمكن ربط هذا المعنى ما لم يسمَّر بالمسامير ، ويُسكب عليه الرصاص بالقناطير ، وإلاّ فإنّه ينفكُّ سريعا . كيف يقولُ له ان ولدك كثير النقط ، إن كان مبتلى بداءِ النقطة في إحليله فبيها ونعمت ، وإنْ كان مراده أنّ ولدك من نقطٍ متعددة فهذا مُشْكِلٌ ومشعِرٌ بأشياء غير حميدة ، على أنه لا يستقيم على أي حالة وفي هذا البيت تشقيقُ اللفظ بين النون والجيم في نجاف ونجد ونجح ، والمشاكاة بين النسل والنطف والنقط واللقط ،

قال الناظم [زاده الله نبلا] :

نِقـاب نعتك نُشْر نِحـــاس نجرك نقع

نبال نُدْحِك نظم نفاس نُكْحِك مِذْكار

هذا البيت جميعه صفُّ الفاظ لغوية قشرية . [وإن كانت في نفسها معنوية] ، كما إذا جمع الإنسانُ قِلياً وجيراً وزنجفراً وحمّصا وباقلاء وطيناً أرمنياً وأراد بذلك طبخ الأفلونيا ، لا يتأتّى له ذلك ، وإن كانت هذه الأجزاء لها حقايق في نفسها . وإنما الجنون فنون .

والمعنى

إعلم يا ممدوحي أعانك الله على هذه القناطير المقنطرة من هذه المعاني المسطّرة أنني نقّبتُ على نعوتك وخلائقك ، وأوصافك ، كما ينقب الطريق في الجبل .

وأطال الشارح في شرح هذه الأبيات ومعانيها ونحن اقتصرنا على ذكر هذه الحصة ، والله أعلم .

* * *

١١٢

الشيخ حسين بن أحمد بن محمد بن أحمد

الشهير بشهاب الدين البقّاج ابن عبد الرحمن بن مهنّا الزيات أقولُ :
وردَ حسين هذا إلى دمشق مرات كثيرة . وكان منهـا أنّه ر َ إلى دمشق في رمضان من سنة عشرين بعد الألف وهو شابٌ فاضلٌ صالح عليه سيما الصالحين ، احتوى على فضائل كثيرة ، منهـا حسن الخط واستقامة الوزن ، واعتدال الطبع ، وسلامة الذهن .

أنشدني لنفسه هذه الأبيات لغزاً في شعير :

ماأسمُ شيء من النبات إذا ما زالَ حرفٌ منه غدا حَيَوانا
ربعه مَعْـدناً تراه وشمساً وترىٰ فيـه جهرةً انسانا
وبتصحيف بعضِه فهو نارٌ وتُروّي مِنْ بعضه الظمآنا

وأنشدني من لفظه لنفسه ما كتبه لبعضِ أصحـابه ، وهو الشيخ أبو الوفاء بن أبي الغيث | الهيتي |[1] من حلب :

وحَقِّ ليال قد مَضَيْنَ عفايفا وحرمةِ أيامٍ مضتْ بصفـاء
لأنتَ بسوداوَيْن ، قلبي وناظري وذكركَ وِرْدي بكرتي ومسائي

---

(١) ساقطة من هـ .

وأني على العهد الذي كان بيننـا　　　مقيمٌ على ودّي وحسنِ وفائي

وأخبرني أنّ جده مُهنّا كان مسمّى بعبد الرحمن ، فقال له الشيخ الصالح محمد أبو يحيى الكواكبي : أنتَ مُهَنّا في طريق الله . فاشتهر بمُهنّا . وقلّ أن يُذْكَر بعد ذلك بعبد الرحمن . هكذا نقل لي ذلك عن تاريخ ابن الحنبلي الحلبي في منزلي بدمشق (١٤٢ ب) في يوم السبت الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة عشرين بعد الألف . وأخبرني من لفظه أنّ مولده في المحرّم سنة ستٍ وتسعين وتسع مئة وأنشدني أيضاً لنفسه تضمين المصراع الأخير :

فُتِنتُ بظبيٍ أهيف القَدّ فاتنٍ　　　بعينٍ لهاعن قوس حاجبها جَذْبُ

صَبَوْتُ به لمّا رأيتُ جمالَه　　　ومَنْ ذا يرى هذا الجمال ولا يصبو

* * *

١١٣

حبيب جاويش ابن محمود بك النخجواني [١]

ورد محمود بك المذكور في فتنة قزلباش لما استولوا على بلاد العجم ، ونزل صالحيّة دمشق عند جِسْرِها ، وأعطاه السلطانُ سليمان زعامة . والزعامةُ عبارةٌ عن قرى يُقْطَعُها مَنْ يُعطاها ، وتخمّنُ على الأقل بعشرين ألف درهم عثماني كلَّ سنة . وتزوّجَ بالصالحية فولد له ولدان : أحدُهما حبيب هذا والثاني فروخ .

فأما حبيبٌ هذا فإنّه وصل مع الزعامة إلى أن صار جاويش السلطان . والجاويشية في دولة آل عثمان عبارة عن رجل يركبُ أمامَ السلطان وفي يده الدبّوس . ومرتبتُه عظيمةٌ لأنه يخرج من الجاويشيّة إلى أن يكون صنجقاً صاحب طَبْلٍ وعَلَمٍ ولواءٍ ، ولما جاء الوزيرُ الأعظمُ مراد باشا مع عساكر الروم إلى حلب لإزالة الخارج الباغي علي بك ابن جانبلاط ، سافر حبيب المذكور في ضمن العساكر الشاميّة فمات بأنطاكية ودُفن عند حضرة حبيب النجّار ، فقال الناسُ : مات حبيب ودُفن عند حبيب . وكان ذلك في رجب من سنة ست عشرة بعد الألف .

وكان حبيب المذكور كاتباً حسنَ الخطّ إلى الغاية ، بل كان من الجماعة المشهورين بحسن الخطّ . وكان يعرف اللغات الثلاث : العربية والتركية والفارسية . انتهى والله أعلم .

* * *

(١) هذه الترجمة ساقطة من ه .

حرف الدال

١١٤

المولى الأعظم ، والكامل الأعلم الهمام (١) الأمجد

مولانا درويش محمد

قاضي القدس وما يتبعه (٢) من غزة ونابلس وصفد واللجون وعكا وكفر كنا وغيرها . ثم تولى قضاء مكة ، ثم تولى قضاء مصر والقاهرة . وهو الشهير بين موالي الروم (١٤٣ آ) بجبار زاده ، بلغه الله الحسنى وزياده . وهو مشهور بينهم بالعلم والعمل ، لاسيما فقه الإمـــام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه .

ورد إلى دمشق في سنـة عشر بعد الألف ، ونزل في بيت الأمير أحمد ابن رضوان صاحب لواء غزة . واجتمعت به في البيت المذكور ، بحثت معه في التفسير بحثاً متعلقاً بقوله تعالى (لَهُمْ فيها مايَشاؤونَ خالدين) (٣) وذلك ان المفتي ذكر في تفسيره أن خالدين حـال من الضمير المستكِنّ في الظرف ، وهو لهم . ولا شك أن الضميرَ المستكِنّ راجعٌ إلى ما . وهي عبارة عن النعيم ، فيصيرُ المعنى استقرّ النعيم لهم

---

(١) ساقطة من ب ، وفي م « الكامل » أثبتنا رواية « هـ » .
(٢) ب هـ « يتبعها » .
(٣) سورة الفرقان ٢٥ ، لآية ١٦ .

حالَ كَوْنِ النعيم خالدين ، وذلك سهو . وأجاب عنه المولى المذكورُ بما حاصله أنّ النعيمَ مصدرٌ بمعنى المتنعَّم به . والمتنعَّم به في الجنة أنواعٌ منها الأولادُ ، والحور ، وهي من العقلاء . فتوصف بخالدين . فيكونُ هناك تغليبُ العقلاء على غيرهم مما يتنعَّم به . وهذا الجواب حَسَنٌ ولا جوابَ عن الإشكال سوى ما ذكره المولى المذكور .

ولما كان قاضياً بمصر أرسلتُ إليه مكتوباً وطلبتُ فيه شرحاً على المنهاج من شروحٍ ثلاثة : إما شرح ابن حجر ، أو شرح الخطيب الشربيني : أو شرح الشيخ شمس الدين الرملي . فأرسل إليّ هـذا المكتوب ، ومن خطه نقلتُ :

سقى هَضَباتِ الشامِ إنْ ضَنّ صيّبٌ مُجاجاتُ أمْنٍ كاسياتٌ طلولَها

ولا أنفكّ يغشى رَبْوَتَيْ جَنَبَاتِها كما عَمَّ مَغْنَاهَا وخصّ نزولَها

وسَحّتْ على تلك المعالمِ ديمةٌ تجرّ على هاماتِهِنّ ذيولَها

لمركز دواوين العرفان ، ونهاية خط استقامة أفلاك الدوران ، نتيجة فكر الدهر العقيم الذي لم يأت بمثله ، ووجه موجّهات العلوم الدالّةِ على تفرّد مشكله ، حسنِ الصفاتِ والأفعالِ ، منبعِ الفضائلِ والكمال :

لبورينَ يُعْزى ولكنّهُ بيوتَ المعالي جميعاً سَكَنْ

حسا أكؤس العلمِ صِرْفاً أما دروْا أنّه في المعالي حَسَنْ

إهداءُ تحيّاتٍ تشرقُ شمسها في أوج سماء الدوام ، حتى تنعقد تيجاناً على هامات الليالي والأيام ، وتسليماتٍ تسري نفحاتها على أجنحة الملائك ، وينْتشرُ عبيرُها في أنوف الممالك ، تطوف بها أيدي السرور ، على منصات

الظهور ، فتتلقاها ميامن الحور الخالية عن القصور ، يطوف بها القبول على الدراري ، وتكتسب (١٤٣ ب) الكواكب من سناها .

هذا وإن عندنا من مزيد الاشتياق ، وتطلب الاجتماع والتلاق ، ما لا يُحصى ولا يُعدّ ، ولا تُضبط أفراده ولا تُعد ، وقد ورد المشرّفُ الكريمُ فكان أشرفَ واردٍ ، وعلى بلاغة مُنشئه أعظم شاهد ، تَسْرَحُ في رياضه النواظر الحديدة ، وتجنى من جداوله الصافية ثمار الفضائل الجديدة ، تأخذ حظها منه الحواسُّ الخمس ، وتنبسط في فهمِ دقائق معانيه المعجزة النفس ، وقد نظرنا في القاهرة المُعَزيّة ، لا زالت من آفات الزمان محميّة ، ما علقتم على تفسير الإمـــام الهمام قاضي القضاة ناصر الدين البيضاوي ، ومـا كتبتم من الشرح على ديوان القطب العارف الربّاني الشيخ ابن الفارض عمر ، سقى الله مرقده صيّب الدّرَر ، فتاقت النفسُ إليه تَوَقان الصادي إلى الماءِ الزلال ، وتطلّبتْهُ تطلّبَ الأعينِ لرؤيةِ هلال شوال ، فإنّ لكلّ جديدٍ لذّة ، ولكل ممتنعٍ عن الأبصارِ عزّة ، والقصدُ التفضّلُ بسرعة إرسالها إلينا ، وإيراد محاسنها الفريدة علينـا ، لنسرّح النظر في روائع بدائعها ، ونمتّع الفكر بأنوار طلائعها ، ونحن مهتمّون بتحصيل واحد من الشروح المطلوبة ، فإنها لم توجد مكتوبة . فلذلك تأخرتْ قليلاً ، ونرجو عن التأخير عفواً جميلا .

[من المحب بالإخلاص درويش محمد القاضي بمصر والقاهرة ، عُفي عنه في الدنيا والآخرة] (١) .

* * *

(١) قوله من المحب . . إلى الآخرة من هـ ، وليس في م ، ب .

١١٥

الشيخ الأديب الكامل الأريب الشيخ درويش محمد الشهير في دمشق بابن طالو

الرومي الأصل ، الدمشقي المولد والمنشأ .

كان والده رومياً قدم إلى دمشق في صحبة السلطان سليم الذي أخذ بلادَ العرب من يد سُلطان الجراكسة الغوري قانصوه فكان خادماً لبعض أتباعه ، فتزوّج أم درويش المذكور ، وهي عتقاء بنت المرحوم الأمير علي ابن طالو ، وقطن بمحلّة التعديل[1] من دمشق الشام ، سقاها صوب الغمام . ثم انكسر عليه بعضُ المال من ضمان أمانة اقطاع كانت عليه . فسار من دمشق مع البازي عليه سواد ، ولم يعد إلى هذه البلاد .

ونشأ ولده درويش هذا فقيراً يتيماً وحيدا ، عاجزاً خاشعاً فريدا ، وأعطى من اقطاع والده حصة يسيرة ، وفرغ عنها لأنه لم يجد من يكون نصيره ، ولزم دكّان من يعلّمهُ صنعةَ السروج ، وقال لعلّ الشغل في الحلال ينفع ويروج ، ولم يطل المكث في هذا الباب . ودلّه على طلب العلم بعض الطلاب ، (١٤٤ آ) وترك ما كان غير طريق العلم وما يؤدّي إليه ، وصار يصحبُ أهل العلم والأدب ومَنْ يدلّ عليه . فتاه في بيداءِ أهل الهوى ، وصار في طريق الغرام من أرباب الجوى ، وكان صوته يجرح الفؤاد ، ويهيم بالعاشقين في كلّ واد ، وتعلّق أوّلاً بكلام الشيخ

(١) محلة بدمشق واقعة جانب محلة القنوات .

محيي الدين بن عربي ، وشرع يكتب الكلام الموزون والقانون الأدبيّ . وذاق لذة العلم على طريق التصوّف ، وقرأ شيئاً من العربية على شيخ الإسلام الشيخ أبي الفتح بن عبد السلام التونسي المغربي المالكي ، وقرأ شيئاً من الفقه على شيخ الإسلام الشيخ نجم الدين البهنسي ، وتنوّع في كل طريق ، ورام مرامَ أهل التحقيق . ولم يزل حائماً في ذلك الوادي ، منفرداً عن أهل كل نادي ، حتى التصق ببعض موالي الروم ، وبحث معه عن طريق المنطوق والمفهوم ؛ وناب في القضاء على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في محكمة ميدان الحصا ، وصار إلى الروم في صحبة المولى محمد أفندي ابن المولى بستان ، فصار من جملة جماعته ، وصار ملازماً على قانون موالي الروم . ودرّس في مدرسةٍ بقسطنطينية المحمية (١) . ولم يزل إلى أن صار مدرّساً بأربعين عثمانياً . ومن قاعدة موالي الروم أنهم يعزلون المدرّس ما بين الأربعين والخمسين نحو سبع سنين . ففي هذه المدّة ورد إلى مسقط رأسه ، ومشعل نبراسه (٢) ، بدمشق الشام ، سقاها صوب الغمام ، فاتفق أن ابن خالته الأمير ابراهيم الطالوي تولّى الإمارة بولاية نابلس . فتوجّه معه ، وأعطاه الأمير ابراهيم خيلًا ومالاً وزوّده وودّعه . فذهب إلى غزّة ، ومدح صاحبها الأمير أحمد بن المرحوم رضوان باشا بقصيدة ميميّة ، فأعطاه فرساً وبعض مالٍ . وذهب من غزّة إلى القاهرة فامتدح قاضيها ، واستقرّ بها نحو سنة .

وعاد من مصر إلى دمشق فاجتمعتُ به ، وطلبني لمذاكرته في تفهيمه بعض المشكلات في عبارة الشرح المطوّل للمولى سعد الدين التفتازاني . واستمرّ هناك إلى أن قربت المدة بين الأربعين والخمسين فتجهّز لسفر الروم .

---

(١) هـ « ودرّس بقسطنطينية المحمية » .

(٢) هـ « مشتعل نبراسه » ، ب « وشعل بنراسه » .

وكانت أخلاقُه متفاوتة فكان يقرب ويبعد ، ويرضى ويغضب ، ويمر ويحلو ، ويعشق ويسلو ، ويمدح ويهجو ، وقد هجا قاضي القضاة بدمشق وهو القاضي أحمد الشهير بالإياشي ولكنه أفحش في هجوه إلى الغاية ، والحال أنه (١٤٤ ب) كان قد مدحه إلى الغاية وبالغ في مدحه ، ثم أفحش في هجوه ، ومطلع مدحه له :

كيف أخشى بالشام همّ المعاشِ   وملاذي بها جنـاب الإياشي

وذكر في هجوه له زوجته . ولعمري إنه تعدّى ، في ماله تصدّى ، ووقع في هفوة القباحة وتردّى ، وقد أخذ بيتين من نظم شيخه الشيخ العلامة أبي الفتح المالكي ابن عبد السلام التونسي وجعلها مبدأ هجوه للقاضي المذكور ، والبيتان هما :

الشامُ تبكي بدموع غِزار   بكاءَ ثَكْلى ما لها من قرار

بكـاءَ مظلومٍ له ناصرٌ   لكن بعيد الدار والخصمُ جارْ

وهجا قاضي العسكر المنصور هو المولى كمال الدين ابن المولى أحمد أفندي الشهير بطاشكبري زاده ، وكان هجوه للموالي ، سبباً لطرده من منازل المعالي ، وإبعاده عن مفاخر الأيام والليالي . فإنه لما أُعطي مدرسة خير الدين باشا بخمسين عثمانياً دفعوه إلى الشام ، وأبعدوهْ عن قصده والمرام . فأعطوه المدرسة السليمانيّة بدمشق المحميّة ، وجاء إلى الشام بعظمةٍ لا تُرام ، ووضَعَ على رأسه قبتةً تنازع قبة النسر كبرا ، وسار سيرة صارتْ بين الناس مثَلا وخَبَرا ، فكان يرفعُ رأسه إلى جانب السماءِ كأنه ينتظر حديثاً يسمعه ، أو يرقب مالاً يضمه إليه أو يجمعه .

وعمّر بيتاً صغيراً في بيته بمحلة التعديل ، وكان يقول هذا البيت بيت الفتاوى وموضع الكتب . ومن العجب أنه نقل كتبه إلى البيت المذكور ، فكان يصفّها ويرتّبها وينظرُ فيها وهو ينشد هذا البيت ، وأظنّه من نظمه ومن نتيجة فهمه وهو :

أُقلّبُها حفظاً لهـا وصيانةً فياليتَ شعري مَنْ يُقَلّبُها بعدي ؟

فمات بعد ذلك بعشرين يوماً . والله أعلم .

ولما دخل رمضان من سنة أربع عشرة بعد الألف مرض وانزعج انزعاجاً كبيرا . ضرب خَدَمَه (١) وهو محموم ، واختلط عقلُه وهو مذموم . فقضى الله أنّه مات ليلة عيد الفطر من السنة المذكورة ولم تبك عليه عين ، ولا شكا أحدٌ من أصحابه ألم الفراقِ عنه ولا البَيْن . وذلك لأنه ما كان يتألّفُ القلوبَ . بل كان هجوُه أكثر من مدحه ، وشكرُه أقلّ من قدحه . وكنت قد زرتُ ابن خالته الأمير ابراهيم الطالوي في محلة التعديل وهو ماكثٌ في بستانه بالمحلّة المذكورة . فقال لي : نريد أن ندعو الشيخ درويش (١٤٥ آ) يحضرُ معنا في هذا الموضع . فقلت له : نعم . وشرعتُ انظمُ أبياتاً لدعوته ، وأحرّر كلماتٍ تليق بحضرته . فجاد القلم ، بما زاد على ما رسم . والذي كتبتُ إليه هو قولي :

مولايَ يا كعبةَ المعروفِ والكَرَمِ ومَنْ الى المجدِ ما بين الأنامِ نُمي

ويا أخا الجودِ يا مَن غَيثُ راحته إنْ شحّ يربو على هَطّالَةِ الدّيَمِ

قَدْ أمّ جانبكم مَنْ لا يزالُ بِكُمْ يرنو إلى شُرُفاتِ العزّ من أَمَمِ

---

(١) ه « لأنه ضرب خدامه ... » م « ضرب خديه ... » .

وجاء يرجو لقاءً في منازلكمْ فشرّفوه بأقدام من القــدمِ
وبادروا قَبْلَ لَمْحِ الطّرْفِ إنّ لنا طَرْفاً يلاحظُ منكم صادقَ الهِمَمِ
ونحنُ في صَفْوِ عَيْشٍ ما يُرَوّقُه إلاّ قدومك ياذا الفَضْلِ والكرمِ
عندي خزائنُ أفكارٍ أضنُّ بها عن كلّ جامدِ فَهْمٍ غيرِ مُنْسَجِمِ
جواهرُ الفَضْلِ لا تُتْلَى محاسنُها إلاّ على مُفْرَدٍ في الفضلِ والشّيَمِ
فسرْ إلينا دعاءَ من أخي ثقةٍ عِقْدُ المحبّةِ منه غيرُ مُنْفَصِمِ
قَدْ عَمّر اللهُ منهُ بيتَ باطنِه فرَبْعُ صِدْقٍ وِدادي غير مُنْهَدِمِ
أيهِ وإنْ كنتَ لا ترعى مودّتَهُ ولا تَراهُ كما قد كُنْتَ في القِدمِ
يأتي اليّ سهامٌ فُوّقتْ أبداً منكم تسوقُ الى التكديرِ والعدمِ
قد كنتَ تُسْمِعُني صَوتاً له فرحٌ يفوقُ باللطف مَوْزُوناً من النَغَمِ
واليومَ يبلغني عنكم مجاهرةً نوادرٌ [1] أصبحتْ كالمُفْرَدِ العَلَمِ
لا سيّما عند تاج العلم سيّدِنا نَسْلِ المكارمِ ذي الإحسانِ والنِّعَمِ
وكَمْ وكَمْ غير أنَّ الكَمّ نحصره والُحبّ نكتُمُه كالشعر بالكَتَمِ
أُصغي الى كلم الواشي وأتركُهُ كأنَّ ما قَدْ رواه ليس بالكَلِمِ
أرومُ سلوتكم والقلبُ يمنعُني ما حيلتي في ودادٍ غيرِ منصرمِ

---

(١) ه « بوادر » .

وما أردتُ بتبليغي شكايتكم   لكن لتعلم عذري عند منهزم

فاْسلَمْ مدى الدهرِ في عزّ وفي دعةٍ   واحكم بما شئت في الأيام واحتكمِ

ما غرّدَتْ ساجعاتُ الورْقِ صادحةً   فميّلتْ عذباتِ الرنْد والسلمِ

قال المولى درويش المذكور : فوردتْ عليَّ والليلُ منصوبُ اللواء ، متّشحٌ بكواكب الجوزاء . فكتبتُ الجواب من ساعته ، على مقاسمة بضاعته . وذلك (١٤٥ آ) قوله رضى الله عنه :

توشحت كالنجومِ الزُّهْرِ في الظُّلَمِ   سِمْطَيْنِ من لؤلؤٍ رطْبٍ ومن كَلِمِ

وقلّدتْ جيدَ آرام النقا دررا   بدّتْ بهنّ دراري الأفْقِ بالقيم

وأقبلتْ في مروط الزهْو رافلةً   تجرُّ تيهاً فضولَ الرّيطِ من أَمَمِ

جيداءُ مُنْصَلِتُ القِرْطَيْنِ مائسةُ الـ   ـعطفَيْنِ ، مخضوبةُ الأطرافِ بالعَنَمِ

كأنّها حين وافتْ والفؤادُ بها   صبٌّ صبابةَ شَرْخٍ مرّ كالحُلُمِ

فما الرياضُ بكاها الطرفُ ليلتَهُ   بكاءَ طرْفٍ قريحٍ باتَ لم يَنَمِ

شوْقاً لطَيْفِ خيالٍ بات يرقُبُهُ   من ناقِضِ العهْدِ والميثاقِ والذِمَمِ

يُضاحكُ المُزْنَ فيها الأقحوانُ ضحى   عن ثغرِ مُبْتَسِمٍ بالدرّ مُنْتَظِمِ

فالوُرْقُ صادحةٌ والوُدْقُ ضاحكةٌ   ثغورُهُ بين مُنْهَلٍّ ومُنْسَجِمِ

تُجاذبُ الريح أعطافَ الغصون بها   فتنثني والهوى ضَرْبٌ من اللّمَمِ

يوماً بأحسنَ مرأىً من شمائلها   وقد أتتْ بعتابٍ من أخي كَرَمِ

مُهذّبِ القولِ إلاّ أنه أُذُنٌ ... تُصغي الى قولِ واشٍ بالنفاقِ سُمي
لا يعرفُ القولَ إلاّ مَذْقَ ساعتِهِ ... والشاهدُ العَدْلُ ما يتلوه من قَسَمِ
هَيْهات ما الودُّ ممن كنتُ أعهدُه ... باقٍ وقد حال عن عهدي ولم يَدُمِ
فيــاله من عتابٍ لم يَفُزْ أبداً ... بمثله أحدٌ في سالفِ الأممِ
سوى امرىء ساءَ ظنّاً في صنائعه ... فساء ظنّاً بِخلٍّ غيرِ متّهمِ
وشاتمِ العرضِ في ما قيل من قِدمٍ ... من بَلّغَ القولَ لا مَنْ عنه ذاكَ نُمي
لا تَعْزُ من قال للإحسان والنِّعمِ ... بل ذاك يُعزى لبَهْمِ القاعِ والنَّعَمِ
كم من أخٍ صارمٍ وُدّي صبرتُ له ... حتى أرْعَوى، وودادي غيرُ منصرمِ
يا مَنْ تَعَمَّرَ منه بيتُ باطِنِهِ ... وظاهرُ البيت أنّ الأمر لم يرمِ (١)
ومَنْ له مِنْ ودادي كلّ خالصةٍ ... أصفيتُها صفوة الأخلاق من شِيَمِي
أصِخْ الى الحقّ وأسْمعْ ما أقولُ فلي ... صبرٌ له ركْنُ رَضْوى غيرُ منهدمِ
وأنْتَ رَيْحانَةُ الفَضْلِ التي بَسَقَت (٢) ... أغصانُها في حمى المعروفِ والكرمِ
لاصوّحتْ وأقامتْ في منابتها ... تسقى بماء غزيرِ السّكْبِ مُنْسَجِمِ
مالي على طَللٍ دمعٌ يراقُ ولا ... يؤرّقُ الجَفْنَ ذكْرُ البانِ والعلَمِ (١٤٦ آ)
ولا أعوجُ على سِقْطِ اللّوى وبه ... سوارحُ قد كَحلْنَ الطَرْفَ بالسَقَمِ

(١) هذا البيت ساقط من هـ . وفي ب « وظاهر الأمر أن البيت لم يرم » .
(٢) هـ ، م ، ب « سبقت » .

يُريكَ برقُ ثناياها إذا ابتسمتْ ... تَبَسُّمَ البرق مُجتازاً على إِضَمِ

لكن أعوجُ على عهدٍ به عُهدتْ ... محاسنُ الفَضْلِ والإِفضال والنِعَمِ

خُذْها عقيلةَ فِكْرٍ بنتَ لَيْلَتِها ... وشامها النجم عقداً غير منفصم

وأسلمْ على حالَتَيْ ودٍّ وصدٍّ قِلىً ... ما زانَ عِقْدَ نظامٍ جوْهَرُ الكَلِمِ

قلتُ : وقد كان درويش الطالويّ المذكور قد أرسل قصيدةً إلى سلطان الغرب ، هو مولاي أحمد المنصور ، على لسان رسولٍ من أتباع المنصورِ المذكور ، يقال له عبد العزيز الثعالبي ، وصرّح باسم الرسول المذكورِ لكونها ذاهبةً على يده . فلذلك وقعتْ عند السلطان باردةً ولم تقع لها الحظوةُ الزائدة .

ومن جملة القصيدة المذكورة قولُه :

ومرّتْ بوادي الشحر مجتازة اللّوى ... لِوى الرملِ فيه البانُ مرخى الذوائبِ

تُجاذبُ مِنْ نَجْدٍ شميمَ عرارِهِ ... فيرنو لها الحوذانُ عن لَحْظِ غاضبِ

ووافت حمى الزَوْراء ليلاً فساجلتْ ... على الكرخ داراً بالدموع السواكبِ

وطابتْ رياضُ الخابريّة وانْثَنَتْ ... تُباري الصبا والليل في مسح راهبِ

وللمغرب الأقصى ثنت من عنانها ... تؤمُّ حِمىً البيضاء عزّتْ لطالبِ

بحيث ترى البيت الإماميّ معقلاً ... تطيف به الأملاكُ مِنْ كُلِّ جانبِ

مجرّ العوالي السمهريّة والقنا ... ومجرى الجياد المقربات السلاهبِ

عَلَيْها اسودٌ أُنّسٌ يومَ سِلْمِها ... وفي الحرب تُلفى داميات المخالبِ

توشحتِ الغدران تحت جداولٍ اذا انتضيت فالهامُ غمد لضاربِ

بها يكلأُ الله الخلافةَ في حِمى مليكٍ قصيّ العَزْم ِداني المواهب

حمى الملكِ المنصورِ مولاي أحمد إمامِ الهُدى رامي العِدى بالمقانبِ

أسود على متن السراحين غابها من الأَسلِ الخطيّ دامي المخالبِ

تلوّى بأيدي الدارعين كأنّها صِلالُ نقاً مذعورةٌ عن مساربِ

ترى السَرْدَ نهباً والقتيرَ حبابهُ فتكرع في حَوْضٍ من الدم ِراعِب

مُؤيّد شرع ِالله مشتجر القَنَا ومعترك الهيجا بماضي المضَارب (١٤٦ب)

سليل القضا أن ينتضي يومَ معركٍ وفيه المنايا مزّقت في الكتائب

ويُجري الجواري المنشآت الى العِدى بموج ٍمن الأبطال طامي الغوارب

وقد كتب المرحوم أديب الزمان ، ووحيد الأقران ، الشيخ محمد الصالحي الهلالي قصيدةً سينيّة وأرسلها إلى الأديب درويش صاحب الترجمة ، وأجابه عنها مُراعياً للوزن والقافية ، وقصيدة ابن الصالحي هي قوله في سنة تسعماية وسبع وثمانين :

حذار فؤادي فالظباء فوارسُ وما غيرَ آسادِ العرين فرائس

وإيّاكَ والإقدام في حَلْبَة الرّدا فَخيلُ المنايا للنفُوس تُخالس

فلِله مِنْ قَلْبٍ عصاني كأنّه خَصيمٌ لطردِ القولِ مني يُعاكس

فياقلبُ كم هذي الغواية في الهوى فحتّى متى في الموت هذا التنافُس

ألَمْ يأْنِ من سكرِ الغرام إفاقةٌ فيصحو فؤادٌ للهموم مُجالس

فيا ظَبيُ ما هذا النفار الى متى أما آن أن تعطو الظباءُ الكوانسُ

سرى الطيفُ في وهْنٍ من الليل يبتغي طروقَ عليل أقلقَتْهُ الوساوسُ

فحوّم جَفْن الصبّ ساعةَ قُرْبِهِ يظنُّ بأنّ الطَيْفَ ضيفٌ مؤانسُ

ودارتْ كؤوسٌ للعتاب وأينعتْ قطوفُ الأماني والظنونُ الهواجسُ

فما رامَ إلا أنْ أفاقَ إفاقةً إذا الدارُ شَسْعى والقفارُ البسابسُ

لقد أبْلَتِ الأيامُ فينا بلاءَها وجارَتْ صروفٌ بينهُنّ تُجانسُ

وقائعُ أنستْنا حروبَ ابنِ وائلٍ وأرْبَتْ على أضعافِ ماجرّ داحِسُ

أما علمتْ أنّي وإنْ كنتُ عاجزاً سينصرُني شهمٌ من الترك فارسُ

طويلُ نجادِ السيف يَوْمَ كريهةٍ إذا قصّرت عنها الكماةُ العوابس

إذا خفقَتْ في البحث راياتُ فكره تَلَتْها جيوشٌ للطعان تداعسُ

كثيرُ رماد القِدْر دانٍ نوالُه وليس على أبوابه الدّهْرَ حارسُ

إذا عَصَفتْ نحو القفار رياحه سقاها الحيا والهاطلاتُ البواجس

فيا أبنَ الكرامِ الأقدَمين ومَنْ له علاءٌ على هَام السّماكَيْنِ جالس

نظمتُ عقوداً من علاك استَفَدْتُها وأقبسني من نور وَصْفِكَ قابسُ

(١٤٧ آ) فَدُونَكَها كالزّهْرِ تُجْلى لناظرٍ كما جُلِيَتْ في الروض منه عرائسُ

فانْ صادَفتْ منك القَبولَ فحسبُها … فخاراً به طولَ الزمانِ تُنافسُ

عسى السيّد المولى يكاتبُ عَبْدَهُ … ليرتاضَ دهرٌ بالأحِبّةِ شامِسُ

وَشرِّفْ بنظمٍ قدْ حكَتْهُ أزاهِرٌ … نواضرُ لم يقطفْ جَناهُنَّ لامسُ

فأنت حياةُ الفضْلِ[1] تُنْشرُ ميتَه … إذا ما عَفتْ تلك الدروسُ الدوارسُ

ولا زالت الآدابُ منك نواضراً … مدى الدّهْرِ لا تذوى لهنَّ مَغارس

فكتب مولانا المرحوم درويش افندي الجواب ، وأجاد في الصواب ، راجياً لطف الملك الوهاب :

أتتْ تَنْثَني كالغُصْنِ والغصنُ مائس … وترنو بطَرْفٍ أوْطفٍ وهو ناعسُ

رَداحٌ بخوطِ البانِ تُزْري رَشاقةً … وتهزأُ بالخَطِيّ حين تقايسُ

من القاصراتِ الطَّرْفِ مَهْضومةُ الحشا … لطيفةُ طيّ الكَشْحِ هَيْفاءُ آنسُ

يَفوقُ سناها البدرَ ليلةَ تِمِّهِ … ويأوي لِداني أُفْقِهِ وهو ناكسُ

إذا ما رَنتْ نحو الحليمِ استَفَزَّهُ … هوىً واستمالتْهُ ظُنونٌ هَواجِسُ

أتتْ منزلي تختالُ والليلُ دامسٌ … كما زادني وَهْناً حبيبٌ يُوانس[2]

فما الرَّوْضُ بالأزهار كَلَّلَهُ النّدى … كما كَلَّلَتْ تيجانَهُنَّ عرائسُ

بكاهُ الحَيا حتى تضاحَكَ نَوْرُهُ … وحنّتْ عَزاليْها عليه البواجِسُ

---

(١) هـ « العلم » .

(٢) ب « موانس » وهذا البيت ساقط من هـ .

كَسَتْه يدُ الوسميّ[1] بُرْداً كأنّما   حَبَتْهُ بأنواعِ التصاويرِ فارسُ
فأصبح غِبَّ القَطْرِ يزهو كجنّةٍ   جنيٌّ جنَاها لم يُصافِحْهُ لامسُ
به الزهرُ في الأكمامِ يسطعُ نوره   كزُهْرٍ لها سيفُ المَجرّةِ حارسُ
يطوفُ به واشي النسيمِ فتنْثني   غصونٌ رُباها الهيفُ وهي موائسُ
وقام خطيبُ الدوحِ فيه مُغرّداً   عليه قميصٌ حاكه الطَلُّ وارِس[2]
تُجاوِبُهُ وُرْقٌ بألحانِ مَعْبَدٍ   وتشدُو على الأغصانِ وهي أوانسُ[3]
تُذكّرُني عَهْدَ التصابي فأنثني   وفي القلْبِ مِنْ فرْطِ الغرامِ وَساوِسُ
بأحسن منها بهجةً حين أقبلَتْ   وحَيّتْ كما حَيّتْ ظِباءٌ كوانسُ
وكيفَ ومَنْ وَشّى معاطِفَها فتًى   نَمَتْهُ الى نَحْوِ المعالي مغارِسُ
(١٤٧ب) رَقى مِنْ ذُرى الآدابِ أرْفعَ هضبةٍ   فَمَنْ ذا يُضاهيهِ ومَنْ ذا يُجانسُ
فيا ابن الأُلى شادوا الفخارَ بعزمهم   وليس لهم في غيرِ مَجْدٍ تنافُسُ
بَعثْتَ عقوداً بَلْ جُماناً منظّماً   حكى دُرَّ دمعي حين بانَ المُجالِسُ
وكلّفْتَني عنه الجوابَ وحَبّذا   سؤالٌ ولكن أين منّي تجانُسُ ؟
أجِبْتُكَ بالرضراضِ عنْ دُررٍ حكَتْ   عرائسَ زَهْرٍ قد جَلَتْها الحنادِسُ

---

(١) هـ « يد الأنواء وشياً » .
(٢) ب ، م « دارس » .
(٣) هـ « موائس » .

فَإِنْ يَكُ منه ما يروقُ لِناظِرٍ　　فإنّي له مِنْ نورِ وَصْفِكَ قابِسُ
فدونَكَهَا تمشي الهُوَيْنا وتَنْثَني　　حياءً وطَرْفُ العَيْنِ منها يُخالِسُ
إلى بابكم ترجو القبولَ تَفَضُّلاً　　عساها بقُرْبٍ منكَ تَحْظى وتأنسُ
فلا زلتَ بالآدابِ تُتْحِفُ صاحباً　　مدى الدهرِ ما طَنّتْ بعلمٍ مدارسُ
وما ناح قمريٌّ الرياضِ مُغَرِّداً　　فَحَنَّ مَشُوقٌ نازحُ الدارِ آيسُ

قلتُ : وقد راسَلَ كثيراً من علماءِ عصره ، وكاتَبَ جملةً من أدباء مِصْره ، وأجابوه على الوَزْنِ والقافية ، ومدحوه بالجملة الكافية ، وغالبُ المراسلات ، في مجموع جمعه وسماه « السانحات »[1] ، ولقد باعوا كتبه بعد مماته ، وطلع للناس كتبٌ فيها كان قد استعارها حالَ حياته ، وبيعت كتبُه مختلفة الأثمان ، فمنها ما بيع بالزيادة ومنها ما بيع بالنقصان .

ولقد أخذت منها « حاشية الكشاف للسعد التفتازاني » ، و « حاشية المواقف[2] للمولى علي الخراساني » ، وغير ذلك من كتب الأدب .

ولعمري لقد اجتهد في الفن المذكورِ ودَأَب ، حتى استُحْسِنَتْ قصائدُه ، وسارَتْ شوارِدُه ، وكان مائلاً إلى قصيد[3] ابن أبي الحديد ،

---

(١) هو سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر . لم يُطبع . ورأيت منه مخطوطة في لينينغراد في مكتبة الكلية الشرقية .

(٢) هـ « حاشية المولى للمولى . . . » .

(٣) هـ م ، ب « قصد » . والمعروف أن لابن أبي الحديد « القصائد السبع العلويات » طبعت بمصر سنة ١٣١٧ في مدح آل البيت . ولعله يشير إلى هذه القصائد .

ذكراً لها بالكتابة والنشيد ، وكان له تشيّع لطيف ، وحبٌ لآل البيت النبويّ الشريف ، وقصائدُه مشهورة ، وفي الدفاتر مسطورة .

وكان قد كتب من الروم قصيدةً إلى دمشق الشام وخصّني بإرسالها إليّ دون أهل الشام ، وذكر فيها علماءَ الشام قاطبة ، وإنْ لم يكن بينه وبين بعضهم مناسبة ، ومطلعها :

أَنُسَيْمَةَ الروضِ المطيرِ بالعهد من زَمَنِ السرورِ

إلى أن قال ذاكراً للفقير ، المعترف بالقصورِ والتقصير :

(١٤٨ آ) وأبو[1] الضيا حَسَنٌ إما مُ الفَضْلِ والجود الغزيرِ

أدب يروقُكَ مثل زَهْـــر الرّوْضِ غِبّ حياً مَطيرِ

عَجَبــاً له فاقَ الأوا ئلَ وَهْوَ[2] في الزمن الأخيرِ

وقال في ذكر أمراء دمشق :

ومُشَيّدي أركانِهـــا أمرا مُعلّمها الخطيرِ

منهم جنــابُ الطالو يّ سليلُ أُرْتُقَ ذي السريرِ

في الحرْبِ كالليْثِ الهصُو رِ في السّلْم كالغَيْثِ المطيرِ

مُحْـيي[3] مكارمَ حاتِمٍ بين الأنامِ بلا نكيرِ

---

(١) هـ « وأبي » .

(٢) « وهو » ساقطة من هـ .

(٣) هـ « يُحيي » .

والمَنْجَكيُّ مُحَمَّدُ السا مي على الفلـكِ الأثيرِ
فَهْوَ الأميرُ ابنُ الأميـــرِ ابنِ الأميرِ ابن الأميرِ

قلتُ : وقد أرسل الى دمشق قصيدةً فريدة ، متضمنة لأبيات حميدة ، وخصّ بها المولى الأمجد ، والماجدَ الأسعد ، الكاملَ المُعين ، الدفتريُّ محمد أمين . وهي في الحقيقة أنيقة ، سُقيت بماء السليقة ، وهي هذه :

سلامٌ كَرَيّا المِسْكِ والعَنْبَرِ الوَرْدِ على مَعْهَدٍ بالشام طالَ به عهدي
مغاني التي عاطيتُ مشمولة الهوىٰ بها[1] غضّةَ الأطرافِ ناعمةُ الخدّ
مراد الفتاة الرّودِ من سِنْخِ المـهَا ومغنى الغواني من سُعادٍ ومن هِنْدِ
سقى العهدَ عهدي منها بَلْ سقاها سحابٌ ونُوّي لا أرى مِنّةَ العهد
ألا لَيْتَ شِعْري هل سَقَى المُزْنَ منزلاً بجلّق أوْ جادَ الحيا رَبْعَها بعدي
وهل باكر الوسميُّ داراً على اللّـوىٰ لَبِسْتُ بها شَرْخَ الصّبا حالكَ البُرْدِ
أُلِفْتُ به حُسّانَةَ الجيدِ ناعماً يشفّ مهاه الجَوْن من جَوْهرِ العِقْدِ
تضايش حرّ الصبا بَرْد ظلّه وتأوي الى أفياء أغصانه المُلْدِ
زمانٌ به ريحانة العمر غضّةٌ ترفُّ رَفيفَ الأقحوانة والرّندِ
وإذْ أنا خِدْنٌ للصبا وذُؤابتي حبالةُ رِيمٍ من مَهَا الأجْرعِ الفَرْدِ
سقىٰ الله أيّامي بها وسَقى الهوى مغانٍ بها وجدي القديم بها وجدي

(١) ب ، م « بها » .

وخصَّ مغانٍ[1] من دمشق ومنزلاً ... أحبُّ الى المشتاق من جَنّةِ الخُلْدِ

(١٤٨ب) فبالجانبِ الغربيِّ منها معاهدٌ ... لأتراب هِنْدٍ[2] من سُلَيْمى ومِنْ دَعْدِ

بدورِ سماءِ الحسنِ أقمارِ بَهْجَةٍ ... منازلُها قلبي على القُرْبِ والبُعْدِ

لبستْ بها رَوْقَ الشباب طرازه ... هوى كلّ ذاتِ الدَلِّ ميّاسَة القدِّ

من الربرب اللائي نشأْنَ[3] مع الهوى ... بأفياء سَرْحٍ[4] وارفِ الظلِّ ممتَدِّ

تهادى أناةَ الخَطْوِ نَشْوى من الصبا ... وفي اللفظ[5] سِحْرٌ منه هاروتُ يستجدي

تُريكَ على مِثْلِ الكثيبِ إذا مَشَتْ ... قضيب نَقاً أوبانةً في رُبا نَجْدِ

وإلاّ بروْضِ الحائريّ[6] أراكةٌ ... سَقَتْها عهاد الوحي موصولة العَهْدِ

على مَنْ بهِ صلّى الإلهُ وقَدَّستْ ... حضائره الأملاكُ عَنْ موقفِ الضِدِّ

لها أرَجٌ قدْ طَبّقَ الكونَ نَشْرُهُ ... فمنه لعمري نكهةُ الوردِ في الوَرْدِ

من النافثاتِ السّحْرَ في عقَدِ النهى ... وفي لَحْظِها ماليس في الصارمِ الهِنْدي

لها بشر الدرِّ الذي قلّدته مِنْ ... دموعي فَوْقَ النّحْرِ والصدرِ والنهْدِ

---

(١) هـ « مغنى » ، ب ، م « معانا » .

(٢) هـ « سلمى » .

(٣) هـ « نشأه » .

(٤) هـ ، ب « سرخ » خطأ . والسَرْح كل شجر طال (القاموس) .

(٥) ب « اللحظ » .

(٦) هـ « الجابري » .

تَسَاقطَ في لبّاتِهـا مُتناثِراً كما انتثرتْ يوماً لآلئ من عِقْدِ

غداةَ رأتْ أنّ الفراقَ مُحتّمٌ وقد أزمعتْ خوص[1] الركاب بنا تخدي

فَخَرّت حذارَ البَيْنِ صرعى إلى الثرى فألحَفْتُها[2] بُرْدي وأفرَشْتُها خدّي

إلى أن أفاقتْ من رسيس هوى بها وقد أضرمتْ أحشاءها جمرةُ[3] الوقْدِ

تقاضتْ رُجوعي ثم قالتْ متى اللّقا فقلتُ متى شاء الأمينُ أخو المجْدِ

مُحمّدٌ أعني السابقيُّ الذي له حياتي ونُصْحي والحفيظةُ من وُدّي

أمينٌ على حفظ الوداد مُهَذّبٌ كريمُ السجايا صادقُ القوْلِ والوَعْدِ

من القَوْمِ حازوا السّبْقَ في حَلْبَةِ العُلى وقد ذُكِروا في الذِكْرِ في مَعْرِضِ الحَمْدِ

هُمُ السابقونَ الأوّلونَ ولن ترى لهمْ في سماء الجودِ والمجدِ من ندِّ

سَموْا نحْوَها فاستَنْزَلوا النسرَ طائراً من الأفْقِ واحتلّوا ذُرى أنجمِ السّعْدِ

بكلّ فتىً من بأسه يوم حربْه له قامةٌ تُغْنيه عن لامَةِ سَرْدِ

إذا وردتها البيضُ والسُمْرُ صَدّها[4] عن الوِرْدِ ما تلقاه من أَسَدٍ وَرْدِ

وما مِنْهُمُ إلاّ أغرّ مُحجّـلٌ رفيعُ عمادِ المجْدِ حامي حيا الرِفْدِ

---

(١) ب « فرس » .

(٢) هـ « فالحفتُها » .

(٣) م ، ب « جرّة » .

(٤) هـ « ضدها » .

أحبّتنا بالشام والدارُ غُرْبَةٌ ... وصرفُ النّوى مازال يعبثُ بالصدّ

(١٤٩آ) لئن حال ما بيني وبين لقائكم ... أراذيُّ طامٍ[1] أزرقُ الماء مُرْبَدُّ

يكظُّ على تيّارهِ مُتلاطِماً ... إذا ضَرَبَتْهُ الريحُ صَخّابة الرعْدِ

كأنَّ الجواري المُنْشَآت هوابطاً ... به فتح ربد قَدْ تَهَاوَتْ الى وَهْدِ

وتصعدُ في تيّارهِ فكأنّها ... كواسِرُ فتح تبتغي الوكرَ في فَنْدِ

ومجهولة الأعلام طامسة الصّوى ... يضلُّ القَطَا الكدري فيها عن الورد

تساقطُ فيها الريحُ حسْرى من الوجا ... ويقصر عن غاياتها سابقُ الرّبد

تَعَسّفْتُ كلاً منها فوق سابحٍ ... وسابحةٍ لا تسأمُ الدّهرَ من ورد

ولم آلُ جهداً في الذي أنا طالبٌ ... ولكنّها الأيامُ غالبةُ الجهْدِ

فإنّي لأرجو جَمْعَ شَمْلي بِقُرْبِكمْ ... على حُسْنِ حالٍ لم تُرَع بنوى صَدِّ

بجلّق مغنى اللهوِ دارٍ ألفتُها ... ويمسي بها نوّاره في ثرى جَعْدِ

وظِلُّ شبابي وارفٌ وجناهُ به ... مُرادُ الظِّبا من كُلّ حُسّانةِ الخَدِّ

تَبَسّمُ عن مثلِ الأقاحي يُعَدُّ من ... جَنَى النَحْلِ ممزوجاً بِراحٍ من الشهد

على ساكنيها من خليلٍ وصاحب ... سلامٌ كريّا المِسْكِ والعنبرِ الوَرْدِ

يُعَطِّرُ وادي النَّيْرَبَيْن نسيمُهُ ... ويثني خزامى الروض فيه على الرند

(١) هـ « اراذي أكام » ، ب « اراذي كام » .

قلتُ : وشعرُه كثير ، وإنشاؤه غزير ، وهو موجود في أيدي الأدباء تتناقله عُصْبَةُ النجباء ، فرحمه الله رحمةً واسعة ، وأمطر عليه سحائب رحمته الهامعة .

ومن شعر مولانا درويش أفندي المذكور ما كتبه لحضرة الأمير محمد ابن منجك من دمشق الى البقاع العَزِيزيّ ، وفي الشعر السلام على ابن حضرة محمد أمين أفندي ، الدفتري بدمشق سابقاً ، وعلى حضرة الوزير الكبير الكامل الأمجد ، السيد محمد ، والي ولاية دمشق الشام ، سقاها صوب الغمام ، وكان مخيِّماً [١] بالبقاع العزيزيّ لمُهِمٍّ سلطاني ، وهذه صورة ما كتب :

بالله يا نَشْرَ العبيرِ ... سيرى بِرَوضاتِ الغَرِيّ [٢]

طافَ المشاهدَ وأُنْثَنى ... نشوانَ من كأسٍ رويّ

ينحو بأعلى الكَرْخِ داراً ... جادَها عَهْدُ الوَليّ

وأقام بالزوراء منها ... في رياضِ الحائريّ [٣]

(١٤٩ب) متنزَّل الآي الكريـ ... ـمة مهبط الوحْي السَّنِيّ [٤]

إنْ جُزْتَ من أرضِ العرا ... ق على المناظر في مُضِيّ

---

(١) ب ، ه « مقيما » .

(٢) في المحبي « المري » .

(٣) ه ، ب « الجابريّ » ؛ نفحة « الخابري » .

(٤) نفحة « متنزل الآي الكريم ومهبط ... » ؛ وفي هامش ه بخط حديث « يتأمل معنى هذا البيت فظاهره كفر » .

وأتيتَ ربع الشام مُجْـتا ... زَ الفُرات الى ثديّ
وشهدتَ من عَلْيا البقا ... ع مُنازلاً لكرام حيّ
نَزَلُوا به فَسَما بهم ... وادي القُرىٰ وديارُ ميّ
ولقيتَ من لُبْنان أرْ ... واحَ النسيمِ العنبريّ
تُذْكيهِ فاغمـةُ الريا ... ض بمندلِ الشِحْر[1] الذكيّ
قُلْ للأميرِ ابنِ الأمـ ... ـيرِ ابنِ الأمير المَنْجَكيّ
مُعْلي المعـالي والعوا ... لي في الوغىٰ، مُرْدي الكميّ
مُحْيي مكارم جـدّ ... ه الأعلى الكبير اليوسفيّ
متفضّلاً يُقري السلا ... م كخلقه الزاكي البهيّ
أعني[2] جنابَ أخي الودا ... د الأبهريّ الدَفْتَريّ
أعني محمداً الأمـ ... ـين[3] نصيرَ أنصارِ النبيّ
سَبّاقَ غاياتِ العُـلىٰ ... ركنُ المعالي السابِقيّ
مِنْ معشرٍ سبقوا إلى الـ ... ـخيراتِ بالنصّ الجـليّ
يا صـاحبيّ وُقِيتُما ... شَرّيْ حسود كما الغويّ
وهباكما عصر الشبا ... ب نشاطه من غير عِيّ

(١) ب ، م « السحر » .
(٢) ب ، م ، هـ « عنى » .
(٣) ب ، م ، هـ « محمد الأمين » .

إن جئتما لمخيّم المولى الشريف الموسويّ

ووقفتما بسُرادقٍ حازَ السيادةَ مِنْ قُصَيّ

فتحمّلا مني السلام كمِسْكِ دارينَ الزكيّ

لجناب مولانا الوزير وليّ[1] مولانا عليّ

وابن الأئمةِ من قريشٍ في ذرى الشرفِ العليّ

فهو الشريفُ ابنُ الشريفِ ابنِ الشريفِ الهاشميّ

ثم اذكرا[2] من حال مَوْلاه المحبّ الطالويّ[3]

جملا فما تفصيل حال العبد عنه بالخفيّ

ذَكَرَتكما الأنواء ذكري بالغداة وبالعشيّ

وبقيتما في ظلّ عيشٍ وارفِ النعمى هَنِيّ

(١٥٠آ) وقد[4] أنشدني لنفسه مُعَمِّراً محمدچابي الزعيم الشهير بقره تاش:

أغار عليك من مُوسى السيوري ومن قره‌تاش ذاك الفتنة خُوري

---

(١) ساقطة من ه .

(٢) نفحة « ثم اشرحن » وكذا في المحبي .

(٣) بعد هذا في النفحة :

ماذا لقي في ثغر صيدا من دروزيّ غويّ

دينُ التناسخ دينه لا بل يدين بكل غيّ

ويرى الطبائع أنها فعّالة في كلّ شيّ ...

والقصيدة هناك تتمة طويلة ، وقد نقلها المحبي أيضاً ١٠٤/٢ .

(٤) قوله : وقد أنشدني ... إلى آخر الكلام لا يوجد في « ه » .

١١٦

درويش ولي الموستاري

نسبة إلى موستار وهي قصبة في [1] أقصى أرض الروم

وهو لنا صاحب صادق ، وتلميذ مُصادق ، صالحٌ فالح ، فاضلٌ كامل ، اجتمع بنا في دمشق ، وقرأ علينا كثيراً في المعاني والبيان ، وقرأ عليّ « شرحي » لديوان الأستاذ الشيخ عمر بن الفارض رضي الله عنه . ثم إنّه سافر إلى الحجّ إلى بيت الله الحرام ، وجاور بمكة والمقام ، وكان معه كتابٌ مجموع ، فيه فوائد كثيرة ، بخطنا ، فرأى المجموعَ المذكورَ رجلٌ فاضلٌ بمنى يُقال له عليّ بن ادريس الصنعانيّ ، نسبة إلى صنعاء اليمن ، فكتب تحت خطنا الفاضلُ اليمني المذكور من نظمه هذين البيتين وهما :

وقفتُ على لفظٍ وخَطٍّ كأنّه ... من الدُرِّ منظوماً وللروضِ منسوبا

فوفّيْتُهُ مِنْ مَدْحِهِ بَعْضَ حَقّهِ ... وإنْ لمْ أكُنْ يوماً الى الفَضْلِ منسوبا

---

(١) ه ، ب « من » .

١١٧

درويش آغا (١)

ضابط القابي قولي الذي عُيّنوا من جانب السلطنة العلية مع الوزير أحمد باشا الحافظ محافظ دمشق الشام ، والسردار على العساكر ، لقتال الأمير اللعين ، فخر الدين بن معن . وهو رجلٌ بُسْنَوِيّ الأصل ، له وقارٌ وعقل ، وقد عين من جانبه سردارَ الباب زعيمَ المدينـــة الدمشقيّة ، والصالحية . وسردار المحكمة قاضي القضاة . وعَيَّنَ في كلّ شارعٍ من شوارعِ دمشق الشام بلوكباشي وصحبته بعض أنفارٍ من القابوقلية ، وهم يدورون على الدكاكين ويأخذون من كل دكانٍ قطعةً . ثم زاد الأمرُ على ذلك من الظلم ، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة اثنتين وعشرين وألف من الهجرة النبوية ، على مهاجرها ألف تحيّة .

---

(١) هذه الترجمة ساقطة من ب ، هـ ، والظاهر أنه أضافها سنة ١٠٢٢ هجرية .

حرف الراء

١١٨

الشيخ رشيد بن نعيم[(١)]

شيخ العرب المعروفين بالسرديين ومضاربهم من البلقاء إلى العُلا

أعان الملاقاة التي ذهبت للحج في سنة ثماني عشرة بعد الألف . فرام عسكر دمشق أن يعطوه إمارة العرب في أرض حوران . فانتصر عليه عمرو بن جبر شيخ عرب المفارجة وكسر جماعتـــه في المحاربة في السنة المذكورة . وكانت (١٥٠ ب) إمارة العرب المذكورة في يد عمرو المذكور ، واستمر رشيد راجياً للإمارة . فأرسل ولديْ أخيه هما : أحمد وشويمي إلى جانب الشام ، وأحدهما أمرد بغير لحية والثاني ابتدأت لحيتُه في الطلوع ، وهما كالبدرين الكاملين والغُصْنَيْن اليافعين ، لهما جمالٌ مُفْرِطٌ إلى الغاية ، وحُسن زائدٌ الى النهاية . فأمّا أحدهما وهو شويمي فقد سار الى جوانب حماة ليجتمع بالأمير شديد أمير آل حيار ، فطُعن وجاء مطعوناً ، فأدركتْه الوفاةُ في جانب غوطة دمشق الشام في قرية قبر الست ، وهي قريةٌ بالقرب من دمشق ، بها قبرُ السيدة زينب بنت الحسين بن علَيٍّ عليهم رضوان الله تعالى .

---

(١) هـ « رشيد بن سلامة بن نعيم » ، ب « رشيد بن سلام بن نعيم » .

وأما الآخر وهو أحمد فإنّه قدم دمشق الشام ونزل عند كنعان بلوكباشي المشهور ، فَطُعن الآخر ومات بعد أخيه بيوم واحد . ودُفن أحمد في دمشق فانظر إلى العجب العُجاب ، وحكمة رب الأرباب ، كيف جاء الإخوان إلى الشام ليدركا دولة الدنيا فأدركا شهادة الآخرة . فسبحان الحيّ الذي لا يموت ولقد حضرني في ذلك قول الشريف الرضي :

يا تغلب ابنة وائلٍ مالي أرى

وإلى آخره وهي في ديوانه (١) .

---

(١) هذه الترجمة تختلف تماماً في ه ، ب ، عما هي عليه في «م» وهذا نصها في ه ، ب .

رشيد بن سلامة بن نعيم . كبير الطائفة السردية من المفارجة .

صارت في أواسط صفر سنة اثنتين وعشرين وألف محاربة عظيمة بينه وبين عمرو ابن جبر كبير الطائفة الثانية من المفارجة . وكانت الوقعة بالقرب من القرية التي يُقال لها جبا من نواحي حوران . وكانت الكسرة على عمرو بن جبر لكونه ثبت على بغيه ، وكان الأمير حمدان بن قانصوه أمير بلاد عجلون مع عمرو . وكان الأمير ناصر الفحيلي ، من أمراء آل مري ، مع رشيد بن سلامة السردي ، ولحق الأمير ناصر المذكور عمرواً حتى صار وراه وضربه برمح كاد يسمره ، لكن غطس على قربوس السرج حتى فاته الرمح . ورأى الأمير حمدان هارباً راهباً ، فقال له : الى أين يا فلاح ؟ إلى أين يا حضري ؟ قف حتى ادركك . فذهب لا يلوي على أحد ، ونُهِبَ مال عمرو ، ومال ابن قانصوه .

وكان عمرو المذكور ملتجئاً الى الأمير فخر الدين ابن معن أمير لواء صفد يومئذ . وقيل إن وصوله الى القرية المذكورة إنما كان لكونه قاصداً قلعة بانياس لكون الأمير فخر الدين بها . ولذلك حنق ابن مَعْن حنقاً عظيماً . ولما بلغه خبر انكسار عمرو أغذّ في السير ليدرك رشيداً قبل ذهابه ، ومعه ألف خيال وخمس مئة راجل . فلم يجده . فرجع بغبنه ، ولم يستفد من سيره سوى بقاء حقده . والأمر الى الله جلّ وعلا .

حرف الزاي

١١٩

السيد زين

نقيب الأشراف ببعلبك (١)

وهو الفاضلُ الأديب ، والصديق الكاملُ الأريب ، أرسل لي مكتوباً عند قدومي من الحجّ الشريف ، وزيارة ذلك البيتِ المنيف ، وذلك سنة إحدى وعشرين بعد الألف من الهجرة المحمديّة ، على صاحبها ألف ألف سلام وتحية ، وفي صدر المكتوب المذكور هذه الأبيات :

سلامٌ عليكم مالنا عن جنابكم ... سلوٌّ وإنْ طال التباعُدُ بالجسمِ
ففي القلب مِنْ حَرِّ التفرّق لاعجٌ ... عليّ له ما ليس للنارِ مِنْ وَسْمِ
وما أنا ممن يكتفي في وداده ... وفي حفظِه عهدَ الأحبّةِ بالاسمِ
ولكنْ تصاريفُ الزمان بأهله ... لتقديرها تجري على حسب الاسمِ

---

(١) هذه الترجمة ساقطة من ه ، ب .

١٢٠

زكريا بن خضر البقاعي العيتنيتي [١]

صاحبنا القديم ، ورفيقنا الوفيّ السليم ، الصافي في فكره ، المستقيم في سيره ومرّه ، المرحوم الفاضل ، الفقيه الكامل ، الصالح الفالح . من قرية عيتنيت ، بعين مهملة ، وياء مثنّاة من أسفل ، وتاء مثنّاة من فوق . وهي قرية من قرى شوف الحرادين ، وهي في جبل لبنان .

قدم الشيخ زكريا المذكور من القرية المذكورة في حدود خمس وسبعين أو سبع وسبعين وتسع ماية ، ومكث بدمشق مدّة بجامع الأمير منجك المعروف بمسجد الأقصاب خارج دمشق . وقرأ كثيراً وتفقّه بابن الطيبي ، وكان رفيقنا في القراءة عليه . ثم لازمني في القراءة ، قرأ عليّ العربيّة والأصلين وشيئاً من المنطق . وذهب الى مصر وتفقه بشيخ الإسلام نور الدين علي الزيادي ، وأجازه بالفتوى والتدريس بخطه ، وتولّى إعادة الناصريّة الجوانية عندنا ، وأنا مدرّس بهـا . وتولّى تدريس المدرسة النحّاسية خارج دمشق بالقرب من مرج الدحداح . ولم يزل يفيد ويستفيد ، ويبديء ويعيد ، إلى أن توفاه مولاه ، وبلّغه رضاه ، في ليلة الاثنين سادس عشر شهر رمضان من سنة عشرين بعد الألف .

---

(١) تفرّدت « هـ » بهذه الترجمة .

حرف السين

١٢١

سنان باشا

المعروف بكجك سنان

أي الصغير لأنه (١) قصير القامة في الجملة

ورد إلى دمشق حاكماً بها في يوم الخميس من أواخر رمضان في سنة سبع عشرة بعد الألف ، وهو في الأصل كان من مماليك الأمير الكبير محمود باشا المقتول (١٥١ آ) في مصر في سنة خمس وسبعين وتسع مئة . وتاريخ قتله ظالمه (٢) . وكان المذكور خادماً له ، وكذلك الوزير الأعظم مراد باشا الذي أعطى سنان المذكور حكومة دمشق كان من جملة أتباع محمود باشا المذكور . فلما كانا خادمين في باب مخدومهما المذكور تذكّر كلٌّ منهما صحبة الآخر ، فلما أنّ مراد باشا المذكور وصل إلى الوزارة العظمى ، والصدارة الكبرى ، وصار اليه(٣) الحلّ والعقد ، والقبول والرد ، أرسل إلى سنان باشا المذكور إلى مصر وطلبه . فوَرَدَ إليه في

(١) ب « وذلك لأنه » .
(٢) هـ « ظلم » .
(٣) ب ، م « له » .

حلب ، وهو مخيّم هناك لقتال الخوارج البُغاة ، بعد أن أوهى شوكة الباغي علي بن أحمد بن جانبولاد ، فجعله بمجرّد قدومه أميرَ الأمراء في بلاد قرمان .

ولقد نهضتُ من دمشق إلى حلب في صفر الخير من شهور سنة سبع عشرة بعد الألف ؛ فرددتُ إلى الوزير في مخيّمه خارجَ حلب في الشهر المذكور ، واجتمعتُ به فرأيتُ سنان باشا المذكور ملازماً له في غالب أوقاته . وكان إذا غاب يسأل عنه في غالب ساعاته .

ومن العجب انني اجتمعتُ بسنان باشا المذكور في المخيم المنصور بصحراء حلب وتذاكرنا معه السفر إلى جانب قهر الأعداء البُغاة فقلتُ له : ما نيتكم بعد كسرِ البغاة ؟ فقال : نيتي أن أسير إلى مصر لأن وطني بهــا ، ووطري في جوانبها .

وطني مصرُ وفيهــا وَطَري ولعيني مشتهاها مشتهــاها[1]

وشرع يذكر ما له بمصر من العلائق ، وما له هناك من الأموال والعقارات والدواب والخيول ، والمدخول ، ويقول : أنا لي في مصر ملاذٌ ونعيمٌ لا يكون إلا للسلاطين .

فقلت له : إنما تسير من هنا إلى دمشق حاكاً بها .

فأخذ يُبعِّد ذلك ، ويقول : ما خطر لي هذا المعنى ولا ترقبت همّتي ، وأنا أحلفُ له أنّه لا بُدّ أنْ يُردّ إلى دمشق حاكاً بها فعند ذلك

---

(١) في هامش هـ : « هذا البيت للشيخ ابن الفارض المصري . والمشتهى مسجد بمصر كان الشيخ كثير التردّد اليه »

سكت ، ومَدّ يده اليّ وقال : عاهدني على الاخوة الكاملة الصادقة . فمددتُ يدي اليه وعاهدته عهد الله على أن يكون أخاً لي في الدنيا والآخرة ، وقرأنا الفاتحة على ذلك .

فإن قُلْتَ : من أين علمت أنه يتولّى حكومةَ دمشق ؟

قلتُ : كنتُ قد رأيتُ وأنا في حلب أن باب دمشق قد أُغلِقَ ، ورأيتُ سنان باشا المذكور أخذ مفتاحه بيده ، وورد إلى الباب وفتحه ، ودخل راكباً إلى المدينة ومعه جماعةٌ مستكثرةٌ .

فلما أخذ حكومة دمشق في السادس والعشرين من رجب من سنة سبع عشرة تَذَكّر بشارتي ، وفهم حقيقة إشارتي ، فأرسل إليّ مكتوباً (١٥٢ ب) من نواحي توقات يخبرني بما صدرَ له من إعطاء الحكومة المذكورة ، وتذكّر ما صدر بيني وبينه من البشارة والأخوّة .

وكان دخوله إلى الشام في يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر رمضان من سنة سبع عشرة .

ولما دخل إلى مدينةَ دمشقَ في التاريخ المذكور كنتُ جالساً للتفرّج على دخوله في شبّاك جامع مَنْجَك ، في محلة مسجد القصب . فاتفق انه ضَرَبَ بطرفه فرآني ، فالتفتَ غايةَ الالتفات ، وضحك وتبسّم وسلّم ، ووضع يده على رأسه وتعجّبَ الناسُ من التفاته في موكبه ، والعساكر محدقةٌ به في موكبه .

ودخل إلى دار الحكومة بدمشق ، وسَلّمْتُ عليه عشية يوم دخوله فوجدتُ عنده قاضي القُضاة ابراهيم أفندي الازنيقي[١] ، المنفصل عن قضاء دمشق حينئذ ، ومعه تاج الدين أفندي الشهير بابن تاج الدين القاضي سابقاً بمدينة حماة . فلما رآني قام وطفق يمشي لاستقبالي . فلما تلاقينا اعتنقني

(١) هـ « الأرنيقي » خطأ .

وجعلني يقبّل وجهي وجبيني وجلسنا معه ، فحكى لابراهيم افندي المذكور ما صدر بيننا في المخيّم ، وما بشّرتُه به من دخوله إلى دمشق حاكماً بها ، وذكر أنه لم يكن ذاك في خاطره ، ه لم يخطر يوماً في خاطره .

واستمرّ الكلام يدور إلى أن قرب وقـ الغروب فقمنا من عنده .

وهو يوم تاريخه مقيم بدمشق حاكماً بها . وله مع الخلق ملاءمة وملاطفة ، لا سيّما الأعيان والأمراء والعلماء .

وقد صدر منه أنه في ليلة الاثنين خامس شوال من السنة المذكورة قتل نحو خمسة عشر رجلاً من السكبانية (١) الذين كانوا معه : وذلك أن الوزير لما انتصر على البغاة السكبانية ، وهزم أكابرهم ، ولم يزل يطردهم إلى أن أخرجهم من فلك آل عثمان ، وأدخلهم في ملك شاه للعجم عباس ابن خداي بنده . اختفى بعضهم في نواحي حلب وبعضهم في نواحي الشام فأطلع بعضهم سنان باشا صاحبَ الترجمة فاعتقل منهم جماعةً وقتلهم بعد دخوله إلى دمشق ، فما أصبحوا إلاّ وهم مقتولون ، وفي كل ناحيةٍ منهم جسدٌ مطروح .

واختلفت الأقاويل في سبب قتلهم . فمنهم مَنْ قال : إنّ قتلهم لكون الوزير الأعظم قد عهد إليه في ذلك . ومنهم من قال : إنّ عند العسكر منهم طائفة فقال لهم : اقتلوهم . فقالوا : لا نقتلهم حتى تقتل من تحت يدك منهم .

وبيت سنان باشا الآن في مصر ، وأولاده كذلك ، وهو في دمشق (١٥٢ آ) حاكماً بها .

واقد أخبرني من لفظه أن بيته بمصر على بركة الفيل ، وأنه لا نظير له . وقال لي : معيشتي بمصر في غاية الرَغَد ، وأنه بها ناعم البال ، عديم البلبال .

---

(١) ﻫ « السكمانية » .

والمطلوب من الله تعالى أن يعينه على حفظ الرعايا ، وحراسة البرايا ، فإن الحاكم هو قلب رعيته ، وهو المعينُ لهم بحسن نيته ، والحمد لله وحده .

قلت : وقد كانت فرقة من عرب آل جبار المعروفين بأولاد أبي ريشة قد نفروا من العراق بعد موت أميرهم الأمير أحمد بن أبي ريشة ، فوصلوا إلى نواحي تَدْمُر ، وانضمّ اليهم قوم من طائفة السكبان الذين هربوا من وقعة عليّ بك ابن جانبلاط ، فعاثوا في تلك البلاد ، وأكثروا في الأرض الفساد ، ومهّدوا لأقرانهم مهاد النجاة ، فما كان إلاّ مهاد الهلاك ، وقطعوا الطريق ، وأخافوا الرفيق ، وكفروا بنعمة مولاهم ، الذي بنعمه أولاهم .

ولما ورد من حلب العسكر المصري الذي كان قد طلب بموجب الأمر المطاع السلطاني ، لقتال كبير السكبانيّة محمد بن القَلَنْدَر والأسود سعيد الشقي ، فوردوا إلى حلب ثم إلى بلاد البستان . فكان الوزير الأعظم مراد باشا رأس العساكر السلطانية ، فالتقى جيش السلطان مع جيش البُغاة وكبيرهم محمد بن قَلَنْدَر وسعيد الأسود ، فكان النظر يجزم بأن عسكر البغاة يغلب عسكر السلطان فاقتضت القدرة الإلهيّة ، والحكمة الأزليّة ، أن عسكر السلطان قد غلب وكسر عسكر البغاة ، وهرب بقيّة السيوف .

ومن جملة الذاهبين والهاربين الجماعة المذكورون ، وكانوا في العدد نحو أربع مئة سكبان ، فلما انضموا إلى العرب المذكورين كان السكبان يضربون بالبندق ، وكان العرب يضربون بالرماح والسيوف ، وأخذوا قلعة القسطل ، وقلعة القُطَيِّفَة ، ونهبوا المعيصرة ، وقتلوا بها من الرجال والنساء ما يزيد على عشرة أشخاص . فلما بالغوا في القتل والنهب والغارة والعداوة والطغيان قصدهم العسكرُ الدمشقيُّ وأميرُ الأمراء بدمشق يومئذ سنان باشا المذكور فنهض العسكرُ الدمشقيُّ ومَن انضم إليهم من عرب المفارجة وكبيرهم

عمرو بن جنبُر ، فأدركوا العرب والسكبان في نواحي قلعـــة القطراني ، فقتلوا من السكبان نحو ثلاث مئة رجل ، وأمسكوا منهم نحو خمسين رجلاً ، ودخلوا بهم إلى دمشق راكبين الجمال ، وعلى كتف كلّ واحد منهم خشبة (١٥٢ ب) طويلة هي خازوق له

فلما دخلوا إلى دمشق في يوم الخميس خامس ذي الحجة من شهور سنة سبع عشرة بعد الألف ظهر أهل دمشق لاستقبالهم ، ولم يبق في المدينة مُخدّرة في خِدْرها ، ولا محميّة وراء سترها إلاّ وقد خرجت لنظر القوم المذكورين .

وفي اليوم الثاني أتلفوهم بالخازوق ، وفرقوا أجسامهم على المحلاّت بدمشق . ومن العجب أن واحداً منهم كان أقْرَعَ أشقر ، لما ضُربَ الخازوق في بدنه كان يطلب الماء فلا يُسقَى . ثم إنه في الليل هرب من الخازوق ومشى من تحت القلعة إلى أن دخل في سوق برا فوُجد في الصباح ميّتاً وهو إلى القبلة ، وما علم الناس كيف نزل عن الخازوق مع أنّه مربوطُ اليدين موثقُ الرجلين .

والحاصل أنّ سنان باشا المذكور أُعْطِي من السعد في هذا الباب ما لم يُعْطَ لأحدٍ من الحكام . سار من دمشق إلى أن وصل إلى قلعة القطراني ، وهناك اصطف الموكبان ، واصطدم الجيشان ، واقتتل الفريقان ، وتقابل الجمعان . ثم إن الله تعالى أرسل الخذلان على جيش البغاة ، وقتل من السكبان ما يزيد على ثلاث مئة رجل ، وقُطِعَتْ رؤوسهم ، وحُملت إلى دمشق ، ودخلت على رؤوس الرماح ، وكان دخولها يوم الخميس خامس ذي الحجة من سنة سبع عشرة بعد الألف وأتوا بخمسين رجلاً من السكبان وقتلوهم بالسياسة الشنيعة ، والهيئة الفظيعة والحاصل أنه لم يسبقْ أحدٌ بمثل هذه النصرة العظيمة .

وقد أخبرني سنان باشا المذكور من لفظة ليلة الاثنين تاسع ذي الحجة المذكور أنه رأى بعينه رجلين من السكبان وجّه كل منهما بندقيته إلى الآخر وقتل كل منهما الآخر عندما تحقّقوا الخذلان ، خوفاً من السياسة العظمى . وأخبرني أيضاً أن رجلاً منهم كانت زوجتُه معه ، فلما تحقق أنهم مأخوذون قتل زوجته بيده ، وألقاها في البريّة خوفاً من وقوعها في يد العساكر السلطانية . وبالجملة فالحمد لله على هذه النعمة العظيمة ؟ التي أوجبت الفرجة الجسيمة ، في البواطن السليمة ، والقلوب المستقيمة .

وفي المحرم ورد الخبرُ من باب السلطنة بعزل سنان باشا المذكور عن ولاية الشام ، وإعطائه حلب ، وأعطوا الشام لرجلٍ من داخل بيت السلطنة يُقال له حافظ أحمد باشا . وقد ورد المتسلّم عن أحمد باشا المذكور في أوائل المحرّم ، وقالوا إنّه رجل مليح .

| وإذا جاء إلى دمشق كتبنا له ترجمة إن شاء الله تعالى |[1] .

---

(١) ما بين الخطين ساقط من هـ ، ب . وقد وردت ترجمة حافظ أحمد باشا في الجزء الأول ص ١٩٨ .

١٢٢

الشيخ سعد الدين بن سعد الدين

الذي صار الآن شيخاً في طايفة بني سعد الدين .

لما كان [١] يوم السبت عاشر جمادى الأولى من شهور سنة اثنتين وعشرين بعد الألف صدرت جمعية كبيرة عن الشيخ المذكور . وسبب الجمعية أن الشيخ صاحب الترجمة [٢] زوّج ابنه الشيخ موسى لابنة عمّه الشيخ محمد بن محيي الدين بن حسن بن الشيخ حسين ، واجتمع بابن أخيه الشيخ كال الدين في بيت الشيخ كال الدين وصالحه هناك ، وكان بينهما المقيم المقعد ، فحضر الشيخ كال الدين إلى العقد المذكور مع أخيه حسين ، وكان الاجتماع في القاعة المعظّمة التي كانت مبنية على اسم الشيخ عيسى بن محمد بن سعد الدين ، وهي في الحقيقة من محاسن الأبنية في دمشق . وكان المهر ست مئة دينار من الذهب : أربع مئة المُقَدّم ، ومئتان المؤخّر . وكان الوكيلُ من جانب الزوجة الشيخ شمس الدين الميداني الشافعي ، وكان الوكيل من جانب الزوج الشيخ شرف الدين الدمشقي الشافعي . وكان المجلسُ حافلاً ، فلذلك ارتبك الشيخ شمس الدين في لفظ العقـــد وقال للشيخ شرف الدين الدمشقي : زَوّجتُكَ موليّتي ثم قيل له ليست موليتك وانما هي موكّلتك ، وأيضاً

(١) ه ، ب « وقعت في يوم السبت عاشر جادى الأولى من شهور ... عنده جمعية كبيرة ، وسبب الجمعية ... » .

(٢) ه ، ب « ان الشيخ سعد الدين المذكور » .

أنت لا تزوّج الخاطب الذي هو الشيخ شرف الدين وإنما تزوّج موكّلَ الخاطب . فرجع وأعاد الكلام ثانياً وثالثاً ، حتى إنّ الشيخ أحمد العيثاوي صَحّح اللفظَ . وما كان المجلسُ قليلاً يُعذرُ فيه الناطق إذا تلجلج ، ولا يُلام إذا أراد أن يتوكّل فتزوّج ، وتمّ العقدُ بعد تعقيد وهو مجلس جمعَ الشيخَ والمريد . فللّه الحمدُ على كل حال ، وإليه المفزع في جميع الأهوال .

حرف الشين

١٢٣

السيد شرف الدين الحسني التبريزي
من سادات لاله بنواحي تبريز
نزيل محمد أمين السابق [١]

قلتُ : إنّ السيّد المذكور كان بدمشق . فلما تولّى امارة الأمراء ببغداد الوزيرُ الكبيرُ محمود باشا ابن المرحوم سنان باشا الشهير بابن جغال أرسل مكتوباً إلى السيد شرف الدين المذكور بتطلّبه اليه ، وكتب في المكتوب الذي أرسله : إنّ مناصب بغداد محلولة ، فإذا حضرت إلى هذا الطرف أعطيتُكَ منها ما تريد . وأرسل يقولُ له : ان احتجتَ إلى دراهم لأجل خَرْجِ (١٥٣ ب) الطريق ، فاقترضْ من صديق أو رفيق ، وأنا أوفي القرض ، كما يوفي المكلّفُ القرض ، ففعل ما به أمره ، ولم يُسَوّف رحيله ولا سفره . بل سار اليه ، وورد عليه بالتحية والسلام ، إلى مدينة السلام . وكان الارسال والسير في سنة سبع عشرة بعد الألف من هجرة البشير النذير .

---

(١) هذه الترجمة ساقطة من هـ ، ب .

١٢٤

الشيخ شرف الدين بن يونس الحكيم

كان الفقيرُ إلى مولاه ، المستغني عمن سواه ، بدمشق المحروسة ، دامت بقاعها المأنوسة ، في سنة ست وتسعين من هجرة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، فتعصّب عليّ بغيرِ طريق الشيخ شرف الدين المذكور ، ورام أن يوصل اليّ مكروهاً . فنظمتُ هذه الأبيات الثلاثة متوجّهاً إلى لطف الله جلّ وعلا فانتصرتُ عليه ، وظهر أنه متعصب عليّ ظلماً ، وأنه يريد بي ضرراً وهَضْماً . والأبيات هي قولي :

إلهي لهم مالٌ وجاهٌ وشِدّةٌ ونصرةُ أعوانٍ وأعوانُ أنصارِ

فَمَنْ لضعيفٍ عاجزٍ أحْدَقَتْ به عيونُ عوادي الدهر كالأسدِ الضاري

سوى لطفِك المأمون في كل آفة وغَوْثِك يا عوناً على كلّ جبارِ

وقلت في المعنى متضرّعاً إلى عالِمِ السّر والنجوى :

بتذلّلي في بابِ عِزّك سيّدي وتضرّعي في الليلة اللّيلاء

أنظرْ اليّ بعينِ لُطفِكَ إنّني أدعوكَ في السرّاء والضرّاء

١٢٥

الأمير
شديد بن الأمير أحمد (١)

في سنة ثمان عشرة بعد الألف اتفقت عجيبةٌ وهي أنّه كان في خيمته في بعض صحارى حلب ، وكان ابنُ عمه الأمير مدلج بن المرحوم الأمير ظاهر معه في الخيمة ، وكان الأميرُ شديد يلعبُ بالشطرنج مع بعض أقاربه ، ولم يكن عنده من اخوته أحد . فاختلس مدلج الفرصة في غُفُلَةِ الأميرِ شديد . وكان أبو شديد أحمد قد قتل والد مدلج ظاهر ، فناداه وهو يلعب بالشطرنج ياشديد يا شديد ! فقال له : نعم . فما أتمّ قوله نعم إلاّ ومُدْلج قد ضربه بخنجر في صدره خرج من ظهره ، ولم يحتج في إخراج روحه إلى رمية أخرى ، بل كانت روحه في تلك الضربة ، وذهبت إلى غضب الله ، لكونه كان مدمناً على تعاطي القبائح ، مع زيادة الظلم والقهر ، وعدم الإنصاف عند الشكاية من أحد وكان مع ذلك جبّاراً عنيـــداً متكبّراً خسيساً ، قبيحَ المنظرِ والفعل والوصف ، غير محسنٍ في شيءٍ من الأشياء . (١٥٤ آ) ولقد أرسل الأميرُ فخر الدين بن معن مكتوباً يُخبر فيه عن قتل المذكور ، وقال في مكتوبه أن تاريخ قتلِ الأميرِ شديد قد اتفق في هذه الكلمات وهي : مدلج قتل شديد ولد أحمد .

قلتُ : حساب هذه الحروف بطريق حساب الجمّل ألف وثاني عشر .

وهؤلاء الطائفة أعني آل جبار من عادتهم ان من استولى على خيمة

---

(١) في هـ « الأمير شديد بن المرحوم الأمير أحمد الحياري » .

المال والسلاح يكون أميراً حاكماً على العرب كلّهم ، فذلك أنّ لهم خيمة من الشعر كبيرة جداً ، ولها نواظر وحَرَسٌ بالنوبة في اليوم والليلة . وكلّها صناديقُ مقفلة بالأقفال المحْكَمَةِ ، والصناديقُ مملوءةٌ من الذهب والفضة والجوهر والسلاح وغيرُ ذلك من نفائس الأشياء النفيسة ، فمن استولى عليها كان حاكماً على العرب ، سلطاناً على جموعهم .

والعجبُ أنّ والد شديد الأميرُ أحمد قد قَتَلَ ظاهراً في بيته وهو ضعيفٌ عنده ، فقدّرَ اللهُ تعالى أن ولدَ القاتل قتل ولدَ المقتول .

ومحلُّ حكومة هؤلاءِ الطائفة بلاد عانة ، والحديثة ، وبلاد سَلَمْيَةَ وغير ذلك من البلاد . فسُبحان الله القادر الذي لا يبيد ، وهو العزيز الحميد .

وفي[1] هذه السنة بعينها مات أميرُ البحر الذي يقال له مر[2] ادريس . وكان ميمون النقيبة ، قويّ الطالع ، غالباً للكفرة ، كامراً لشوكتهم ، ولم يتولّ منصباً لسلطانِ الإسلام ، بل كان يغزو الكفّار ومهما اكتسبَ من غنيمتهم أنفقه على نفسه وعلى جماعته . وكان طاعناً في السن ناهز الثمانين رحمه الله تعالى .

وقد أرسل الأميرُ فخر الدين بن مَعْن مكتوباً يذكر فيه ألفاظاً هي بحساب الجمل تاريخ موته ، وهي قوله : (مدلج قتل شديد ولد أحمد)[3]. توفي وذلك بالواو في الأوّل سنة ثماني عشرة بعد الألف رحمه الله تعالى .

---

(١) ما سيأتي ساقط من هـ ، ب .

(٢) كذا ، ولعلها « مير » أي أمير

(٣) في الأصل « صرد رايس ..؟ » والتصحيح من المحبي ٢/٢٢٢ .

١٣٦

شاهين الشاطر (١)

في ليلة الأربعاء ، وهو العاشر من جمادى الآخرة ، من شهور سنة ثمانية عشر بعد الألف ، صدرت قصة بدمشق ، وهي : أنّ شاهين هذا قدم دمشق مع حضرة الوزير الحافظ أحمد باشا في السنة المذكورة . وكانت خدمته للوزير أمامَ فرسه بالقرب . ويُسمّى في اصطلاح آل عثمان شاطراً ، ولكنه كان جميـلاً إلى الغاية بحيث أنه كالبدر الكامل في ليلة أربع عشرة ، وأما قَدُّهُ فإنّه يفضحُ الغصنَ الرطيب . وكان يكنى بأبي شامة ، لشامةٍ كبيرةٍ في خدّه الأيسر . فلما دخل دمشق خطر في باله أن يترك خدمة الحُكّام وأن يلبس خرقة مولانا جلال الدين الرومي وهي (٢) الصوف الطويلة ، وشاورَ الوزيرَ الكبير المذكور (١٥٤ ب) في أن يترك خدمته ، وأن يدخل في خدمة الطريق المذكورة . فأجابه إلى قبول ذالك ، وأمر وكيله أن يخيط للشاطر المذكور ما يناسبُه من الأثواب لأجل دخوله في طريق الفقراء . ففي تلك الليلة المذكورة نام الشابُ المذكور في وكالة العصرونية منفرداً ، وكان في الوكالة المذكورة رجلٌ خبيث من أولاد الجند بدمشق يُقال له ابن خضر ، فعزمه إليه وقال له تكون عندنا الليلة . فسلّم . وطاوعه . فشربوا الشراب المحرّم ، وطاشت الخمرة في هاماتهم ، فطلب ابن خضر فعلَ الفاحشةِ من الشاب المذكور فلم

---

(١) هذه الترجمة ساقطة من هـ ، ب .

(٢) بياض في الأصل .

يَرْضَ ، وتـكالما ، ثم تلاكما وتخاصما ، ونزل الشابُ الشاطر إلى أسفل الوكالة ، وأراد أن ينام هناك فنزل اليه شاب أمرد مثله يُقال له خليل ، وقال له : أنا لي حجرةٌ منفردة وأنامُ معك ، فطاوعه على ذلك ، وصعد إلى حجرة خليل . وإذا بالخبيث الأسود ابن خضر دخل عليهما بعد كَسْرِهِ الباب ، وضرب الشاطر ضربة في رأسه ، ثم وضع على رأسه مخدة وجلس فوقها رجلٌ ، فلم يزل على ذلك إلى أن فَعَلَ الفاحشةَ ، فلما رفعوا المخدة وجدوه ميتاً ، فألقوه من طلاقة بالوكالة ميتاً ، ثم خافوا فذهبوا واحتملوه إلى خندق قلعة دمشق وألقوه فيه ، ثم جاؤا وشرعوا في إتمام السكر خذلهم الله تعالى ، وما صَدَّهُمْ ما فعلوه عن الميل إلى أمّ الخبائث .

ففي اليوم الثاني علم بذلك الوزيرُ فأمر بخنق ابن خضر في القلعة ، ولم يشهروه لكون أبيه من الجند . فخُنِقَ بعد ليلتين من موت الشاطر .

وكان معهم في المجلس رجل حلبي يقال له رمضان كان ذنبه أنه حمل معهم الشاطر لما أرادوا إلقاءه في خندق القلعة ، فأمر الباشا المذكور بصلبه فصُلِبَ تحت قلعة دمشق ، في يوم الاثنين خامس عشر جُمادى الآخرة .

حرف الصاد

١٢٧

الشيخ صلاح الدين الكوراني الحلبي[١]

وهو من الأدباء، كاتبٌ في محكمة حلب، محرّرٌ لصكوكها، بل هو كبيرُ الكُتّاب، ورئيسُ بني الآداب وأخوه تاج الدين[٢] نائبٌ في القضاء وهما جالسان في باب قاضي القضاة: أحدُهما للنيابة[٣] والثاني للكتابة[٤]. وأهل بلده راضون من الاثنين، لحسن سلوكهما.

كتب اليّ الشيخ صلاح الدين المذكور ثلاثة قصائد أجبتُه عن واحدة، واعتذرتُ عن عدم الإجابة عن القصيدتين الباقيتين. فأما القصيدةُ التي أجبتُ عنها فهي هذه:

قدومٌ قد اخضرّتْ به حلب الشَهْبَا ... من البدرِ حتى قدّم الدرّ والشهبا (١٥٥ آ)

قدومٌ خوافي الأنس منه قوادمٌ ... بخفضِ جناحِ القُرْبِ تأتلف[٥] السّربا

(١) انظر ترجمته في المحبي ٢/٢٥٢.

(٢) قوله «تاج الدين» ساقط من ب، ه.

(٣) ه، ب «للنيابة في القضاء».

(٤) بعد ذلك في ه، ب «فأما الكاتب فاسمه صلاح الدين، وأما النائب فتاج الدين».

(٥) ه «تأتلق» م «تألف».

وممجدبةٍ كانت تغرّ سراتها كآلِ فروّى فضله الآل والصحبا
له قدمٌ قد أخصبَ الحيّ قادماً وقد كان ميتاً يشتكي الجور والجدْبا
وكم شنّف الأسماعَ قبلي[1] نواظرٌ وطابقها فاستوطن الطرْفَ والقلْبا
وكم مرّ بي عيشٌ وحاليَ عاطلٌ يساقطُ عن جيدِ اللقالؤلؤاً رَطْبا
وأقعدني حَظّي عن القُرْبِ مُنْشِداً
« أسِرْبَ القَطَا هلْ مَنْ يطيرُ بنا قُرْبا »
رَجَوْتُ بإرخاء الأماني عنانها تلاقينا ذاتاً لرسمِ النوى سلبا
فؤادي على عهد الهوى مُضْرَمُ[2] الحَشَا وقد شاب فَوْدي والغرامُ به شبّا
وكابدتُ من خَطّ الصكوك كآبةً على الخطّ[3] حتى ذيّلت خطّها خطبا
وبتُّ غريبَ الجنس لا إلفَ لي سوى حميمٌ من الدمع الذي يصحب السُحْبا
وكم قدْ رَفعْتُ الامر رَفعَ شكايةٍ على نَزْعِ خَفْضِ القُرْبِ ما بيننا نَصْبا
وعَضّتْ عليّ النائياتُ بنابها وكم أنشب الدهرُ الخؤون بنا حربا
وماذا يُرَجّي المرء في هذه الدُنى[4] وقد حلَفَتْ أن لا ترى صِلَةَ القُربى

(١) ه « قبل » .
(٢) م « هزم » .
(٣) « على الخط » ساقطة من م .
(٤) م « الدنيا » .

وأيّ فتًى قد بصّرَ اللهُ لُبَّه ولما دعاه الفضلُ من أهله لبّى

نعم أخرست في حبّهنّ عنادلٌ وفي الروض صوتُ الصّعْو قد أقلق القُضْبا

وغابت أسودُ الغابِ يوم فريسةٍ وقد حضرت لا من فراسته الذّبا

وليس يفيدُ الناس إلاّ مغانم من الذكر بالحُسْنى وإحسانُهم نَهْبا

فتبّاً لخِلٍّ راغَ عنك مُثَعْلباً يروغ بثوبِ الغول أو بُرْدَةِ الحربا

وكم قَعَدَتْ عن سَبْقِها كلُّ صافنٍ وقامتْ له العرجا ولاقت له الحدبا

ومِنْ حلب كان العظامُ من العُلى وقد يبست ضَرْعُ الأمان بها حلبا(١)

إلى أنْ أتاحَ اللهُ بَعضَ بقيّة من الخطّ فيها شاهَدَ الناظرُ الخبّا

فلما التقينا وانطوينا اشارةً على بَثِّ آدابٍ لنا تسحرُ اللُّبّا

تيقّنَ طرفي أنّ مرآكَ نوره محيطٌ به والقلب غادرْته القُطْبا

شربتُ كؤوسَ القُرْب مُتْرَعةً بكم ومع غَيْرِكُمْ ذا تيمّمها تُربا (١٥٥ ب)

وإنّي لمجبولٌ على الودّ طينةً وأحفظُ برَّ العَهْدِ لا أُغْضِبُ الربّا

أتى من دمشق فاضلٌ بعد فاضلٍ ولكنْ ضياءُ البدْر قد مزّقَ الحُجْبا

هو الحسنُ المشهورُ عذبٌ حديثُه وموصولُهُ بعدي مُسَلْسَلَةُ الحزبا

رجائي بأن لا يبعدَ اللهُ ذاتَه عن الغَيْبِ في الأولى كذلك في العُقْبى

---

(١) هذا البيت ساقط في هـ .

فأْنسْ الفتى في نفسه بقرينه — وسَلْ عنه تستأنسْ به الكامل النَّدْبا
وقد أعربتْ ألفاظه عن بديعها — وفي سَبْقها فاقتْ على العرب العَرْبا
فلا رطب إلاّ ما جَنى ثمراتها — ولا رطب إلاّ ماجرى ذو فم[1] عَذْبا
قد اغْدَوْدَقتْ يمناهُ عن برق بشره — وفاق بوبْل الفضْلِ شعره سُحْبا[2]
تضلّعَ علماً محكمات دروعه — وأسّسَ فضْلاً ما استطاعوا له نقبا
حَكَمْتُ له بالفضل دونَ صِحابِهِ — وأحكمتُ تسجيلاً على الحاسدِ العَتْبا
أرَقُّ من الضَحْضَاحِ يُبْدي شمائلاً — بأوفرَ من عُشْبِ الرُّبا عَطّرَ الشِعْبا
وما قَدّمَتْ شهباؤنا[3] غير ذاتِه — نزيلاً بها إلا وتستغفرُ الذَنْبا
ولمّا سمعنا منه عَذْبَ حديثه — نسينا ولم نذكرْ عَذاباً ولا نَصْبا
اليكَ توجّهْنا بها لا إلى السّوىٰ — وهَلْ مَنْ تَصابى مِثْلُ من قدْصبا صَبّا
ذكرتُ رسالاتٍ مَضَتْ فاستفزّني — من الفِكْرِ ماضٍ ينتضي الصارمَ العَضْبا
وقام يَراعي كالقنا ما دريتُه — على الطرس حتى ذلّل[4] المسلكَ الصعبا
وقلتُ له لا تقطعِ الكُتْبَ بيننا — فلم ألْقَ ما يبقى سوى رقمك الكُتْبا

---

(١) م « دونهم » .

(٢) م « وفاق بفضل من شعره سحبا » .

(٣) ه « شهبانا » .

(٤) م « ذلك » خطأ .

ولا تحتفلْ إلاّ بجلبِ جوابه   لعلّ به تُجلى[1] على ذوقنا الصهبا

ولطِّفْ له منكَ العبارةَ خافضاً   لديه جَناحَ الذُلِّ واعطفْ له الجنْبا

وقُل يابديعَ المجدِ ياحسَنَ الثنا   أُهاديك لُغزاً يكشفُ الحُزْنَ والكَرْبا

هو العَلَمُ المشهورُ في كلِّ بلدةٍ   ويذكرُه في الشرق مَنْ يعرفُ الغربا

سماه فَرْدٌ من بني آدمٍ إذا   تصحّفَ لكنْ نسلُه يملأُ الرّحْبا

ثلاثيُّ لَفظٍ والطبائعُ أربعٌ   قد اعتدلتْ فيه وما قُلْتُ ذا كِذْبا

حكى صَدَفاً لكنْ على الدُرِّ مطبَقاً   وفاخرَ شُهْبَ الأُفْقِ من أرضه الخصبا

وإنْ عكَسُوه فهو قوتٌ لذي الضّنا   على الفرش مثلي حين ناسبه طبّا

ويقطعُ قَلْبَ القَوْم إنْ قَطَعُوا له   قواماً ولكن بعد تصحيفه شربا (١٤٨ا)

وقلبُك ما يبقى عن القطعِ مخْبِرٌ   عن الشكر عن صرع[2] العيون لنا غصْبا

ومِنْ غَيْرِ تصحيفٍ لدى القطع إنّه

مُسَمّيٌ لإحدى الخمس يستَعْطِرُ النكبا

على نفسه فَلْيَبْكِ مَنْ لم يَنَلْ به   وواكَهُ مِنْ مَجْنَى محاسِنِهِ غُلْبا

فيا زائراً قد كنتُ منتظراً[3] إلى   زيارته في سائر الدهر لاغِبّا

---

(١) « » تحلى » .

(٢) « » صرح » .

(٣) « » مستنظراً » .

قَدِمْتَ علينا بهجةً نجتلي بها ... ونجلو بها الأجفان تعتاق الهدْبا
وشرَّفتَ أبصاراً فشنّفْتَ[1] مسامعاً ... عسى القلب بالتعجيب يزهو بكم عجْبا
فلا زلتَ تولينا بدائعَ فكرةٍ ... بأبكارِ دُرٍّ لا نُدَنِّسُه ثَقْبا
ولا زلتَ في أعلا مقامٍ إذا حدَتْ ... حُداةُ حجازٍ في السُّرى تُطْرِبُ الرَّكْبا

قلتُ : وهذا جوابي عن قصيدته المرقومة ، مُراعياً للوزن والقافية المرسومة ، وقد صدر الجوابُ على سبيل الارتجـــال ، وظهر منظوماً كنظم اللآل :

ألا مَنْ لصبٍّ حارَ في حبكم لُبَّا ... ولما دعاه الوجدُ في حُبِّكم لَبَّى
هوًى أورثَ الأحشاء شكراً مؤبداً ... وماخامرتْ خمراً ولا فارقتْ[2] صهبا
أقام بها داعٍ من الشوقِ لم يَزَلْ ... يحاول من داء الغرام بكم طبّا
فهل لي من السُّكْرِ العظيم إفاقةٌ ... لعمري لقد حاولتُه مطلباً صَعْبا
تكاثرَ دمْعي كالسحابِ إذا همى ... وأصبحَ صَبْري[3] بعدكم في الهوى نَهْبا
تَرَنَّقَ من بُعْدِ الأحبّةِ مَوْردي ... وقد كان وِرْدي في العذاب بهم عَذْبا
وأصبحتُ صبّاً أسكبُ الدمعَ بعدهم ... فيا ويحَ صبٍّ قد غدا دمعُه صَبّا

(١) هـ « فشفت » .
(٢) هـ « فارقت » .
(٣) هـ « قلبي » .

وقد ضاقَ صدري بالصدودِ وبالنوى ... وقد كانَ مأوى الوصلِ في حيِّهم رَحْبا

شَرِقتْ بغَرْبِ الدمعِ ساعةَ وَدَّعوا ... فيالكَ دمعاً يملأ الشرْقَ والغَرْبا

وما كان لي ذنبٌ سوى صدقِ نيّتي ... فإنْ كان ذا ذنبٍ فأستغفرُ الذنبا

خليليَّ مِنْ قيسِ بنِ عَيْلانَ هل إلى[1] ... مواردِكم من نَهْلَةٍ تمنح الشُّربا

وهل ظِلُّ ذاكَ الضالِّ منكم كعهدِه ... ظليلاً فقد اسقيتُه أدمعي سُحْبا

وهل ساعةً أحيا بها من تواصلٍ ... تبعِّدُ لي بُعْداً أو تُقَرِّبُ لي قُرْبا

أنا الخِلُّ لا وجدي القديمُ بزائلٍ ... ولا خِنْتُ في عهدي خليلاً ولا صَحْبا (١٥٦ب)

معاذَ الهوى لا كنتُ من خانَ عهدَه ... ولا كانَ صِدْقي في ذمامِ الهوى كِذْبا

ألا رُبَّ مأمونِ الحِران امتطيْتُه ... ووجهي لحرِّ الشمسِ صيَّرتُه نَصْبا

وقد نزعت أبدانُنا[2] راحةَ اللظى ... الى أن لبست في الفلا حلّةَ الحربا

نسوقُ سراحينَ السباسبِ شُرَّداً ... فتُنْكِرُنا أُنْساً وتعرفها نهبا

وزَمْزَمَ حادي العيسِ يُطرِبُ سامعاً ... بذكرا الحِمى شَوْقاً فقد هيَّجَ الركبا

وهبَّتْ قبولٌ بالقبولِ عشيّةً ... وقد نكبت عن ملتقى جمعنا النكبا

ولمّا بدتْ أعلامُهم هيَّجَ الهوى ... غرامي وأبكى ناظري لؤلؤاً رَطْبا

---

(١) « » أتى » .

(٢) « » أرادنا » .

ولم أَلْقَ ما يُسلي الفؤادَ عن الحمى ولا ما يزيلُ الحزنَ أو يدفعُ الكربا

سوى نظمِ درٍّ جاءني من مُبَجَّلٍ فدائرةُ الآداب قد أصبح القُطْبا

حياني وأحياني بصفوِ وداده وقد غرستْ كفّاه في باطني حُبّا

وصيَّرني رِقّاً رقيقُ نظامِه فلا ابتغي عِتْقاً من الرِقِّ أو سلبا

بلى أنا مَمْلوكٌ تشرّف قدْرُهُ بمدحِ صلاحِ الدّين مِنْ زَمَن الشَهْبا

وحلّى وجودي من جواهر نظمه ونظّمَ في أثنائه أشعاره الشُهْبا[(١)]

أنا الخِلُّ لا أجفو خليلي وإنْ جفا وألزمُ مدحي للصديقِ ولو سَبّا

ولستُ بناسٍ وُدَّهُ طولَ مُدَّتي وانظرُ مثواهُ على جَدْبِهِ خِصْبا

رعى اللهُ مَنْ يَرْعى ودادَ خليله ويحملُ عن مخطو به في الورى خَطْبا

فيا أيُّها المُهْدي عُقودًا ثمينةً ويا أيُّها الساقي لنا سَلْسَلاً عَذْباً

تَفَضّلْتَ لُطفاً بالقريضِ لنازحٍ وقد فارقَ الأوطانَ والحيَّ والشعبا

وصيّرتَ لي صُلْحاً مع الدهرِ بَعْدَما أقامتْ يدُ الأيّامِ ما بيننا حَرْبا

لعمري لقد أبديتَ عِقْدَ بلاغة[(٢)] غدا عاجزاً عَنْ مثله العَرَبُ العَرْبا

إلى حلب لما أتَيْنا تَبَسَّمَتْ بِثَغْرٍ وتاهتْ عندَ إقبالنا عُجْبا

---

(١) هذا البيت ساقط من « هـ » .

(٢) هـ « لعمري لقد أبدت عقود بلاغة » .

وقالتْ لنا أهلاً وسهلاً ومرحباً ‏ ‏ بمقْدمِ مولىً غدا صدرُه يحفظُ الكُتْبا

وماسَتْ بنايتها وقالتْ لأهلها ‏ ‏ هلمّوا إلى فضلٍ على البحر قدْ أربى

وَقابلَنا من أهلِها كلُّ مُقْبِلٍ ‏ ‏ يرى أننا ضَيفٌ وإكرامُنا قُربى

قلت : وقد كان الشيخُ صلاحُ الدين الكوراني المذكور قد أرسل إليَّ قصيدتين غير هذه القصيدة ، الأولى طائيّة والثانيةُ نونيّة . ولم أستطع مناظرةَ الطائية والنونية ، لكوننا على جَنَاح سَفَر ، ولأننا لم نكن ، بسبب فكر الرجوع ، على مستقر ، فأجبتُه عن البائيّة فقط ، وكتبتُ القصيدتين المذكورتين بغير جواب ، والله الموفق للصواب .

فأما الطائية فهي هـــذه :

خليليَّ إنّ الصَحْبَ بالركْبِ قد شَطّا ‏ ‏ ولاحِقُ دمعي في السُّرى يسبق الشطا

فَسارَ وبدْرُ التمِّ في هَوْدَجِ العُلى ‏ ‏ تودُّ الثُرَيّا أن تكونَ له قِرْطا

ولما دَعَى داعي الوداع أجبتُه ‏ ‏ بروحي على رِسْلٍ ومَنْ جاء ما أبطا

ولما وقفنـــا بُرهَةً وأماط لي ‏ ‏ غطاء اللِّقا اسْبَلْتُ مِنْ عفّتي مِرطا

يُسَلِّمُ باليمنى عليَّ إشـــارةً ‏ ‏ ويمسحُ باليُسرى من الدمع النقْطا

ويبسمُ عَنْ سِمْطَيْ عقيقٍ ولؤلؤٍ ‏ ‏ فجالستُهُ أبكي بما جانس السِّمطا

وانسانُ عيني رام دُرّاً لثغره ‏ ‏ ألَمْ تَرَهُ في بحر أدمعها[1] غطا

---

(١) هـ « أدمعه » .

فريدٌ كأن النشرمن طيّ شعره ... يمجّ فتيتَ المسك إنْ خالط الشَطَّا

جرى قَلَمُ الرّيحان في طرس خَدّهِ ... فحقّقَ من هامات عُذّاله الخَطّا

تشابه خمري في الهوى برضابه[1] ... ولا فرق عندي إنْ أباح لي الخَلْطا

وإنْ قسته بالبدر وَجْهاً أجابني ... أما الفرقُ بادٍ ؟ فاجتها دك قد أخْطَا

بسطتُ له عُذْري على الجمر قابضاً ... ولا عُذْرَ إلاّ بالجوى يقتضي البَسْطا

غلطتُ بعشقي في حواشي خدودِهِ ... وقابلتُه صَبْراً فأورثه الكشطا

وقد بعتُه روحي بشرط وفائه ... فقال أليس البيعُ لا يقبل الشرطا

فَنَقّصَ صبري من ميزان حاجب ... فهلاّ أقامَ الوزْنَ في بيعتي قِسْطا

على خاله قد حام طائرُ مُهْجَتي ... وكيف خِماصُ الطير لا تألف اللّقْطا

وتكتب بالهندي لحظاه بالحشا ... ومِنْ قَدّهِ الخطيّ في مهجتي خطا

وساق غبار الخدّ نزهة ناظري ... فجلّ حسابُ الدمع في وجنتي ضَبْطا

يُخالفني والقلبُ طَوْعَ غرامه ... فأهواه إنْ أبدى الرضا أو السخطا

دنوتُ فأقصاني وصرتُ فما هوى ... وبتُّ فما آوى ورمتُ فما أعطى

صبرتُ له صَبْرَ الكرام على البلا ... وعدلُ الهوى عندي إذا جارَ واشْتَطا

---

(١) م « برضائه » .

ولستُ على الحالَيْنِ إلاّ مُرابِطاً ... على العهدِ لا حلّتْ يدُ الكاشحِ القُمطا

وغادر أرباب الهوى تحت طاعتي ... وفي مُدْنِ أشواقي أسيرُ بهم رَهْطا

وعُذْراً إذا شغلت عن فرض ذكره ... فقد شغلوا قلب النبيّ عن الوُسْطى

وذاتِ جناحٍ حرّكتْ لاعجَ الهوى ... تنوحُ على نَأْيٍ وقد سكَنَتْ خمطا

أُجاذِبُها بالدمعِ والدمعُ راحةٌ ... به الصبُّ يَلْقى من عقال الجوى نشطا

تُذَكِّرُني غِيْداً كأنّ ثُغورَها ... حِقاقٌ من الياقوتِ قد أحكمتْ خرطا

عذولي ضريرٌ عن سناهُنّ في الهوى ... وهَلْ ينفعُ العشواءَ ما حاولتْ ضَبْطا

كواعبُ إلاّ أنهنّ كواكبٌ ... يُفارِقْنَ نورَ الصُبْحِ من لِقاالشمطا

وتَرَكْنَني في فَرْقَدِ الحبّ هائماً ... غريباً فلا صنو أزورُ ولا شبطا

عديم ثراء لا ثنــاء وظالمي ... زمانٌ به البازاتُ لا تلحق البطّا

أقاربه يغشون بَيْنَهُمُ الصفا ... وحَشْوُ الحشا سُمٌّ العقاربِ والرُّقطا

يحطّ بني الآداب عن رفعة الفتا ... ويرفعُ مَنْ قَدْ كان يستوجبُ الحَطّا

ويعلو بطيرِ الجهل قدراً وإنْ رأى ... جناح نجاح الفضل ينتفه معطا

فيرفلُ [1] مَن بالجهل يرفع فاخراً ... بديباجِ خزّ يبهر الرومَ والقِبْطا

ويجمد مَنْ بالفضل سفل حائراً ... على جسمه رث وبالتيه مخطا

ولله في صرف الزمان إرادة ... تحلُّ ومَنْ ذا يملك الحلّ والربطا

---

(١) « « فيرفع » .

١٢٨

صالح من البيت السفاحي بحلب (١)

غريبةٌ ورد خبرُها دمشق الشام في أواسط شهر ربيع الأول من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد الألف من هجرة خير الأنام ، عليه من الله أفضل التحية وأتم السلام ، وقد بالغ بحلب في الخروج عن الطاعة ، وعن سَنَنِ السُنّة والجماعة . ودخل في الطائفة الذين يقال لهم السكبانية . وهؤلاء قوم خالفوا جميع الملل والنِّحل ، وصيّروا غايةَ أمرهم الخروجَ عن طاعة السلطان ، وسلاحهم الآلة التي يقال لها التُفنك وهي البندقية ، فيخدمون أميراً يكون خارجاً عن الطاعة على أن يدفع لكل فردٍ من أفرادهم في الشهر شيئاً معيّناً من المال ، وأصل سك الكلاب وبان صاحبه يعني الكلابي أي الخادم للكلاب وقت الصيد ثم اضطروا وصيروه اسماً لمن كان موصوفاً بالبطالة والنطالة . والفراسة ، وغالبهم يتعاملون فعل قوم لوط ، لا زالوا من دركات جهنم في هبوط .

ولما تمادى الشاب السفاحي صاحب الترجمة في الخروج بالغرور والشرور في باطنه بالسرور وإذا والدته ووالده عرض أبوه وأمه أمره على الحاكم بحلب المحروسة وهو الوزير الشهير بأحمد باشا كمكجي زاده يعني ولد الخبّاز ، وهو في الحقيقة حاكم مستقيم ، وسلوكه قويم ، مشكور السيرة . ممدوح السريرة . وطلبا من الحاكم المذكور انه يقتله ليستريحا من شره ، ويُريحا الناس من قهره وقسره .

---

(١) هذه الترجمة ساقطة من « هـ » .

فقال لهما الحاكم : أفلا نصنع ما هو خيرٌ من ذلك ؟

فقالا له : ما هو ؟

فقال : نرسله يقذف في السفن السلطانية ، فإنّ الأمر السلطاني قد وَرَدَ بتحصيل مجرمين لسدّ هذه الخدمة .

فأما والده فرضي بذلك ، وأما الأم فقالت : لا أرضى بما هنالك ، ورضيت بقتله ، على أن يُدْفَنَ في تربته ومحله ، لتزورَه وتعرف مقرّه ، وإن فقدت في عمره بره .

فوعدهما الحاكم بقتله في ليلة عيّنها لهما . ففي تلك الليلة المعيّنة دخل والد الولد المذكور إلى بيت الماء ووقع مغشيّاً عليه ، فحرّك ، فإذا هو ميت ليس به روح ، بل هو هناك منبوذٌ مطروح ، بعد أن كان في يومه ذاك قد ذهب إلى قرية قومه وعيّن لولده المعزوم على قتله موضعاً في يومه . وعز له وعز عليه أن يكون له .

ففي الليل ذهب بعض الجيران إلى الحاكم وأخبروه ، وبما جرى من موت الوالد المذكور قد خبروه ، فدقّ إحدى يديه على الأخرى عجبا ، ولقي ممـــا لقي من ذلك نصبا . ودفن الوالد مكان الولد . ولله البقاء فهو الفردُ الصمد .

وأما الولد فإنه ذهب إلى حضرة أحمـد باشا الوزير بحلب وتاب لديه ، وصار بذلك نظره عليه . وأعطاه تولية وقف آبائه وجدوده ، وأمات بذلك قلب مبغضه وحسوده . فالعجب ان القبر كان قد هـيّأه الوالدُ لولده ، فصار للمهيء لا للمهيّأ له . وهو ولده ، بعد أن مزق من الخوف كبده . ولعمري لقد صار في الدهر من هذا الشيء ما تحار له الألباب ، ويقضى منه بالعجب العجاب . ولكن سيأتي الكلام ، بعون الله الملك العلام . فان الفزع بعد الشدة كثير . والله تعالى هو الحليم الخبـــير . وهو حسبي ونعم الوكيل .

١٢٩

صاحبنا ورفيقنا الشيخ
صالح المصري[1]

اتفق أنه سار معي إلى قرية يبرود من نواحي دمشق الشام ، سقاها صوب الغمام ، وكان ذلك في ذي القعدة الحرام من شهور سنة احدى بعد الألف . وسببُ المسير أن ريْع القرية المذكورة وقفُ مدرستنا الناصريّة الجوانية . فذهبتُ لتحصيل رَيْع القرية المذكورة ، بصدق النيّة ، وخلوص الطويّة . لأن تدريس المدرسة المذكورة كان قد فُوِّض الينا ، وعُيِّن علينا ، فلما وصلتُ اليها ، ودخلت عليها ، جُسْنا خلال بيوتها ، واستقصينا محاسن نعوتها . فرأينا ما يدلّ على عظم أصلِ البناء في القرية المذكورة . وهي في الحقيقة من البلاد القديمة المشهورة ، ورأينا آثار كنيسة مبنيّة بالفُسَيْفِساءِ الذهبيّة ، المنسوب إلى بناء من بناء قسطنطينيّة غير أنها مهدومة الأركان ، وقد وقعت عروشها على الحيطان ، وأخنى عليها الذي أخنى على لبد . وتداولتها أيدي الزمان ومن يبقى إلى الأبد . فرأيت بها داراً دار عليها جور الزمان ، وتغلب عليها تغلب الحدثان ولم يبق منها سوى العتبة العُلْيا . وفوقها أبيات نُقِش بالخط الأعلى . فتأملتُها كثيراً وأجريتُ العبرة عبرةً أسالت مطراً غزيراً . فإذا هي هذه :

---

(١) هذه الترجمة ساقطة من « هـ » .

يا خاطب الدنيا وأحداثُها منه ومن أمثـــاله ساخِره
هيهات أن يدفع عنك الردى ما شِدْت من أبنيةٍ فاخره
يلهو بهـــا بَعْدَك مُسْتَمْتِعٌ وفي غدٍ أعظُمك الناخره
أحسن بما قد شدت من منزلٍ لو كان يُغْني عنك في الآخره

قلتُ: واستمرّيت مدةً لا أدري قائل الأبياتِ ولا أعرفه، لا بطريق الشكّ ولا على سبيل الاثبات، إلى سنة خمسة عشر بعد الألف من هجرة خير الأنام، عليه من الله الصلاة والسّلام، فتملكتُ ديوانَ الأديب المشهور بجدّه لأمه الشيخ العارف أبي محمد المبارك المعروف بابن التعاويذي، فرأيتها في ضمن الديوان المذكور. فسبحان مَنْ يَبْقى على توالي الأيام والشهور، ولا تُفنيه الأعوامُ ولا العصور، ولا تغيّره الحوادث والدهور. وهو الله الملك الغفور.

قلت: الذي في الديوان «منه ومن آماله». والذي رأيته منقوشاً على الباب «منه ومن أمثاله».

قلتُ: وقد اتفق لي نظم بيت عند المسير إلى يبرود، وارتواء القلب بالماء البَرود، وهو قولي:

قد كان قلبي على حرّان من ظما واليوم أصبح من سكان يبرود

واللطيفة هنا المطابقة بين حَرّان ويَبْرُود، وهما قريتان من قرى دمشق الشام، وفيها التلميح بالعشق أوّلاً والسلوان ثانياً. وحرّان هذه

قرية من نواحي مَرْج دمشق ، ويقال لها حرّان العواميد . والمشهور أنّ حرّان مدينة عادية من بلاد ديار مُضر بالميم والضاد المعجمة ، وبها مقرّ بطريك النّصارى اليعاقبة ، والنسبة اليها حرناني ، والمشهور حرّاني ، وهو خطأ ، وإن كان القياس لأن النسب سماعي وما نُسب إلى حرنان في السماع .

حرف العين

١٣٠

عبد الحليم اليازجي الباغي الخارجي [١]

هو رجلٌ من الطايفة السَكْبانيّة . والسكبانية عبارةٌ عن طائفة كان وضْعُهم أنّ الواحدَ منهم يحملُ البندقيّة على ظهره ويقودُ الكلب في ساجوره ويمشي أمام الأمير أو الكبير ، حين يسير إلى الصيد . وهو لفظٌ فارسيٌّ مأخوذ من سَكْ . فأما سَكْ فهو الكلبُ بلغتهم ، وأمّا بان فهو بمعنى الحامي ، أي حامي الكلب .

وهؤلاء الطائفة لم يكونوا أوّلاً شيئاً مذكوراً حتى جاء إلى بلاد الشام أميرٌ يُقال له أبو سيفين تولّى ولاية لواء نابلس . فصحب منهم نحو مئة رجلٍ يستعينُ بهم على رعايا بلاد نابلس ، لأنهم لا يخلون من نوع شراسة . فاعتاد الأمراء استصحابهم إلى ولاياتهم ، فكثروا ، إلى أن تولى لواء صَفَد أميرٌ يقال له درويش بك ، فاستصحب منهم جماعةً كان كبيرَهم عبدُ الحليم اليازجي صاحب الترجمة . فاستمر درويش بك في صفد مدة ، وهم معه . فاتّفق أنّه عُزِلَ بالأمير عليّ الشهير بدالي علي الجركسي . فذهب عليّ المذكور لأن يتسلم ولاية صفد .

فقال عبد الحليم اليازجي لدرويش بك : لا تُسلِّم الولاية المذكورة لدالي علي ، وأنا أمنعه بالحرب والضرب . فمال إلى كلامه هذا ، ولم يُسَلِّم .

---

(١) انظر ترجمة موجزة له عند المحبي ٢/٣٢٢ .

فلزم أن أمير الأمراء بدمشق وهو خسرو باشا الخادم أرسل كدخداه باكير آغا مع كثيرٍ من عسكر دمشق إلى ولاية صفد ليُخْرِجوا درويش بك منها ويُسلّموها لدالي علي بك . فلما وصلوا إلى نواحي صفد خرج اليهم درويش بك مع اليازجي عبد الحليم ومَنْ معه ، فقابلوهم وقاتلوهم ، ومنعوهم من دخول صفد . ودام القتالُ بينهم أيّاماً إلى أن تجرّدَ للقتال عسكرُ الشام وبرزوا للطعن والضَرب . وصبروا لكرّاتِ الحرب ، وجاهروا بالمبارزة . وصابروا في المناجزة ، ونادوا بشعارهم ، ولحقوا بآثارهم حتى ضَيَّقوا عليهم المجال وجُرِحَ في ذلك اليوم كثير من الأبطال .

وأما عبــد الحليم فنزل بجماعته (١) إلى السهل ، فقطعوا سُرادق دالي علي بك ، ونهبوا ما فيه . فأراد التأخّر عن مكانه ، فناداه بعضُ رفاقه : إلى أين الهرب ؟ وما هذا الرهب ؟ وأنت مشهور بالبسالة ، معروف بالبطالة ، عُدْ إلى موقفك ، ولا تكنْ ممن خار وتهوّل ، فإنّ الموتَ مقرّر ، والهلاكَ له وقتٌ مقدّر .

فرجع يزأرُ زئيرَ الأسود ، وثبت في موقف الموت وهو بنفسه يجود ، وليس معه سوى نفرٍ قليل . لكن كلٌّ منهم يسير من الموت إلى ظِلٍّ ظليل . فركب مَتْنَ الثبات ، ونادى : لا فِرارَ عن الممات . فيُقال إنه قُتل في ذلك اليوم من السكبانيّة نحو العشرة . واستحلّ دماءهم استحلالَ دمِ الكَفَرَة . فكسر نفوسهم . وأوجب بؤسهم ، ودخل عليهم الليل . واحتاط بهم الويل ، ودخل ذو الفقار مملوك الأمير منصور بن الفريخ إلى مدينة صَفَد من ناحيةٍ من نواحيها ، فردّه السكبانيّة بالبندق ، وقتلوا

---

(١) هـ « مع جماعته » .

من جماعته شاباً كان لديه مقبولاً ، فأضبح في الفلاة مقتولا . فتقهقر ورجع عن الإقدام ، واتصف بالندم والإحجام . ثم لم يزالوا بين تأخّرٍ وتقدّم ، واستصوابٍ وتندّم ، إلى أن أشارَ العقلاء على درويش بك أن يخرجَ مَعْ مَنْ معه ، وأن يُفَرّقَ العسكر الذي جمعه . وقال له الناس : مقاتلةُ السلطان لا تليق ، وأنت لذلك لا تطيق .

فخرج من المدينة خائفاً يترقّب ، وهو برداء الليل يتنقّب . وخرج معه عبد الحليم مع جماعته السكبانية ، وكان سيرهم على صيدا من الجهة الشُقَيْفِيّة . فوردوا على الأمير ابن معن أمير البلاد الشوفيّة ، وأمين[1] الأسكلة الصيداويّة . فزَوّدَهم وسيَّرهم ، وفي بلاده ما قَرّرَهم .

فأما درويش بك فقد سار إلى الباب العالي ، لا زال محفوفاً بالمعالي . وذهبتْ وراءه المحاضرُ والشكايات ، عمن وقعت بهم النكايات ، من أهل هاتيك البلاد الصفديّة ، وأسعفهم فرقة من أهل البلاد الدمشقيّة ، حزناً على ما أصابهم ، وتأسّفاً لما وقع بهم ونابهم .

فلزم أنّ الوزير الأعظم ابراهيم عرض حال درويش بك على حضرة السلطان ، فأمر بصلبه . فصُلِبَ بثيابه . ورجا الوزير في ذلك جزيل ثوابه . ولم يلتفت إلى ما كان يُنسب إليه من السيادة ، ورأى إزالة الظالم من الوجود أفضلَ عبادة .

وأما عبد الحليم وأصحابه السكبانيّة فقد ساروا على ساحل البحر إلى طرابلس الشام ، ثم إلى جانب حلب ، حتى دخلوا إلى مدينـــة كِلِّز ، بإشارة من أميرها . فشرعوا في الفساد المعتاد . فتنبه لهم أميرُ الأمراء بحلب فأرسل اليهم خداوردي صوباشي أحدَ أمراءِ المئة بدمشق . فذهب اليهم

---

(١) هـ « وأمير » .

مع عددٍ وافرٍ من عسكر دمشق ، فنازلوهم على باب كِلّز ، وقتلوا منهم عدداً وافراً ، وجمعاً مُتكاثراً . وخرج عبدُ الحليم من كِلّز مع مَنْ بقي معه من جماعته المذكورين ، وساروا مكسورين غير منصورين .

ولما خرج منها هارباً ، سار إلى نواحي حصن مُمَيْساط طالبا ، فقاتله حاكمُ الحصن المذكور ، وتواقعا ، وجرى بينهما مواقفُ ومواقع ، ومحاربات بسيوف ومدافع . فتارةً كان غالباً ، وآونة كان مغلوباً . ووقتاً كان سالباً ، وحيناً كان مسلوباً . إلى أن دخل إلى الرُّها (١) . واحتال إلى أن جاءته أحكام سلطانية بأن يكون محافظاً بها .

وفي أثناء ذلك خرج عن ربقة الطاعة رجلٌ يُقال له حسين باشا ، كان قديماً أميرَ الأمراء بولاية الحبشة ، وخلع من عنقه قلادة الطاعة ، واستمرّ يُفسد في بلاد قرمان جَهْرَ الاستطاعة . حتى وصل إلى مدينة يقال لها أرَكْلي (٢) ، وهي قصبة حسنة مخصبة ، لطيفة بحسنها معجبة . فثار إليه أهلها ليردّوه ، وعن بلدهم يدفعوه ويصدّوه ، فسطا عليهم كالأسد إذا صال ، وقطع منهم الأوصال .

ونُمي خبره إلى حضرة السلطنة بقسطنطينة المحميّة ، صانها الله عن طوارق البلية . فأرسل إليه عسكرٌ عظيم ، فخاف من هولهم وفَرّ قاصداً

---

(١) الرها : هي مدينة حرّان . في تركية اليوم .

(٢) كذا في الأصل وفي المحبي « أركله » وقال : بفتح الهمزة والراء وسكون الكاف الفارسية ، وفتح اللام ثم هاء . قصبة من أعمال قرمان على طريق القسطنطينية ، وهي وقف على الحرمين الشريفين . وفيها من الأعاجيب في محل قريب منها فوّار ماء يخرج منه الماء سيالاً ، فإذا وصل إلى الأرض جمد وصار كالرخام الأبيض لا يتكسر إلا بالحديد ، دون غيره ...

أن يخرج إلى بلاد العرب ، وظَنّ أنّه يُنْجيه الهرب . فمنعه من العبور عن جسر جيحان ، فَعَطَف إلى جهة الشرق ، حتى وصل إلى الرُّها ، وظن أنّه أصاب والحال أنّه خاب وسها .

وكان عبد الحليم اليازجي بالرُّها ، فأوهمه عبد الحليم أنّه ناصره ، والحالُ أنّه خاذلُه ، ولم يمض أيام قليلة إلا ومحمد باشا ابن المرحوم سنان باشا الوزير الأعظم قد قصد البلد المذكورة ، بجماهير من العساكر تسدّ الفضا ، وتقدّ السيفَ بشدّةِ المضا . فنازلها وحاصرها ، وقابلها وقاتلها ، وكابَرَها وكاثرها ، فَصَدَمتْها جيوشُ الشام ، وقصدوا مَنْ فيها من الطُغاة الطَغَام ، وثار بينهم القَتَام .

وفي يوم وصول عسكر الشام إليها ، ونزولهم عليها ، لاقاهم من طائفة عبد الحليم وطائفة حسين باشا طائفة شديدة الباس . مشدودة المراس . فصدموا الشاميين مرّة بعد مرّة ، وردّوهم بأصدق كرّة . إلى أن تجمع الشاميّون على تلٍّ عالٍ هناك ، وتحزّبوا واستمسكوا بعض استمساك . وقال لهم ابراهيم الشهير بيالتوز ، وكان من جملة كُماتهم ، بل كان عظيم حُماتهم : كيف لنا دخولٌ بعد هـــذه المرّة إلى الشام ، وهل يليقُ بنا الهربُ ونحن اصحابُ الاسم بالشجاعة بين الأنام ؟ هيهات أن أهرب أو أرضى بالوصف القبيح ! وإنما أكر عليهم ولو صُرِعْتُ بينهم كالذبيح !

وشاور مَنْ شاوره مِنْ أقرانه ، وخاطب مَنْ قارب من اخوانه . وصاح صيحةً اقشعرّتْ منها الجلود ، وشابهت بإثارتها الناسَ اليومَ الموعود . وركض جوادُه سابقاً ، وكان هو وجواده في الحديد غارقا . ولحقه من الشاميين زمرةٌ وافية ، وجماهير كافية ، ففر جماعةُ اليازجيّ بين أيديهم فَرّةً

قبيحة ، وما بالوا بالفضيحة . واستمرّوا في آثارهم إلى أن كَرْدَسُوهم على باب المدينة كراديس ، وقطعوا منهم رأس كل شجاع رئيس . ووقفوا حول القلعة كالأسود الخادره . وكانت فرقةً لدين الإسلام ناصره .

وبلغني ممن أثقُ به أنّ يالتوز ابراهيم أظهر في ذاك اليوم من الشجاعة ما شاع أمره ، وبهر خَبَرُه وخُبْرُه ، وانقضى ذلك اليوم والنُصْرَةُ للشاميين شائعة ، وأنوارها ساطعة . وفي اليوم الثاني وصلت بقية العساكر . واصطفّتْ جميعُ الجماهر . ووقف إبراهيم المذكور على حصانه ، منفرداً كاسمه بين أقرانه ، وإلى جانبه حسن صوباشي الشهير بتركمان حسين ، وعلى رأسه خوذةٌ صفراءُ تبرقُ أنوارُها ، وتضيءُ منها أقطارُها ، وهم في مُقابلة القلعة واقعون ، ولمواضع وضْعِ الخيام متحيّرون . فرماهم عبدُ الحليم من القلعة بمدفع هاج فملأ صوته النَوَاح ، ووقع في الأرض ، وفي باطن ابراهيم طاح . فوقع رأسه على قربوس جواده ؛ وحرّكه مَنْ إلى جانبه فوجدوا الضربة في داخل فؤاده . ومات مُثاباً سعيدا ، ومضى مشكوراً حميدا . فدفنوه عند مزارٍ هناك .

والعجبُ أنه في اليوم الذي قبل يوم موته شاهد موضع دفنه ، فقال : ما أحسن هذا الموضع وما ألذّ الدفن فيه ، لا سيما لمن كان مؤمناً يخاف الله ويتقيه .

وفقد عسكرُ السلطان بفقده ناصراً كبيرا وكانوا يؤمّلون به خيراً كثيرا . وتفرّقت جماعتُه المجموعة ، وقلّ مَنْ أجرى عليه دموعه . وتوزّع الناسُ أسبابه ، ولم يعرف أحدٌ أحبابه . إلاّ أن رجلاً من أمثاله وأقرانه وأشكاله ، يُقال له مسيح ، كان مِنْ غَرْسه . وطال ما كان في الحياة يفديه بنفسه ، بكى عليه وانتحب ، ولشجاعته ومكارمه ندب . وكان يقول

عند بكائه عليه : لآخذنّ بثارك من الذين اغتالوك . ولآخذن دمك من قوم قتلوك وما قاتلوك . واستمر ينـــادي بذلك في قيامه وقعوده . وركوعه وسجوده .

فبينما هو جالس في بعض الأوقات إذ سمع قائلاً يقولُ : خرج عبد الحليم اليازجي للقتال ، وبرز للنزال . فخرج من مخيّمه مع شرذمةٍ قليلين ، يظن أنهم يدومون على القتال ملازمين . فتوسّط صفوف العـــدوّ ، من غير ترتّب ولا هدوّ . والتفت وراءه فما وجد من جماعته أحداً ، ووجدهم قد تفرّقوا بَدَدًا . فلم يرجع عن قصده ، ولا حاد عن جِدّه . فجاءته بندقةٌ ألقتْه صريعا ، وأجرتْ دمه نجيعا . فثار قائماً على ركبتيـه ، وقايمُ سيفه بيديه ، وهو يزأرُ كالأسد الحصور ، أو كالكميّ الغيور ، إلى أن تكاثر عليه العدوّ ، وهو وحيد ، وقطعوا رأسه من الوريد ، وبقي مطروحاً تسفي عليه الرياح ، وتسقيه دموع الغوادي في الغدو والرواح .

وفي اليوم الثاني نادى منادٍ من قبل عبد الحليم اليازجي ليتقدم من يريد فيأخذ جسد مسيح فيواريه التراب . ويدفنُه عند مَنْ مضى من الأحباب . وأنشد قول القائل :

نفلّق هاماً من رجالٍ أعِزّةٍ علينا ، وهم كانوا أعَقّ وأظلما

فأخذه جماعته بالأمان ، وغسلوه وأدرجوه في الأكفان ، ودفنوه عند صاحبه ابراهيم . جوار بلدة الخليل ابراهيم .

ولعمري لقد وقعت لطيفة . وهي أنّ الرُها بلدة ابراهيم الخليل ، [1]

---

(١) سقط من « هـ » قوله « ولعمري ... حتى وكان ابراهيم » .

وكان ابراهيم قد ألقى فيها في النيران . فأوّلُ مَنْ قُتل فيها من المسلمين إبراهيم المذكور ، وهو قدرٌ في الكتاب مسطور .

أخبرني صاحبنا حسين بُلوكْباشي الكردي الشهير بابن شرف أنه لمّا دام نزالُ المسلمين للبلدة المذكورة ، وعلم عبد الحليم أن فرقته مأخوذة لأنها محصورة ، شَرَعَ في طلب الأمان من الوزير محمد باشا المذكور ، على شرط أن يسلّم لهم حسين باشا ، ويكون هو منهم ناجياً ، وبالخيانة مع حسين راضياً . وكان حسين شجاعاً باسلاً ، وبطلاً حافلاً ، لكنه كان عاطلاً من الحيلة والخديعة ، فوقع من شرك اليازجي في مصيبة مريعة فأنزل اليازجي أخاه حسناً بالأمان ، بعد أن استرهن عنده عليه زمرة من الشجعان . وترددَت الرسائِل ، وتعددت الوسائل ، وحسين كالمحبوس في مكانه ، يظُنُ القومَ اخوانَه وهم من خوّانه . فانعقد المقال ، وكثر القيلُ والقال . فأخرج حسيناً من موضعه وهو لايدري إلى أين . ولم يعلم أن ذلك الطلوع يسوقه إلى الحَيْن . فلما تحقق حسين أنه ذاهب الى الحين . قال لليازجي مخاطباً ، وله بأليم الكلام مُعاتِبا : هكذا تكونُ العهود من الشجعان ، لاكنَّك عادمُ الإيمان ، فلذا خنت في الأيْمان . وقد أحلت الله عليك ، وسقت عاقبة خيانتك إليك . وأنزله من الصياصي ، بعد اغضابه لمالك النواصي ، وتسلّمه أهل الشام ، وأعطوه الوزير بعد العشاء في الظلام .

فلاطفه الوزيرُ بالكلام ، وقال له : لأيّ شيء خنت سلطان الاسلام وأنت تعلم أنّ سيفَ السلطان قاطعٌ طويل ، وأنّ من عصاه لا يجد الى النجاة من سبيل ؟

فاعتذر بأعذارٍ غيرِ مقبولة ، وإنْ كانت في معرض العُذْر منقولة وأرسله الوزيرُ إلى باب سلطان الاسلام السلطان الأسعد الأمجد ، مولانا السلطان الغازي محمد . وهنـاك أحضروه الديوان ، ونادى بشعار الشرع فأجابوه الى ما أراد . وحقّقُوا عليه في الأرض الفساد . فحكم القاضي بقتله ، وصُلِبَ بقضاءِ القادرِ وعدله ، ونال جزاء ما اكتسب من الاثام ، ونعوذ بالله من غضب الملك العلام .

وبعد تسليم اليازجي لحسين باشا ارتحل عسكر الشام سريعاً ، ورحلوا من منازلة منازل الرُها جميعاً . لهجوم جيش الشتا ، حيث كان قد قرب وأتى . ولم يمكث الوزيرُ بعدهم إلاّ أيامـاً قليلة ، ومدة غير طويلة . ورحل هو الى جانب حلب . ونال اليازجي برحيل القوم غاية الأدب ، واستمرّ مُدة الشتا في الرها مقيما ، وسار في الربيع الى عينتاب يظنُّ أنه صار من الحروب سليماً .

فغضب السلطانُ لبقائه في الحياة ، وأرسل الى قتاله عسكرا جهزّه وأمضاه . وجعل المقدَّمَ على العساكر كلها الوزير حسين باشا ابن الوزير الكبير الأعظم محمد باشا . وكان الوزير حسين باشا المذكور في بغداد والياً عليها من جانب السلطان محمد . فلما تحقق عصيان اليازجي عبد الحليم ، وأنه ما رجع عن العصيان بشكاله العقيم ، وأنّ فساده قد زاد ، وضُرّ به جميعُ العباد ، أرسل السلطانُ نصره الله تعالى إلى حسين باشا المذكور حكماً وعليه خطّه بأنه يقصدُ اليازجي المذكور العاصي ، وأنه يجمعُ عليه من عسكره الداني والقاصي . وأرسلَ من جانب بابه العالي أيضاً

الوزيرَ ابراهيم باشا الذي كان والياً بحلب ، مُقدَّماً على نحو عشرة آلاف عسكري من جانب عسكر باب السلطان بقسطنطينية المحمية .

فمشى السردار الكبير ، حسين باشا الوزير ، من جانب بغداد ، الى أن وَصَلَ إلى مدينة آمد من ديار بكر . فجعل إقامته بها لتمهيد أمور العسكر ، وبثّ الأحكام إلى البلاد ، ويستدعي الأجناد ، لقتال اليازجيّ الخارجي . وجاء من جانبه حكمٌ إلى السيد الشريف محمد باشا ، وهو وزير بدمشق ، يدعوه مع عسكر دمشق إلى التوجّه الى جانب البلاد الحلبيّه ليَلْتَقُوا بعينتاب ، ومِنْ هُناك يسيرون جميعاً لقتال اليازجي المذكور . وكان وصول الحكم إلى دمشق في أواخر شعبان سنة تسع وألف .

وكان السلطانُ نصره الله تعالى أرسل خَطّهُ بيده ، وهو الذي يُسَمُّونه خط همايون إلى حسن باشا حين جعله سرداراً على العساكر التي عيّنَها لقتال اليازجي . وحاصلُ الخَطّ أنه أجاز له أنْ يُعطي ما أراد من المناصب ، ويتصرّف فيما شاء مِنَ المراتب ، ويعزل مَن اختار ، ويُوَلّي مَنْ يقع عليه الاختيار ، كلّ ذلك استجلابٌ لخاطره ، وحثٌ له على الرغبة في قتال المذكور بنفوذ أوامره .

فسار حسين باشا الى ديار بكر ، ومن ديار بكر الى عينتاب . وهناك التقى مع العسكر الشامي . وساروا من هناك يقطعون المراحل الى أن وصلوا الى مرحلة يقال لها البستان . فنزلوا بها وباتوا تلك الليلة . وكان نزولهم في مقابلة جبلٍ فيه مكان أهل الكهف على أصح الأقوال فبينما هم على الصباح ، وإن بعسكر اليازجي الخارجي قد أقبل من جانب الشرق ،

وشرعَ كلٌّ من الفريقين في صفّ عسكره . وتقدمت عساكر السلطان ، من جانب ديار بكر ومن جانب وَانْ ، ومن جانب أزرن الروم والأكراد التي جاءت من جزيرة ابن عمر . وتصادم الفريقان ساعة وإذا بعسكر اليازجي قد عبر على عسكر السلطان . وكان عسكر الشام واقفاً لم يُحارب . وذلك لأن اكابر الدولة قد أجمع رأيهم على أن يتركوا عسكر الشام ذخيرة لهم الى وقت الاحتياج . فلما ترجح جانبُ الخارجي أمر الوزير عسكر الشام بالتقدم الى المحاربة فتقدّموا وكبّروا ، وصَدَموا عسكر الخارجي صدمةً أزالتهم عن منازلهم ، وأظهرُوا صَنْجَقَ الرسول ﷺ . فلما ولّى عسكرُ اليازجي وضعوا فيهم السيفَ ، فقتلوا منهم في ذلك اليوم ما يزيدُ على أربعة آلاف رجل ، وهرب اليازجيُّ ، واستمر هاربا إلى أن دخل إلى مكان يُقال ممسون[1] على ساحل البحر . ودخل الشتاء فشتى حسن باشا في مدينة يقال لها توقات .

وكانت الوقعة المذكورة في يوم الأحد سابع عشر ربيع الآخر سنة عشرٍ بعد الألف .

وفي يوم الجمعة السادس والعشرين من شوّال وردت الأخبار إلى دمشق بموتِ اليازجي الخارجي المذكور ، وأنه مات في سَمْسُون في اليوم

---

(١) رسمها المحبي « ساميسون » وقال : بلدة مشهورة في بلاد الترك بالقرب من طرابزون . والعامة تقول « صاميصون » بالصاد . ٢/٣٢٤ . قلت : والعامة تقول في أيامنا « صمصون » .

السادس والعشرين من رمضان من السنة المذكورة بعلّة الزحير . وأخبر من ذكر ذلك عنـــه أن جماعته افترقوا فرقتين الواحدة طلبت الأمان من السردار حسين باشا المذكور ، والواحدة ذهبَتْ مع أخيه حسن بك إلى العاصي رُستَم المقيم بمدينة ملطيّة .

وقد صحّ أن خسرو باشا الخادم الآتي ذكره إن شاء الله تعالى عيّنه السلطان نصره الله تعالى سرداراً على عساكر كثيرة لحرب رستم المذكور . وقد أرسل إليّ خسرو باشا المذكور مكتوباً يسألُ فيه الدعاء ، ويستنهض همة الصالحين من دمشق على الدعاء له بالنصر . واللهُ تعالى هو اللطيف الحليم ، وهو بكل شيء عليم .

١٣١

علي بك بن الأمير أحمد
ابن جانبلاذ الكردي [(١)]

كان هذا الرجل صنجق[(٢)] قصبة صغيرة يقال لها العزيز . وكان عمه حسين باشا ابن جانبلاذ تولى حلب من جانب السردار سنان باشا الشهير بابن جغال الفرنجي الأصل ، ويُقال إنه أخذ منه على توليه حلب سبعة آلاف ذهباً . وكانت توليتُه المذكورة على شرط أن يُعطي في كل سنة للسلطنة ست كرات ، كل كرة مئة الف ذهباً ، وعلى أن يسافر مع سنان باشا المذكور الى حرب قزلباش بخمسة آلاف مقاتل .

فلما جاء الى حلب تباطأ في الذهاب الى السردار المذكور ، وخرج من حلب متراخياً ، فما وصل الى السردار إلا بعد انقضاء حربه مع عباس سلطان قزلباش . وكانت الكسرةُ قد وقعت على جانب السردار المذكور وانتصر عباس المذكور . فلما وصل حسين باشا الى السردار قتلـه في مدينة وان .

فلما وصل خبرُ قتله الى حلب عصا ابنُ أخيه علي بك المذكور ، ورفع علمَ العصيان ، وجمع الطائفة الذين يُقال لهم السكبانية حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف . ومنع مال السلطنة .

---

(١) ترجم له المحبي (١٣٥/٣) ترجمة موجزة .

(٢) ب « سنجق » .

وكان السلطانُ أحمد ، نصره الله وأيّده ، وخلّد ملكه وأبّده ، قد أرسل حاكاً إلى حلب يُقال له حسين باشا ، فلما وصل إلى مدينة آذنة أرسل علي بك إلى رجل يقال له جمشيد ، كان حاكاً في آذنة وعنده رجالٌ من السكبانيّة التابعين لعلي بك المذكور : بأنك تعمـلُ ضيافة لحسين باشا واقتله ، واقتُلْ جميـع جماعته ، ولا تُعْطِهم أماناً لحظةً واحدة . ففعل ما أمره به وقتل حسين باشا المذكور ، واستمرّ في حلب مُظْهِراً عصيانه .

وأرسل يوسف باشا بن سيفا صاحب عكّار إلى باب السلطان أحمد ، نصره الله تعالى ، رسالةً يطلبُ أن يكون أميراً على عساكر بلاد الشام ، على أن تكون جمعيّته بحماة ، ويلتزم بإزالة علي بك المذكور عن حلب . ويُقال إنه بذل مالاً كثيراً ، حتى إنه نال من الاذن السلطاني ما طلب ، فجاءه الأمر على ما التزم .

فلما جاءه الأمرُ المذكورُ أرسل إلى عسكر دمشق يطلبهم بموجب أنه صار أميراً عليهم لمقاتلة علي بك المذكور ، فاجتمعوا في دمشق وتشاوروا في ذلك ، فأجمع رأيهم على أن يسافروا . فسافر بعضُهم إلى حماة ، وجاء ابنُ جانبلاد الى حماة ، وتلاقيا وتصادما ، فما هو إلا أن كان اجتماعهم بمقدار نحرِ جزور ، فانكسر ابنُ سيفا وأتباعُه ، ورجع بأربعة أنفار ، وترك الدارَ والديار . وكان قدومه بصفة التكبّر والتكثّر ، والتجبّر والتبختر(١) . وكان رجوعه كسيراً ، ولم يجد مُسْعِفاً ولا نصيرا .

بلغني أنّ عمه الأمير محمود ابن سيفا قال له وقد مرّ على منزله بحصن الأكراد : تشرفنا يا أمير في هذه الليلة .

---

(١) « والتبختر » ساقطة من ب .

فقال له : أي والله نُشَرّفك .

وكرّر ذلك مستهزئاً على حالته التي هو فيها .

ثم لما انتصر علي بك نزل في مخيم الشاميّين ، ومخيم ابن سيفا ، واستولى على جميع ما هنالك . ثم أرسل وراءَ الأمير فخر الدين بن معن أمير الشوف وأمير بلاد صيدا وصنجق صفد ، وأظهر له أنه قريبه ، مع بُعْدِ النسبة بينهما . فحضر اليه واجتمعا عند منبع العاصي ، وتشاورا على أن يقصدا طرابلس لأجل الانتقام من ابن سيفا . فسارَ ابنُ سيفا في البحر وأخلى لهم طرابلس وعكّار ، وما يتبعهما من هاتيك الديار . وأرسل أولاده وعياله إلى الشام ، وأجلس مملوكه يوسف في قلعة طرابلس ، فتحصّن بها وأرسل إلى عمه محمود بن سيفا فتحصّن بحصن الأكراد .

وسار في البحر إلى أن وصل إلى جزيرة قبرس ، وأخذ له الفرنجُ مالاً كثيراً وتجملاتٍ لا تُعَدّ ، لأنه كان قد أوسق مراكب في البحر . ولم يقرّ له قرارٌ في البحر ، فرجع إلى جانب القبلة فكان خروجه من ساحل حيفا ، وهي داخلةٌ في ولاية الأمير أحمد بن الأمير طرباي من عرب حارثة . وخرج إلى حيفا بسبعة رجال . ولو أراد ابنُ طرباي لملكه وقَتَلَهُ ، وأخذ جميع ما معه ، لأنه كان معه من قسم النقد ما يزيد على مئة كرة من الدنانير ، كل كرة مئة ألف . غير ان الأمير أحمد بن طرباي أخذتْهُ أريحيّةُ الإمارة ، وقال للأمير يوسف : يا عم والله لو كان عندي مالٌ لساعدتُك به ، ولكنْ أنا فقيرٌ من المال ، وعندي خيل عِتاق . فأعطاه من الخيل خمسةً ليس لها ثمن ، لكمالِ جنسها وأصالتها . وقام في ضيافته ومساعدته . وعَفّ عن ماله وكثرته بل أرسل اليه ابنُ جانبلاذ أن يُمْسِكَهُ ، ومالُهُ له ، وما يريدُ منه إلا رأسَه ، وأنْ يرسله اليه حيّاً ، فأعرض عن ذلك كلّه ، وقال : دَخَلَ في جواري ، وثَبَتَ

حقّه بدخوله إلى داري ، والمال يزولُ ، والثروة تحولُ ، ولا يبقى سوى الثناء الجميل . وأما الدنيا فإنها ذاهبة عما قليل .

وأرسل ابن سيفا إلى الشام خبراً بأنه طلع من حيفا ، وطلب من عسكر الشام مَنْ يذهب إليه ليأتي في حمايتهم إلى الشام . فذهب اليه جملة من العسكر الشامي طمعاً فى ماله لا رغبةً في مودته ، ولا ميلاً إلى محبته . فورد دمشقَ وعسكرُهُ الأموالُ المحمّلة ، والمراكبُ المُثْقَلَة . فلما وردها نزل في بيت بهرام ، المقابل للدفاتر السلطانية بدمشق الشام . ثم أخذته حميّةُ الأنَفَة فاشترى بيتاً كان مُلْكاً لأميرِ الأمراء سليمان باشا الرَمَضاني باثني عشر ألف دينار ، ومكث بدمشق متمارضاً . هذا ما صدر له .

وأما ابن جانبلاذ والأميرُ فخر الدين بن معن فإنهما أرسلا إلى طرابلس درويش بك ابن الأمير حبيب بن جانبلاذ فضبطها ، واستولى على غالب أموال مَنْ وجد هناك ، واستخرج دفائن كثيرة لأهلها . ولم يستطع أن يملك قلعة طرابلس لحصانتها . وتحصن يوسف مملوك ابن سيفا بها . وسار علي بك وابنُ معن إلى جانب البقاع العزيزي من نواحي دمشق ، ومرّا بمن معهما على بعلبك ، وخرّبا ما أمكن تخريبُه منها واستقرّا في البقاع ، وأظهرا أنهما يُريدانِ قتالَ عسكر الشام ، لا سيما وابنُ سيفا قد استقرّ بها .

ولم تزل العساكر الشامية ترد إلى دمشق حتى استقر في وادي دمشق الغربي ما يزيد على عشرة آلاف ، وتزاحف العسكران حتى استقر ابنُ جانبلاذ وابنُ مَعْن في نواحي العرّاد ، وزحف العسكرُ الدمشقي إلى مقابلتهما .

وأما ابنُ سيفا فانه احتجّ بالتضاعف ، ومكث في دمشق ، ولم يرحل مع العسكر الشامي . غير أنّ ابن أخيه محمداً خَرَجَ مع العسكر ، ومعه طائفة تابعة له .

فاستمرت الرسلُ مترددةً بين الفريقين ليصطلحا . فلم يقــدَّرْ لهما الاصطلاح لسبق المقادير الأزليّة . وفي الحقيقة طال طلب ابن جانبلاذ ومَنْ معه للصلح ، ولم يأب الصلح سوى رجل من عسكر دمشق كان جاويش العسكر الدمشقي ْيقال له محمد بن الدزدار ، فإنه خبيث الطويّة ، غليظ الأفعال التي ليست بمرضية . فإنه كان يُصَرِّحُ بشتمِ ابنِ جانبلاذ علي بك ويشتم ابن معن .

فلما لم يتّفِق الصلح مع تكرّر طلبــه ، وقد تقارب العسكران ، وتزاحف الجيشان ، تَوَهَّمَ ابنُ جانبلاذ من صَدْمَةِ العسكر الشامي ، لأنّه كان مشهوراً بالنجدة والشجاعة . فشرع في تفخيذ أكابر الشاميين عن الاتفاق ، ليقع بينهم الشقاق والفراق . فأرسل إلى طائفةٍ من أكابرهم : منهم شاهين القبرصي ، ومنهم ابراهيم القيصري ، ومنهم همّت المشهور بفرفرة همت ، وآخرون لا أعرف أسماءهم ، فوردوا عليه في مخيمه ليلاً ، وألبسهم الخلع ، وتوافقوا معه على أنهم منكسرون عند المقابلة .

وكان في جانب ابن جانبلاذ الأمير فخر الدين بن معن ، وأحمد بن الشهاب مُقدّم وادي التيم ، ويونس ابن الحرفوش الذي صار آخراً أمين بلاد بعلبك من جانب الباغين لا من جانب السلطنة . وانضم إلى هؤلاء جموع من البقاع ومن بلاد صفد تبعاً لابن معن .

وأما ابن جانبلاذ فقد كان عسكره في الغالب السكبانيّة ، الطغاة البغاة الخارجين عن الدين ، المارقين عن الإيمان مروقَ السهم عن الرمية ، فلمّا لبس الأعيانُ مِن عسكرِ دمشق الخِلَعَ من ابن جانبلاذ طابت نفسُهُ للقاء عسكرهم . فتناوش الفريقان القتالَ يوم السبت من أواسط جُمادى الآخرة من شهور سنة خمس عشرة بعد الألف ، ولم يقع قتال

يفصل بين الفريقين . ففي صبيحة يوم الأحد وقف العسكر الشامي في مقابلة عسكر ابن جانبلاذ الباغي ، واقتتلا فما مرّ مقدار جلسة خطيب إلا وقد انفلّ العسكر الدمشقي ، حتى قال ابن جانبلاذ : العسكر الشامي ما قاتلنا وإنما قابلنا للسلام علينا وانصرف .

فلما هرب عسكر دمشق رجع بعضهم إلى دمشق ذاهباً إلى قلعة المزيريب ، فخزاهم الله وسَوَّدَ وجوهَهم ، فإنّ النساء أحسنُ حالاً منهم بكثير ، لأن النساء أقَمْنَ في دمشق وغلّقن أبوابهن ، وربما ضربتِ المرأةُ بَعْضَ مَنْ وَرَدَ عليهن من السكبانية .

وأما هؤلاء فإنهم كانوا يُظهرون الشدّة والقساوة والقدرة على الضعفاء في الأسواق وفي أزقة المدينة . ولما قابلهم مَنْ قاتلهم لم يقفوا بمقدار صلاة ركعتين ، وتعالى الله تعالى أن يُضيع حَقّ أحدٍ ، تعالى عن ذلك وتقدّس والعجب أنهم كانوا جالسين في مقابلة العدو وكانوا في كل يوم ينقلون تبن الفلاّحين وشعيرَهم ومؤنتهم من بيوتهم ، مثل الكشك والبُرْغُل والطحين . هؤلاء الفلاحون هم رعاياهم ، وتجب عليهم حمايتهم . والله إنّ الفلاحين ما وجدوا من الأعداء عُشر ما وجدوا من هؤلاء الأحداث . عليهم غضبُ الله تتبعه اللعنةُ إلى يوم القيامة .

أخبرني رجل منهم صادق القول وهو من أصحابنا قال : كنا في قلعة المزيريب نحو خمس مئة رجل . وإذا بفارسٍ يسوقُ فرسه طلق العنان ، وهو يقصد جانبنا . فلما رأيناه بادرنا إلى خيولنا هرباً . فمنا مَنْ ركب فرسه عَرِيّاً بغير سرج ولا لجام ، ومنهم من ركب فرسه وتوجّه بوجهه إلى جانب ذنبها يظنُّ أن ذنبها رأسُها من شدة ما حصل له من الجزع ، ومنهم من ركب فرسه وهي مقيّدةٌ في قيدٍ من الحديد ، وكان كُلّما ضربها لتعدو به حَرّكت ذنبها وهي واقفة . فلما تكرر ذلك منه ومنها سأل

رجلاً عن سبب وقوفها وعدم عَدْوِها . فقال له : إنَّ فرسَكَ مقيدةٌ في رجْلَيْها بِقَيْدٍ من الحديد . فنزل بعد ذلك عنها ، وشرع في تَعَرُّفِ أسباب حَلِّها من قيدها . ومنهم من رَكِبَ الفرسَ ورأسُه مكشوفٌ يظن أنَّ عمامته على رأسه ، إلى غير ذلك .

ولما هربوا من الفارس الذي رأوه من بعيد فبعضُهم استمرَّ هارباً يوماً ، ومنهم مَنْ سار إلى البريّة لا يدري أَيْنَ يسلكُ . فبعد أيّامٍ ظهر أن الفارس الذي خافوا منه إنّما كان قادماً عليهم ليبشّرهم بحصول الصلح بين ابن جانبلاذ وبين أهل المدينة على مالٍ أخذوه من ابن سيفا ، ورحل ابن جانبلاذ . فتراجعوا إلى المزيريب بعد أيام .

هذا ، ولما هرب العسكرُ الدمشقيُّ من صدمة ابن جانبلاذ قصد بعضهم دمشق ، وقصد بعضهم المزيريب ، كما شرحناه . فأمّا الذين رجعوا إلى دمشق فقد اختفوا ، ومنهم من تلبّس بصورة النساء وجلس بينهُنَّ مُتَحَجِّراً مُقنّعاً . وكان إذا تكلّم يُميل صوته إلى نحوِ كلامِ النساءِ ، ليظنَّ مَنْ يراه أنّه امرأةٌ ، وإنْ كان إمرأةً في الأفعال ، إذ الذكورة تقتضي الغَيْرة . ومنهم مَنْ دخل في التبن وغطس فيه ، ما عدا عينيه . فلما تبين الأمر أنَّ ابن جانبلاذ يريد الصلح تظاهروا في الجملة . وأغلقت أبوابُ المدينة . وقام قاضي دمشق إبراهيم أفندي [بن علي الازنيقي] بخدمه المدينة وخدمة أبوابها . وكذلك الرجلُ المدعو بحسن شونيزه الذي صار مستوفياً بدمشق .

وأمّا ابن جانبلاذ فإنّه بعد أنْ كَسَرَ الجماعة زحف حتى نزل بقرية المزّة . وكان نزولُه في الخيام . وأما ابنُ معن فإنه كان ضعيف الجسد في هاتيك الأيام . وكان نزوله في جامع المزة .

فذهب الشيخ محمد ابن الشيخ سعد الدين الجباوي إلى ابن جانبلاذ يريدُ التكلم معه فيما يصير إليه حاله بالنسبة إلى المدينة . فسأله ابنُ جانبلاذ عن ابن سيفا . فقال له : إنه خرج البارحة من المدينة ليلاً خائفاً يترقب، وفي صحبته الأمير موسى بن الحرفوش . فإنّ الأمير موسى المذكور خرج مع ابن سيفا من جهة باب الفراديس . فلمّا وصلا إلى الباب المذكور وجداه مقفلاً ، ولم يجدا له مفتاحاً . فأمسك الأمير موسى بيده فأساً كبيرة وضرب بها حديدة الباب فقطعها . وخرج مع ابن سيفا هاربين إلى جانب حصن الأكراد .

فلما ذكر ذلك ابن سعد الدين لابن جانبلاذ أنكره ، وقال له : أتحلف على أنّ ابن سيفا ليس في دمشق ؟ فحلف له . فصدّقه ، وغضب لذلك . وقال : أهلُ دمشق لو أرادوا السلامة مني ما مكّنوا ابن سيفا من الخروج ، وهم يعرفون أنني ما وردت بلادهم إلاّ لأجله ، فإنّه قد اشترى السفر عليّ من جانب السلطنة بخمسين ألف دينار من الذهب .

ونادى عند ذلك في السكبانيّه أن يذهبوا مع الدروز جماعة ابن معن لنهب دمشق . فوردت السكبانية والدروز أفواجاً إلى خارج دمشق ، وشرعوا في نهب ما كان خارج دمشق من المحلات فأكثرُ النهب وقع في الصالحيّة ، وفي قبر عاتكة ، وفي الشويكَة ، وفي باب المُصَلّى ، وفي القُبَيْبات .

والقُبَيْبات هي محلّةُ ابنِ سعد الدين ، وهي محلّة كبيرةٌ يخرج منها ألفُ رجلٍ مُسَلّح ، لكن ابن سعد الدين هذا أتى من عند ابن جانبلاذ برجلٍ يُقال له عقيل ليحرس بيته . فحرس بيته وأطلق البُغاةَ على بيوت القُبَيْبَات . فنهبوها نَهْباً عامّاً . وكان الشيخُ المذكورُ سبباً لنهبها ،

لأنه قال لأهل المحلّة المذكورين : مَنْ رفع يده بسلاحٍ قطعتُها . فالْقَمَهُمْ بيوتَ الفقراءِ والضعفاء ، وهيّأ لهم نهبها ليحفظ بيتَه . وهكذا كان ، فإنْ عقيلاً المذكور لم يأخذ للشيخ سوى فرسين عظيمين مثمنين وبغلة واحدة .

وأما الشاغورُ فإنّها محلّةٌ عظيمةٌ . وأهلُها تَوَجّلوا وحَمَوْا أنفسهم من الجلاليّة ، بل غنموا شيئاً من الثياب والأسلاب والسلاح . ولعمري إنّ بعض الرعايا قد تَنَمّروا وتَشَمّروا ، وقد قتلوا من السكبانيّة والدروزِ ما قارب ألف رجل . وكانوا يُلْقُونَهُمْ في أماكن الماء ، وفي بيوت الغائط ، ويقطعونهم ، ويغنمون أموالهم .

فلما اشتدّ الكربُ والحربُ على المحلات الخارجةِ عن دمشق ، وتلاحم القتالُ ، وتزاحم الرجالُ ، وقامت الأبطالُ . خاف العقلاء في دمشق . فخرج جماعةٌ إلى ابن جانبلاذ وقالوا له : إن ابن سيفا قد وضع لك عند قاضي الشام مئة ألف قرش من القروش الفضيّة الكبيرة ، فخُذْها وانصرف عنا .

فقال : زيدوها خمسة وعشرين ألف قرش أخرى .

فقالوا : سمْعاً وطاعة .

وأخذوا المئة التي كان ابنُ سيفا قد وضَعها ، وتداركوا له خمسة وعشرين ألف قرش أخرى كما وقع عليه معه الاتفاق من مال بعضِ الأيتام التي كانت على طريق الأمانة في قلعة دمشق وبعد ذلك أدّاها أيضاً ابنُ سيفا كالمئة ألف الأولى .

فلما تكلّم الناسُ في الصلح طلب ابن جانبلاذ المالَ الذي وقع عليه الصلح على يد حسن شويتزه الدفتري بدمشق ، وقال : إنْ جاءني المالُ

في هذا الوقت رحلتُ فحملوا إليه مئة ألف قرش وخمسة وعشرين ألف قرش. ونادى بالرحيل عن المزّة في اليوم الرابع من نزوله. واستمرّ النهبُ في أطراف دمشق ثلاثة أيّامٍ متوالية. وكانوا يأخذون الأموالَ والأولادَ الذكور، ولم يتعرّضوا للنساءِ بوجهٍ من الوجوه، والحمد لله على ذلك. وكان ذلك بوصية ابن جانبلاذ.

وما أفحش في النهب إلاّ الدروزُ جماعةُ ابنِ معن، ومَن انضمّ إليهم من أهلِ البقاع، وأهلِ وادي التيم، قبحهم الله تعالى أجمعين. فإنّهم كانوا يأخذون الغالي والرخيص، ويكسرون الأواني بما فيها من المأكولات. بخلاف السكبانية الأروام فإنهم كانوا يأخذون الأولاد الذكور، وما غلا من الأسباب والأمتعة، وربما كانوا يُظهرون الشفقة على بعض مَنْ يرَونه من المساكين، وربما كانوا يعطون بعض الدراهم لمن يرونه جالساً عند مزارٍ من مزارات دمشق، ويقولون لمن يرونه من الناس: ادعوا على عسكركم فإنهم كانوا سبباً في نهبكم. نحن عرضنا الصلح فأبَوا.

ومما اتفق من السكبانيّة أنّ رجلاً روميًّا من جماعة ابن جانبلاذ دَخل في أيام النهب إلى بيتٍ في محلة العُقَيْبَة. وكان البيت لحسين چلبي كاتب العسكر بدمشق. وكان حسين المذكور عند كاتب الحروف في بيتنا داخل دمشق في زقاق النحّاسين. وكان بيتُه في محلة العقيبة. وكان في بيته رجلٌ مغربي يحرسه. فلما دخل الرومي إلى بيت حسين المذكور أخذ منه ما قَلّ، لأنه ما وجد من الخفيف اللطيف إلا قليلا. لكنّه وجد خابيةً من الخمر العتيق مختومة، ووجد بالقرب من الخابية قدحاً من البلور. فلما رأى ذلك قال المغربي: صاحب هذا البيت شاب أم شيخ؟

فقال له: هو شاب صغير السن.

فقال للمغربي : قل له يسلم عليك فلان ، ويقول لك قد وهبك هذه الخابية وما بهـا من الخمرة ، ووهب لك هذا القدح فليتمتع بذلك سالماً غانماً هنيئاً مريئاً .

وترك ذلك بحاله وذهب عنه .

ولما قام ابن جانبلاذ من المزة بعد أن أخذ المـــال المذكور ارتفع النهب عن المدينة ، وفي الحقيقة قد عَفّتْ نفسه عن مدينة دمشق ، إذ لو أرادها ، لأوصل نفسه مرادَها ، لأنها ماكانت تحمل الحصار يوماً واحداً لقلة ما فيها من الزاد ، لأن أهل دمشق غالبهم فقراء ، وما رمى عليه نائبُ القلعة شيئاً أبداً لأنّه كان يخافُ من دخوله إلى المدينة ، وأنه ينتقم منه .

ولمّا فتحت أبواب المدينة في اليوم الرابع ازدحم الناس على الخروج منها أفواجاً أفواجاً ، ودخل إليها مَنْ نُهِبَتْ أسبابُهم من المحلات الخارجة فكانوا لا يُعْرَفون لتغيّر أسبابهم وتغير وجوههم . وكان الرحيمُ يراهم فيبكي عليهم . فكم من غنيٍ منهم أصبح فقيراً ، وكم من رفيـع الرتبة أمسى مأموراً بعد أن كان أميرا وشرعتِ العساكرُ تتراجع إلى دمشق غير مبالين بما صدر منهم من الفضيحة ، والأفعـال القبيحة ، التي توجب الدمار ، وتخرب الديار . ولكن :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيـلامُ

ولما فارق ابنُ جانبلاذ دمشق سار على طريق البقاع ، وفارق ابن معن هناك . فدخل ابن معن إلى جبله ، وسار ابن جانبلاذ إلى حلب . لكنه لما وصل إلى مقابلة حصن الأكراد أقام هناك ، وأرسل إلى ابن سيفا يقول له : إمّا أن تصالح وتُصاهر ، وإمّا أنْ تُقابح وتصـادر . وأنا لا أذهب من هذا المنزل إلا بأحد شيئين : إمّا بقتالك وإما بصلحك .

فدخل الناسُ بينهم . فأعطى ابنُ سيفا لابن جانبلاذ ما يقرب من ثلاث كرات كل كرة مئة ألف قرش . وزوّج ابنَ جانبلاذ بنتَه ، وتزوّج منه أخته لابنه حسين . ورحل ابنُ جانبلاذ من هناك إلى جانب حلب . وجاءته الرسلُ من جانب السلطنة تُقَبِّحُ عليه ما فعل في الشّام من النهب والغارة فكان تارةً يُجيب بالإنكار ، وتارةً يُحيل الأمرَ على عسكر الشام .

وشرع يسدّدُ الطرقاتِ ، ويقتلُ مَنْ يعلم أنه سائرٌ إلى باب السلطنة لإبلاغ ما صدر منه ، حتى انه أخاف العباد واستقل بملك البلاد . فكان حكمه نافذاً من آدنه إلى نواحي غزة . وكان ابنُ سيفا مُمتَثِلاً لأمره ، غير تاركٍ مداراة السلطنة . واتفق مع ابن سيفا على أن تكون حمص تحت حكم ابن سيفا . وكانت حماة وما وراءها إلى الجانب الشمالي إلى آدنه في تعلق ملك ابن جانبلاذ . وانقطعت أحكامُ السلطنة عن البلاد المذكورة نحو سنتين كاملتين . ووقعت الوحشةُ وظلمة الظلم في البلاد المذكورة وانقطعت الطرقات ، وأظلمت الجهات .

وجاءَ من باب السلطان حاكمٌ لحلب يقال له حُسين باشا . فلمّا وصل إلى آدنه أرسل ابنُ جانبلاذ إلى جمشيد الخائن الذي استولى على آدنه من غير طريق انِ اجعلْ ضيافةً لحسين باشا ولأكابر جماعته واقتلهمْ وهم على الطعام . ففعل ما أمره به . وقُتل الباشا المذكور وأكابر جماعته ، وزال اسمه ورسمه . واستولى ابن جانبلاذ على غالب القصبات من حماة إلى آدنه .

وتولّى الوزارة رجلٌ من داخل بيت السلطان شهرته صارقجي مصطفى باشا . فكان خبيثاً لئيماً . فاطّلع السلطانُ أحمد على خيانته فقتله .

ثم تولى وزيرٌ آخر يُقال له درويش باشا . وكان قريبَ العهد بالدخول إلى بيت السلطنة . وكان في الداخل خادماً لبستان السلطان فاستولى على

الوزارة العظمى . وكان باطنُه خبيثاً . وكان يقتل من يرى عنده مالاً كثيراً . فلما اطّلع السلطانُ ، نصره الله تعالى ، على خيانته ، قتلهُ قتلةً شنيعة . وكان قد قَتَلَ قبل ذلك وزيراً يُقال له قاسم باشا . وهو الذي كان قد أجلسَه على سرير السلطنة عند موت أبيه .

واستمر ابنُ جانبلاذ في حلب متحكّماً متجبّراً ، حتى أن الأميرَ أحمد بن ريشة الحياري لما مات أرسل ابن جانبلاذ إلى سَلَمْيَة عسكراً فضبطوها ، وأخذوا ما بها من الغلات والذخائر التركات للأمير أحمد المذكور .

ولما استقرّ الأمرُ في الشام على رجوع عساكرها الذين كانوا قد هربوا من ابن جانبلاذ أرسلوا إلى باب السلطنة رجلاً من جماعته ومعه جماعةٌ من عسكر دمشق . فذهبوا من طريق البحر ، ونزلوا من ساحل طرابلس ، واستمرّوا في قسطنطينية مدةً طويلة ، إلى أن قدم الوزيرُ الأعظم مراد باشا ، بلّغه الله تعالى من الخير ما شاء ، من سفر الروم . وكان قد أصلح ما بين السلطان وبين سلاطين المجَر . فلمّا قدم الوزيرُ المذكور عرضوا عليه ما معهم من الأوراق والمكاتيب والعُروض من حُكام دمشق وأكابرها . فعرضها على حضرة السلطان . فعين السلطانُ الوزيرَ المذكور لدفع ابن جانبلاذ عن حلب ونواحيها ، ولدفع بقية الخوارج عن الخروج على السلطنة ، مثل العبد سعيد ومحمد الطويل الخارج في نواحي سيواس . فقدم الوزيرُ المذكور ومعه من العساكر الروميّة ما تزيد على ثلاث مئة ألفٍ ، ما بين فارس وراجل . ولم يزل الوزير المذكور سائراً بالعساكر المذكورة ، فكان كلّما مرّ بقومٍ من الخارجين يقتلهم ، حتى أزال السكبانيّة الخارجين ، ولم يبق سوى العبد سعيد والطويل محمد فإنهما حادا عن طريقه ولم يستطع لحاقهما والاتباع لهما خوفاً من فوات الوقت وهجوم الشتاء ، لأن الغرض الأعظم في إرساله إنما هو ابن جانبلاذ وتخليص حلب منه ، لأنه كان قد قارب أن يملك البلاد بالاستقلال .

فسار إلى أن وصل إلى آدنه وخلّصها من يد جمشيد الخارجي ، وأعطاها لبعض عبيد السلطان أحمد نصره الله تعالى وأيّده ، وأدام مجده وأبّده

ولما انفصل عن جسر المصّيص إلى هذا الجانب تيقّن ابن جانبلاذ أنه قاصده . وأمّا قبل ذلك فإنه كان شاكًّا في وصوله إلى حلب . فلما تيقّن قَصْدَ الوزيرِ له ، أرسل إلى السكبانية الذين كانوا مُفرّقين في البلاد فَجَمَعَهُم ، وأرسل إلى الأمير فخر الدين ابن معن فأخذ من كانوا عنده من السكبانيّة ، وكانوا نحو ثلاثة آلاف . وأرسل إلى الأمير يوسف بن سيفا فأخذ مَنْ كانوا عنده من السكبانيّة وكانوا قريباً من ثلاثة آلاف ، وكانوا يتسلّلون إليه من كل حدْبٍ ، إلى حلب . فيُقال إنّ العُصاةَ الذين تجمّعوا عنده كانوا يزيدون على أربعين ألفاً .

ولما عرض عسكره بلغه أن الوزير قارب بلاد مَرْعش . فخرجَ من حلب بأُبّهةٍ عظيمةٍ ، وزينةٍ جسيمة . وجزم بمقابلةِ الوزيرِ المذكورِ ومقاتلته ، ومبارزته ، ومنازلته ، ومناضلته ومناصلته ، ومصابرته ومضاربته . وكان الوزيرُ في أثناء ذلك يُراسله بالكلمات الطيّبة ، ويواصله بالسحائب المروية الصيّبة ، طمعاً في استصلاح أمره . وفراراً مِنْ جُرْأة مَنْ معه وصعوبة مكره . فما زاده استصلاح الوزير له إلاّ فسادا ، ولا أورثه إلا كبراً وعُتُوًّا وعِنادا . فتزاحف الليلُ والنهار ، وتقاربت الظلمةُ والأنوار . فبرز عسكر ابن جانبلاذ إلى المقاتلة يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة فلم يَصِرْ بين الفريقين إلا القليلُ من المراشقة . وفي صباح الثلاثاء برز كلُّ فريقٍ إلى الآخر ، واستمر القتال إلى آخر النهار ، ولم يظهر الانكسار على أحدِ الفريقين ، بل تراجعا متقاربين أو متساويين ، غير أن صَوْلَةَ البُغاة كانت ظاهرة ، لكون فرقة السكبانيّة في صنعة الحروب ماهرة . وفي يوم الأربعاء التحم القتال ، وزادت نارُ

الحرب في الاشتعال ، حتى كاد عسكر البُغاة أنْ يكون غالبا ، ولكنْ كان حكم الله بالغا ، وقهره للأعداء سالباً . فكان من اللطف الرباني أنّ في جملة الأمراء ، بل في أعيان الوزاره . وزيرٌ يقال له حسين باشا الترياقي رتّبَ عسكر الإسلام وقال : قاتلوا البغـاةَ إلى وقت الظهر ، فإذا حكم وقت الظهر فافترِقوا فرقتين ، فرقة منكم تذهب لجهة اليمين وأخرى تكون في جهة الشمال ، واجعلوا عرصة القتـال خالية للأعداء وحدهم . وكان قد أخفى المدافعَ الكبيرة في مقابلةالعدو وملأها بالبارود .

فلما افترق عسكرُ السلطان ، نصره الله تعالى ، فرقتين ، ظنّ المخذولون جماعةُ ابن جانبلاذ أنّ ذلك الافتراق كان عن هربٍ أو رهب . وما عرفوا أنّه عن تدبير يكون سبباً لفتح حلب . فبالغوا في اتباع عساكر الإسلام إلى أن كادوا يخالطونهم . فلما قربوا وخلت لهم عرصة القتال ، ضُربوا بالمدافع الثقال . فأظلمت النواح ، وصاح عليهم جنودُ الحق أعظم صياح ، ولحقوهم بالسيوف القاطعة ، والأسنّةِ اللامعة ، إلى أن أزاحوهم عن خيامهم ، وقطعوا أطماعهم عن مرامهم . وشرعوا يُفَـرّقون بين الرؤوس والأبدان . ولم ينظر أحد منهم إلى ما وراءه حذراً من وقع السنان . وكحّلوا عيونهم بإثمد الغبار ، وطبقت الأرض بالظلمة حتى كأن الليل جاوز النهار . وبالغ الأعداءُ في الهرب . وأكّد جنود الإسلام فعل الطلب ، إلى أن حـال بينهم الليل ، وجرت دماؤهم كالسيل . وفارقت النفوس ، هاتيك الأبدان بقطع الرءوس وضاقت الصحراءُ بجثثهم القبيحة ، ولم يستفيدوا سوى عذاب النار والفضيحة .

وأما علي بك ابن جانبلاذ فإنه نجا برأس طمّرة ولجام . وظن أنّ ما كان فيه من الدولة أضغاث أحلام . واستمر هارباً إلى مدينة حلب ، وقد شرب ما وضع من ضرع الندامة وحلب . ولم يقرّ له بهـا قرار ،

بل دخل إليها قُبَيْلَ مغيب الشمس وخرج بعد طلوع النهار . وقيل إنه جاء ليتحصّن بالقلعة الشهبا . فما أشار عليه بذلك مَنْ هو صديقه من الأحبا . فوضع أهلَه وعياله ، وذخائره وأمواله ، في داخل هاتيك القلعة الحصينة . وظنّ أنها تحفظ له تلك الجواهر الثمينة . وخرج منها خائفاً يترقّب ، وهو من عساكر الحقّ يتبعّد ومن البغاة يتقرب . إلى أن أداه الحرب إلى مدينة ملطية . التي كان قد شراها أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز حصناً للأمة المحمديّة . فلعلّها أن تكون شَرَكاً لأهل البغي والإشراك . وأن تصيدهم كما تقتنص الطيور الأشراك ، فيؤخذ منها أخذ القُرى وهي ظالمة ، وتعود نفسه اللوامة عليه وهي نادمة .

وأما الوزيرُ المنصور ، الذي أمدّه الله تعالى بعسكره المجرور ، الذي انتصب على الفتح وليس بمكسور ، فإنه تَتَبَّعَ مَنْ بقي من أعوانه ، واستخبر عن مُحبّيه وخِلانه فأبادهم قتلاً بالسيف المنتضى ، وصار وجودهم كالفعل سلف ومضى . وجاء إلى حلب بالجنود الغالبة ، والأسود القاهرة السالبة . فرأى القلعة الشهباءَ في أيدي بعض أعوان البُغاة . فرام محاصرَتها ومحاصرتها بالتدبير الذي قصده وبغاه ، فتحقق مَنْ فيها أنّ كلّ محصورٍ مأخوذٌ كما قيل . وكانوا يقولون : دخلنا عليكم بحق الخليل . لأن القلعة كانت سكَناً له كما نُقِلَ في بعض الأقاويل . فأنزلهم الوزيرُ بأمانِه ، ولم يغدرهم لقوة إيمانه . فنزلوا من القلعة ، واتصفوا بالضعةِ بعد الرفعة . وكانوا نحو ألف رجل . وكان معهم نساءُ بني جانبلاذ . وكان أكابر الجماعة المذكورين أربعة من رؤوس السكبانية قطع الله رءوسهم وأباد أرواحهم الخبيثة ونفوسهم . فلما نزلوا بادروا إلى تقبيل يد الوزير وذيله . ووقفوا ممتثلين ما يظهر لهم من ميله . فأشار إلى النساءِ بالسُكنى في مكانٍ معلوم . وفَرّقَ الرجال على أرباب المناصبِ كلٌّ منهم في مكانٍ مفهوم . وطلع بنفسه النفيسة إلى القلعة الشاهقة . فرأى الفلك الأثير قد أعادها في العلو عاتقة . قلعةٌ استعارت من طبقات الأفلاك طبقة . وحلّق نحوها النسرُ الطائر فرماه حارسها بسهم من كنانته ورَشقه . فانحدر عنها إلى

مكانه . وعلم أنّ إيوانها فوق إيوانه . وأما متانتها فإنها لا توصفُ بلسان ، ولا يصوّرُها للخاطر إنسان . كيف وفي أساسها من العُمد الحجريّة ثمانيةُ آلاف ، كما نص على ذلك جمع من العلماء الأسلاف . واطّلع الوزيرُ على ما بها من الأموال المجموعة . فرأى آلافها تقارب آلافه وجموعه . ورأى ما بها من التحف الغزيرة ، وما أحرز فيها من الأعلاق الثمينة الحريزة . وضبط ذلك كله لبيت المـال . ولم تمل نفسه الشريفة إلى دِرْهَمٍ من هاتيك الأموال . وقال : إن الله تعالى قد أغناني في دولة سيدي السلطان وأعطاني ما لم يخطر لي أن أذكره بلسان ، وأصوّره بجنان . فليس لي حاجة إلى أموالهم ، ولا بي ضرورة إلى منالهم ، أنا مُسْتَغْنٍ بلطف الله الجميل ، والله تعالى حسبي ونعم الوكيل .

ثم شرع يتجسّس في حلب على الأشقياء وأتباعهم . وينقّب عن الذين جاؤوا إلى السكبانية من ضياعهم . فقتل جملة من الأتبـاع ، ولم يُبْقِ منهم فرداً بعد صحة الاطلاع .

وأما ابن جانبلاذ فإنه باقٍ على عصيـانه ، مواظبٌ على طُغْيانه . ولم يمل قلبه للصلاح ، ولا جرّته نفسه إلى الإصلاح . والمطلوب من لطف الله تعالى أن يتلفه ويرديه ، ويأخذه أخذةً رابيةً وفي الهوان يلقيه .

ولمـــا ثبت أنه لا يميل إلى الهداية ، ولا يقلع عن مواقع الغواية . ودخل فصل الشتاء ، وهجم البرد وأتى ، أرسل الوزير العساكر إلى الأطراف . وفـرّقها على البلاد لتشتو بها إلى المصطاف ، ثم تعود للاسعاف . وترجع إلى مواقف المصاف . فجاء إلى دمشق طائفة من السباهيّة ؛ ونزلوا بيوت العسكريّة ، لأن العسكر الدمشقي باقٍ في نواحي حلب . وما أجازهم الوزير بالرجوع ، ولا أعطى الطالب منهم ما طلب .

وفي هذا اليوم وهو يوم الجمعة الرابع من شعبان من سنة ست عشرة بعد الألف ، بلغني ممن لا أثق به أن جماعة من العسكر الشامي دخلوا إلى دمشق قافلين وما أدري هل ذلك صحيح أم لا ، وإذا تحرر شيء من ذلك كتبناه . وفي هذا الموضع رقمناه .

ذكر من سافر إلى جانب الوزير
ليُعينه في قتال البُغـاةِ بالحرب والتدبير

أمّا ابنُ مَعْن فإنّ الوزيرَ طلبه مع كيوان البلوكباشي بدمشق الخوّان . وأرسل إليه حكماً مؤكداً بأنه يصلُ إليه بجملةٍ من جماعته ، فتراخى وتباطأ وصارَ يعتذرُ ويكذب ، وقلبُه مع الباغي ابن جانبلاذ . ولم يزل يتعلّلُ ويتغلّب حتى يتبينَ له الغالب من المغلوب ، ويظهر له السالب من المسلوب . فكان يقول : إنْ غلب الوزيرُ ذهبتُ إليـه ، وإنْ غلب الباغي القيتُ وجودي وموجودي بين يديه . وليس ما قلتُه هنا تخمينا ، وإنّما رقمتُه تحقيقاً ويقينا .

فلما غلب الوزير ، بعون الملك القدير ، علم أنّ الباغي قد انفلّت جمعيتُه ، وانقضت دولَيْتُهُ ، فحينئذ أرسل ولده الأمير علي ، ومعه كيوان الخائن ، وهدية ، لحضرة الوزير العليّ ، ومعهما ثلاث مئة رجلٍ من أتباع ابن معن ، وما هم من رجال الضرب ولا الطعن .

وأمّا ابنُ سيفا فإنه أيضاً تعلّل كما تعلل ابنُ معن ، وما أرسل ولده حسين باشـا ، إلا بعد أن وقع الكسرُ على الباغي ابن جانبلاذ ، فعند ذلك جهّز ولده المذكور ، وأرسـل معه هديةً وجَمْعـاً من العسكر ليس بمنزور .

وكانت بنتُ ابنِ سيفا زوجةُ ابن جانبلاذ ، في قلعة حلب مع بقية نسائه . فأنزلها الوزيرُ منزلاً مُباركا ، ولم يجعل لها فيه مقارناً ولا مشاركا . واستمرّتْ إلى أن قدم أخوها حسين فتسلّمهـا بأمر الوزير مع الرعاية الكاملة ، والألطاف الشاملة . وما عداها من نسـاء بني جانبلاد فقد قيل إنهن أُصبْنَ بالإهانة . وما صادفتهن إعانة . وما ندري هل ذاك صحيح أم لا .

واستمر ابن سيفا الكبير في عكّار . وقال : أنا رجلٌ كبيرٌ ، وما أنا قادر على الأسفار . وكلّ ذلك تعلّلٌ عن السفر السلطاني ، واعتيادٌ للراحة عن السفر الخاقاني .

وأمّا ابنُ قانصوه أميرُ بلاد عجلون وكَرَكِ الشوبك فإنه قال : أنا بدويٌّ عربيٌّ ، وما عندي عسكر يُسافر الى بلاد الروم ولكنه أرسل رجلاً من أولاد عمّه ومعه هدية للوزير . وما ندري أمره إلى ماذا يصير .

وكذالك فعلَ ابنُ طِرْباي أميرُ اللّجون ، وتعلّل عن السفر وما سار ، ولكنه أرسل هديةً ورَجُلاً من جماعته الى جانب الوزير .

وأمّا فريدون بك سنجق نابلس فإنّه أيضاً تعلّل بأنه أمير الحج وما سار ، فعزله الوزير ، وأعطى امارته في نابلس لمحمد بك ابن أخي عثمان باشا وسافر محمد بك الى جانب حلب .

وأمّا فروخ سنجق القدس الشريف فإنّه تعلّل أيضاً بأن القدس يُخشى عليها من العرب وما سار الى السفر . فيُقال إنّ الوزير أعطى القدس لرجلٍ من مماليك السلطان ولكنّه ماظهر ذلك الى يوم تاريخه .

وأما سنجق تَدْمر إبراهيم باشا ابن طالو فإنه سافر وهو معزول عن تدمر وقد بلَغَنا أنها أُعيدتْ إليه بعد السفر . وهو رجلٌ قديم في الولاية ، وله طاعةٌ كاملة ، ومكارم شاملة فنسأل الله تعالى أن يهون عليه الأمور الصِعاب ، وأن يفتح له من الخير خير باب .

وكانت حمصُ مع ابن سيفا ضميمةً الى طرابلس وَجبلَة واللاذِقية ، وما يتبعُ من الحصون ، وقد قيل إنّ الوزير أعطاها لرجل من مماليك السلطان ولكن ما صحّ ذلك الى الآن . وقد شاع وذاع أن الوزير لايتصرّف في هذه المناصب الا بعد أن يقع ابن جانبلاد في قبضته ، وإذا تحرّر بعد ذلك شيء كتبناه والله الموفق والمعين وبه نستعين .

ومما تحرر بعد ذلك أنّ ابن جانبلاذ سار الى الطويل العاصي في نواحي بلاد أناطولي ، وأراد أن يتحد معه فأرسل اليه الطويل يقول له : أنت بالغْتَ في العصيان ، لأنك قابلتَ وقاتلت عسكر السلطان . وواجهت وزيره الأعظم بالحرب ، وأظهرت كالَ المخالفة وذنبك لا يُغفر وأما أنا وإنْ كنت مسمىً باسم عاص لكنّي ما وصلتُ في العصيان الى رتبتك ، ولا فعلتُ مثل فعلتك . أنا رجلٌ أُفتّشُ على ما آكله أنا وَمنْ معي ، ولا أعصي ولا أقابلُ ولا أقاتل فرحل عنه بعد ثلاثة أيام وسار الى العاصي الباغي الذي يقال له قرا سعيد ، ومعه العاصي قلندر أوغلي .

ولمّا وصل إلى جمعيّة هؤلاء (١٧١ آ) العصاة تلقوه ولاقوه ، وأهّلوه وعظّموه وقالوا له فعلت مليحاً في لقائك لهؤلاء العثامنة ، ولو كسروك فما عليك فى ذلك ضرر ، وسيعودُ الأمر الى ما كان عليه . وأرادوا أن يجعلوه عليهم رأساً ورئيساً فشرطَ عليهم شروطاً ، فما قبلوها فاطمأنّ تلك الليلة الى أن مدّ الليل رواقه ، وزرّر في القباء الأسودِ أطواقه . فأخذ عمه حيدراً وابن عمه مصطفى وابن عمه محمداً وخرج مع البازي عليه سواد . ولم يزل يطوي القلاع والوهاد ، حتى دخل بروسه مع الليل . ودخل الى حاكمها راجلا بغير خيل . وقال له : أنا علي بن جانبلاد العاصي . فتحيّر من ذلك الكلام عقله . ولما تحقق ذلك قال له : ما السببُ في وقوعك في الشَرَك ؟ فقال : ضجرت من العصيان وها أنا ذاهب الى إطاعة السلطان فأرسلْني إليه سريعاً .

فأرسله إليه من طريق البحر فلما دخل دار السلطنة أُعلِم به السلطان فقال : أحضروه إليّ واعرضوه عليّ فلما حضر إليه ، وأقبل عليه ، قال له : ماسببُ عصيانك الذي شاع ، وملأ جميع البلاد والبقاع ؟ .

فقال له : أنا ما أنا عاصى ، ولا أنا ممن يُغضِبُ مالك النواصي . وإنما اجتمعتْ عليّ فرق الأشقياء ، وما خلصت منهم إلا بأن ألقيتهم في فم جنودك

المنصورين وفررت إليك فرار المذنبين فإن عَفَوْتَ فأنت لذلك أهل ، وإنْ أخذت فحكمُكَ الأقوى ﴿وإن تَعْفُوا فهو أقرب للتقوي﴾ فعفا وصفا. وقال له : جئتَ اليَّ طائعاً فما لك عندي سوى العفو الصريح ، والأمن الصحيح وأعطاه مدينة دِمشوار في داخل بلاد الروم ، ونجا بذلك من التعب والهموم .

وأما مراد باشا الوزير فإنه جاءه من السلطان أحمد نصره الله تعالى أمرٌ يقول له فيه : قد فرّقتَ جمعية ابن جانبلاذ ، وبقيتْ فرقةٌ من الأشقياء ومقدارهم عشرون ألفاً ، وكبيرُهم العبدُ الأسود سعيد ، ومحمد الشهير بقلندر أوغلي فاذْهبْ إليهم بخيلكَ ورَجْلِكَ ولا تُبْقِ منهم باقية . ولقد خيّم مراد باشا خارج حلب في صفر الخير من شهور سنة سبع عشرة بعد الألف وكنتُ حينئذ بحلب المحروسة .

وكان السببُ في نهضتي إليها انّ ابنَ جانبلاذ وابنَ معن لما دخلا إلى نواحي دمشق ونهبا وفتكا ، أرسل أهلُ دمشق الشيخ محمد بن سعد الدين والشيخ أحمد العيناوي الشافعي والفقير أيضاً لعرض (١٧١ ب) ما جرى على دمشق من المذكورين فذهبنا واجتمعنا بالوزير المذكور ، وهو بالمخيم خارج حلب وعرضنا عليه الأمور ، فذكر أنه مشغولٌ بالعُصاة المذكورين الذين أرسل إليه السلطان في طلبهم ، ووعـدنا بخير وكان ذهابه من حلب في أواسط شهر ربيع الأول من السنة المذكورة فإنه نهض من ميدان حلب إلى حيلان ، ومن حيلان الى مرج دابق ، ومن مرج دابق الى تل فار ، ومن تل فار الى عينتاب .

والتقى بالعُصاة في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني من السنة المذكورة فلمّا تقارب الفريقان أرسل الوزير المذكور عسكر مصر وعسكر الشام وبعض عسكر الباب العالي وجعلهم جاليشاً لعسكر العُصاة

فاقتتلوا يومين وفي أثناء ذلك أرسل العسكر المذكور الى الوزير بأن أمر العُصاة هيّن ، وإن قدمتَ علينا بمن معك أخذناهم في أول وقوفهم ، وخرقنا بحمد الله جنة صفوفهم . فسار الوزير إليهم فلما أحسوا بقدومه ثاروا إليه ، وعزم الشقيُّ سعيد مع جماعة من شجعان العصاة نحو سبعين رجلا على أن يهجموا على الوزير في موقفه هجمة واحدة كما قال شاعر كندة ابو الطيب المتنبي :

ضربتُ بها التيه ضرب القما ر إمّا لهذا وإما لذا

فَصدّهم عن القصد المذكور عسكر الروم . ومنعوا الملعون عما يروم . واحتاطوا بالوزير كالسوار أو السور وقالوا له : اثبت فإن تلك منصور .

وصاحتِ البنادقُ ، وازرقت السهام الرواشق ، وتداخلت الصفوف ، وتميز الخالص من الزيوف ونادى منادي الايمان ، الزحف الزحف على أهل الطغيان ، وخفتت أصواتُ الرجال ، ولم يبق الا ضرب السيوف ورشق النبال . حتى مالت الشمس قبل الاصفرار ، وأدبرت صفوف البغاة للفرار ، ونادى منادي الحق ان اطلبوا ، فإن البغاةَ قد هربوا .

فلما شاهد المسلمون إدبار أهل الإدبار . وفرار أصحاب البوار . تبعوهم والسيف في ظهورهم . وتحققوا أنه يوم اخفائهم بعد ظهورهم . وقالوا لهم : لا خلاصْ ، وَلاتَ حين مناصْ مَنْ يدعي الشجاعة كيف يرضى بالهرب ؟ ومن يقولُ أنا الراسُ والرئيسُ كيف يرجع الى الذنب ؟ أم كيف يوصف بالرهب ؟ فما أجابوا إلا بأصوات قبيحة (١٧٢ آ) تدعو الى الإحداث والفضيحه . خرجت من أدبارهم ودلت على إدبارهم . وعلم المؤمنون أن الحسود لايسود . وأن وجهه ليس بأبيض حيث كان من القوم السود واستمر السيف فيهم ، من قَوادِمهم الى خوافيهم . حتى لم تبق منهم بقية ، ولم يُترك في نفوسهم حميّة ، وأُحْصِيَ مَنْ قُتِلَ منهم في ساحة القتال

فكانوا نحو عشرين ألفا من الأبطال . وجاءت بذلك البشائر الصادقة . على ألسن البشائر التي هي بثغور السطور ناطقة ، الى دمشق المحروسة . دامت ربوعها المأنوسة .

وأخبرني فخرُ البوّابين في باب السلطنة العليّة ، والممالك الأحمدية . باقي آغا ابن المرحوم أحمد لما قدم إلى دمشق في أوائل جمادى الآخرة ، بعد حضوره القتال المذكور بالذات ، وعلم ذلك بتفصيل الحال لا باجمال الروايات ، أن الذين مُسكوا من البُغاة يوم الحرب كانوا نحو اثني عشر ألفاً وَقَتَلهم الجلاّدُ بيده والوزيرُ ناظرٌ إليه وذلك ماعدا مَنْ قُتِل في ساحة القتال . فإن اولئك قد زادوا على العدد في ذلك المجال .

ثم إن الأخبار وصلت إلينا في مكاتيب من حضرةِ الوزيرِ الأعظم المشار إليه سابقاً ، فإنه أرسل المكاتيبَ المذكورة إلى أعيان دمشق في يوم الثلاثاء ثاني شعبان المعظم من شهور سنة سبع عشرة . ووصل إلى الفقير كاتب الأحرف من ذلك كتابان . ومضمونهما متقارب وحاصله ان ابن القلندر العاصي وقره سعيد وآغاجدن بيرى والكل أكابر العُصاة اجتمعوا بالقرب من مكان يقال له كُوكَسُون بضم الكاف الأولى وسكون الواو وسكون الكاف الثانية وضم السين . وتشاوروا وقالوا : آلُ عثمان لا يبقون على أحدٍ منا إن قدروا ومالنا مهرب ولا مذهب فالواجب أننا نُقاتل جموع السلطنة المجتمعة مع الوزير . فإن أخذناهم كانت البلادُ لنا ، وإلا فالقتل أمرٌ لابُدّ منه .

ثم تحزّبوا وتجمعوا فرقاً ، ولاقوا الوزير يوم الثلاثاء الثالث من شهر ربيع الثاني وماكان مراد الوزير القتالَ في ذلك اليوم ، لكونه يوم الثلاثاء فلما تقارب الجيشان ، وتقارن الفريقان ، أقدم جيشُ البغي ، وتقدّم فلزم أن جيش الوزير ، يقابلهم ويقاتلهم فوقع القتالُ بين جاليش العساكر

ولم يزل السيفُ ظاهراً بين الفريقين الى أن حال بينهم الليل ، وتراجع كلُّ فريقٍ الى مكانه ، الى أن أصبح الصباح (١٧٢ب) فعادوا الى الكفاح . ومالوا الى الصياح . ولم يزل السيف في الهامات واقعاً إلى أن ولى عسكر البغي منهزما . وطاحت الهاماتُ في الثرى ،وكحل الغبار جفون الأعادي فهي لا تُرى .

ولقد أخبرني من شاهد الواقعة أن عسكر البُغاة كان قاهراً . وما كان مكسوراً بل كان كاسرا . لكن استولتْ عليه الصدمات الربانية . والقواهر الالهية فصار مغلوباً ، وأصبح مسلوبا . وقطعت منهم الرؤوس ، وضاعت منهم النفوس . واستمرّ جيشُ السلطان لهم تابعاً . ودارت عليهم الدوائر وصار حكمُ الله لهم قامعاً .

والحاصل أن قره سعيد ، لا أسعده الله تعالى ، هرب مع محمد الشهير بابن قلندر إلى أن دخل ملك شاه العجم وهو عباس بن خداي بنده محمد وكذلك الباغي الطاغي أخو الطويل محمد . فإن عسكر السلطان أحمد نصره الله تعالى وبلغه الأماني ، لا زال يطردهم الى أن أخرجهم من الملك العثماني . وأدخلهم في ملك شاه قزلباش . وما ندري ماذا يفعل بهم بعد ذلك .

وقد أخبرني مَنْ أثق به من عسكر السلطان أنه قُتل من الجلالية الباغين الطاغين مايزيد على خمسين ألفاً ولم يُقتَل من عسكرِ السلطان على كثرتهم خمس مئة رجل أو أقل من ذلك .

وقد أمر الوزير الأعظم مراد باشا ، نصرهُ الله تعالى ، العسكرَ الرومي بأن يشتي في نواحي بلاد الشرق من أرض الروم ، ونواحي وان ، وجزيرة ابن عمر ، وأطراف أرض الكرج ، طلباً لاستفتاح باب الحرب مع شاه عباس في أوائل سنة ثمان عشرة بعد الألف من الهجرة النبوية لِما صدَرَ من الكسر على عسكر السلطان أحمد لمّا كان قائدَ العسكر سنان باشا

الشهير بابن جفال ، في سنة أربع عشرة بعد الألف وكانت الوقعة بالقرب من مدينة تبريز ، وحصل بها على عسكر السلطان ، كمال العجز والنُقْصان .

وفي يوم الخميس ثامن عشر شعبان من شهور سنة سبع عشرة بعد الألف وردت العساكر الدمشقية ، ودخلت الى دمشق راجعة من سفر السلطان لأنها كانت مع الوزير الأعظم مراد باشا معينة لقتال الجلالية البُغاة ، ودخلوا فرحين مستبشرين ، بالنصر المبين ، من رب العالمين .

قلتُ : وقد ورد الخبر بأن حضرة الوزير الأعظم مراد باشا ، نصره الله تعالى ، طلبه حضرة السلطان أحمد الى دار السلطنة قسطنطينية المحمية ، وأنه قد توجه اليها وصحب معه بعض الوزراء الى جانب دار (١٧٣ آ) السلطنة وكثيراً من العساكر ومرادُه أن يأخذ في طريقه رجلا خارجياً يُقال له يوسف باشا ، قد نجم في نواحي كُوزْلجهَ حصار وكان من توابع الوزير أويس باشا ولا ادري هل هو من مماليكه أو من أقاربه والله تعالى يُعين الوزير عليه ، ويجعله منتصراً عيله بلطفه وعونه ، وحمايته وصونه .

قلت : وفي آخر شوال من شهور سنة ست عشرة بعد الألف من الهجرة النبويه ورد الخبر بأن الخارجي الباغي علي بن أحمد بن جانبلاذ لما ُغلِب وكسره الوزير الأعظم مرادُ باشا ذهب بنحو ثلاثة آلالف فارس الى العاصي الطويل محمد ليكون معه ُمستَعيناً به على حرب الوزير المذكور . فقال له الطويل : اذهب عني ، فإني أخاف أن يمسّني ضررٌ منك فإنك قد أظهرت العصيان ، بمبارزة عساكر السلطان . كما تقدم ذكره آنفاً ، وفي هذا الخبر أنه قال له : نحن كلنا باغون طاغون ، غير أننا ما بالغنا في مجاوزة الحد بالعصيان ، ومبارزة وزراء السلطان . فذهب ابن جانبلاذ ولم يزل حتى أخذ عمه حيدر بك وابن عمه مصطفى بن حسين باشا وذهب الى باب السلطنة العلية

الأحمدية . وجعل في عُنقه حبلاً وسيفاً مسلولاً ، ونادى في ديوان السلطان : يامولانا السلطان ! أنا مظلوم . فجمعوه بحضرة السلطان ، وانزله السلطانُ وأكرم نزله .

وبعد ذلك ورد الخبر إلى الشام بأن حضرة السلطان أراد أن يعطيه منصباً يحكم فيه من بلاد رُوَملّي ، فهجم على السلطان ، نصره الله تعالى العلماءُ والمدّرسون وقالوا : هاذا رجل قد فتح في سور الملك طاقة لا تُسَدّ إلا برأسه . وأشاروا على السلطان بقتله . فيُقال إنهّ قتله وقتل جميع أقاربه شر قتلة . والله اعلم بحقيقة الحال .

قلتُ : وقد صح بعد هاذا أن السلطان قبله ، وما قتله . كما تقدم . وقال : هاذا جاء بالأمان ، فيجب العفو عنه ، والعفو من شأن أهل الإيمان . وأعطاه حكومة ومشوار ، وأرسله إلى تلك الديار .

١٣٢

[١٧٣ب] علي أفندي الدفتري بدمشق الشام

سقا حماها صوبُ الغمام

وردَ من الديار الروميّة ، إلى مدينة دمشق المحمية (١) . مرّةً في سنة ستٍ وتسعين وتسع مئة ، وتعاطى مصالح الدفتر على وجه حسنٍ مرضيّ ، ونزل في البيت المقابل للعادليّة الصُغْرى بدمشق ، بالقرب من المدرسة المماربة لقلعة دمشق ، وهي دارُ الحديث الأشرفيّة .

ثم سافر من دمشق وجاء إليها في سنة عشرٍ بعد الألف تقريباً ، وورد في هذه المرة متكبّراً غشوماً ، متمظّماً إلى الغاية (٢) ظلوماً . وسببُ ذلك أنه قد وَرَدَ في هذه المرّة صاحبَ مالٍ عظيمٍ حصّله من ديار بكر لمّا كان بها صاحبَ الدفاتر السلطانيّة . وكانت له مع ذلك فضيلةٌ تامةٌ (٣) علميّة . يُحاضر في سائر الفنون ، لا سيّما في المعقولات (٤) ، لأنه في الأصل كان قاضياً ببعض البُلْدان والقَصَبات (٥) . وخرجَ إلى طريق الدّفترِ من طريق العلم . وكان ذا معرفةٍ بلسان الفارسيّةِ إلى الغاية .

---

(١) ب ، ه « علي أفندي الدفترى بدمشق ، رجل وود من ديار الروم إلى دمشق مرة في سنة ... » وقد سقط من ب « الشام سقاها صوب الغمام » .

(٢) قوله « متمظما إلى الغاية » ساقط من ب ، ه .

(٣) « تامة » ساقطة من ب ، ه .

(٤) قوله « يحاضر في سائر الفنون لا سيما في المعقولات » ساقط من ب ، ه .

(٥) قوله « ببعض البلدان والقصبات » ساقط من ب ، ه .

وكانت لنا به معرفةٌ في المرة الأولى واختلاطٌ زائدٌ ، ويُعاملنا بأنواع الرعاية [١] . فلما رجع متكبراً ، مُتَنَصِّلاً [٢] متكثّراً ، جفوناه . وبالصَّدِّ عاملناه . وصدر بيننا وبينه مفاوضات كثيرة [٣] ، [ومسامرات ادبيه][٤] ومباحثات غزيرة . [وكانت له مشاركة في بعض العلوم][٤] .

وقد عمر داراً بالقرب من جامع يَلْبُغا . مطلةً على نهر بردى ، في غاية الوُسعة واللطافة ، والمتانة والظرافة [٥] . وأوقف وقفاً وكتباً على علماء دمشق الشام [٦] ، وفضلائها الكرام . والكتبُ المذكورةُ عظيمةٌ حسنةٌ ، وافرةٌ مشهورة . قَلَّ مَنْ مَلَكَ مثلها ، أو ظفر بمثلها ، صانها الله تعالى عن أيدي الجُهَّال الخائنين ، وحماها من شراء أهل الضلال المبدّلين .

وجدد جامع تنكز بالقرب من الميدان الأخضر [٧] . وعمر [بلاط][٨] طريق الصالحيَّة ، وهي حسنة مقبولة [٩] ، بها يُذكر .

وقد ولي مراراً الدَفْتَرْدَارية ، ونَفَذَتْ سهامُ تصرّفه وسعيه في الدولة العثمانية [١٠] ، وبلغ من الرِفْعةِ ما لا مزيد عليه ، وحصّل من الأموال

---

(١) قوله « واختلاط زائد ... حتى الرعاية » ساقط من ب ، هـ .

(٢) ب ، هـ « فلما رجع متكبراً متكثراً في التاريخ الثاني جفوناه ، إلا قليلاً الحاجة ، وصدر ... » .

(٣) ب ، هـ « كلية » .

(٤) زيادة من ب ، هـ .

(٥) قوله « وقد عمر داراً ... حتى الظرافة » لا يوجد في ب .

(٦) في ب « واقتنى كتباً نفيسة عظيمة غالية القيمة ، قل من جم مثلها ، وجعلها وقفاً على طلبة العلم بدمشق ، صانها الله عن أيدي الجهال ، وجدّد جامع تنكز . . » .

(٧) قوله « بالقرب من الميدان الأخضر » ساقط من ب ، هـ .

(٨) الزيادة من ب ، هـ .

(٩) قوله « وهي حسنة مقبولة » ساقط من ب ، هـ .

(١٠) قوله « وقد ولي مراراً .. العثمانية » ساقط من ب ، هـ .

ما تقصر الأيدي عن التطاول إليه ، ثم صارت رتبته البكلربكية ، من قبل السلطنة العليّة . فصار يُدعى بين الأنام ، بعد الأفنديّة أمير الأمراء الكرام [١] .

توفي في نهار الأحد سادس شهر رجب المرجب [٢] الذي هو من شهور سنة ثمان عشرة وألف من الهجرة النبويّة ، على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية . وصُلّي عليه بجامع الصابونيّة ، ودُفن بتربة (١٧٤ آ) بُنِيَتْ له بباب الصغير عند سيدي بلال الحبشي . رحمة الله عليه كل صباح وعشيّ [٣] .

---

(١) في ب ، ه « وبلغ من التقدّم والرفعة ما لا مزيد عليه ، وصارت له رتبة بكاربكية ، وصار يُدعى بعلي باشا بعد أن كان علي افندي . وقد حج . وعمرداراً حسنة كبيرة ملاصقة لجامع يلبغا ، وجعل له أجزاء شريفة في الجامع المذكور . توفي ... »

(٢) قوله « المرجب الذي هو من شهور » ساقط من ب ، ه .

(٣) في ب ، ه « بالقرب من سيدي بلال الحبشي ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة » .

١٣٣

عمر باشا

حاكم بلاد الحبشة

وهو خصيٌّ له بيض . وَرَدَ إلى دمشق الشام في نهار (١) الاثنين غرّة جمادى الآخرة الذي هو من شهور (٢) سنة ثمان عشرة بعد الألف . وكان ورودُه من مصر المحروسة (٣) بالخزائن السلطانية ، قاصداً بها الوصولَ إلى دارِ السلطنة العليّة (٤) ، قسطنطينية المحميّة . وسلطانها سلطانُ الإسلام السلطان أحمد ابن المرحوم السلطان محمد ابن السلطان مراد العثماني أطال الله عمره ، وشرح صدره . وكان عددُ الاحمالِ الواردةِ معه مئة وسبعة وسبعين حملاً ، ما بين ذهبٍ وفضّة . فأما الفضّةُ فقيل إنها أربع مئة ألف قرش ، يعني أربع كرات كلُّ كرة منها مئةُ ألف قرش . وهي من خزائن اليمن. ومن خزائن اليمن أيضاً مئة ألف ذهباً ، وخمسون ألفاً ذهباً . كل ذلك من خزائن اليمن . وما عدا ذلك من الأحمال الباقية من خزائن مصر ، مرسلة إلى حضرة السلطان أحمد خان المذكور . ومن جملة الخزائن الواردة من اليمن خمسة أحمال من الجوهر ، قيل إنها من متروكات حاكم اليمن الذي مات ، وهو حاكم بها ، وهو أميرُ الأمراء الكرام سنان باشا ، الذي كان قديماً كَتْخُدا

---

(١) في ب « يوم » .

(٢) قوله « الذي هو من شهور » لا يوجد في ب .

(٣) « المحروسة » لا توجد في ب .

(٤) « العلية » لا توجد في ب .

المرحوم حسن باشا حاكم اليمن سابقاً . وكان مع الخزينة من العسكر المصري نحو خمس مئة فارس ، غالبها بالبندق . وقد أقاموا بدمشق خمسة أيام . ثم طلعوا من محروسة دمشق ، [وودّعهم عسكر دمشق] [١] وساروا إلى حلب الشهباء ، ومنها إلى قرمان [٢] ، ومنها إلى قسطنطينية . ودخلوا إليها سالمين غانمين . وفرح حضرة السلطان بوصولهم ، بالغين إلى مأمولهم . والله سبحانه يديمُ هاتيك الدولة العليّة الأحمدية ، ويُبْقي تلك الصولة العثمانيّة ، باقية على الدوام إلى قيام الساعة وساعة القيام ، بجاه [٣] سيّد الأنام ، عليه من الله تعالى ألف ألف صلاة ، وألف ألف سلام .

---

(١) الزيادة من ب ، هـ .

(٢) في ب ، هـ « قران » .

(٣) قوله « بجاه ... » بجاه ... سلام » لا يوجد فى ب ، هـ .

١٣٤

المرحوم الشيخ عماد الدين الحنفي

هو شيخُنا شيخ الاسلام ، وَعَيْنُ العلماءِ الأعلام ، وواسطةُ عقد (١٧٤ ب) الفضلاءِ في دمشق الشام . العمادُ بنُ العماد الحنفي رحم الله تعالى روحه ، ونوّر ضريحه .

وهو دمشقيُّ الأصل مولدُه دمشق ونشأ طالباً للعلوم ، باحثاً عما تضمنتْه من منطوقٍ ومفهوم . فطارَ صيتهُ في الأقطار . وقصدتْه الطلبةُ من كُلّ الديار (١) . قرأ على الشيخ الطيبي الكبير القرآءات ، وعلى الشيخ أبي الفتح الشبستري العلوم العقليّات . وقرأ على علاء الدين بن عماد الدين الشهير ، وعلى غيرهم من الفضلاء الذين انفردوا بغير نظير .

وكان ساكناً ديّناً خيّراً . ودرّس في دمشق بعدة مدارس . درّس بالخاتونية : وبالريحانية . ثم بالناصرية الجوانية . ومات وهو مدرس بها ودَرّس بالجامع الأموي ، فكان يتأمّلُ المباحثَ ولايتكلم في مَبْحثٍ إلا بعد تحقيقه ، ولايجول في مُعضِلٍ إلابعد تدقيقه .

قرأ عليه جملة من فضلاء دمشق : منهم صاحبُنا الشيخ عمر بن القاري ، وصاحبُنا المرحوم التاج القَطّان النحوي ، وصاحبُنا الشيخ مصطفى بن العجمي الحلبي الشاعر الأديب ، وصاحبُنا الشيخ درويش (٢) محمد بن طالو ، وصاحبُنا الشهاب أحمد النجموني الطرابلسي ، وصاحبنا المرحوم برهان الدين

---

(١) ب ، ه « ديار » .

(٢) ب « علي » .

إبراهيم بن محمد ابن منصور بن محب الدين ، وكاتبُ الأحرف الفقير [1]
الحسن البوريني .

فاما صاحبنا الشيخ عمر القاري فقرأ عليه غالب « شرح التلخيص المطوّل » للمولى سعد الدين التفتازاني . وأما التاج القطّان فقد شهدتُه يقرأ عليه « مغني اللبيب » لابن هشام ، مع « حاشية الشمّني » . وأما صاحبنا الشيخ مصطفى بن العجمي فقد أخبرني أنّه قرأ عليه « شرح التوضيح » للشيخ خالد الأزهري . وأما الشيخ محمد درويش بن طالو فإنه قرأ عليه « الكافية في النحو » لابن الحاجب ، وأما ابن الجوخي فقد كان قرأ عليه « متن أوضح المسالك » إلى ألفية ابن مالك » . بسماع صاحبنا الشيخ بدر لدين بن الموصلي وأما الشيخ أحمد النجعوني الطرابلسي فقد كان يقرأ عليه « المطول » مع « حاشية » للسيد الشريف الجرجاني ، وللفاضل حسن چلبي العقـــادي وأما صاحبنا ابراهيم البرهاني ابن محب الدين فإنه قرأ عليه « الشرح المختصر على التلخيص » للمولى سعد الدين التفتازاني (١٧٥ آ) وأما الفقير كاتب الحروف فقد قرأتُ عليه « شرح التلخيص » المختصر المذكور . وشرعتُ في « الشرح المطول » حتى وصلتُ فيه إلى أثناء مباحثاتِ الفصل والوصل . فأدركتْهُ الوفاةُ في التاريخ الذي سَيُذْكر .

وكان له شعرٌ حسن . وكانت يده طولى في النحو والصَرْف والمعاني والبيان ، وفي المنطق ، وفي الأصلَيْن ، والعروضِ ، والنظم ، واللغة . وكان تقيّده بالفتوى قليلا .

وقال لي مرة : أسفتُ على أنْ لم أحفظ القرآن ولم أتعلم لغة الفارسية .

وسببُ اتصالي به والقراءةِ عليه أنه كان يوماً ماشياً في صحن الجامع

---

(١) لا توجد في ب

الأموي بين العشاءين . فتباحثنا مع بعض الفضلاء في إعراب شيء من كلام العَرَب ، واختلفنا في شيء من اصطلاحات الإعراب فتحاكمنا إليه وهو سائر بصحن الجامع المذكور فيما اختلفنا فيه من الإعراب وطال الكلامُ معه في تحقيق ذلك . فقال لي : أين مكانك ؟

فقلت : في الخانقاه الشميصاتيّة .

فقال لي : إن أردتَ السُكْنى ، عندنا في الناصريّةِ الجوّانية كُنّا في مُساعدتك علماً ومعيشةً وغَيْرَ ذلك . فأجبْتُه إلى سؤاله ، وجئتُ إليه في اليوم الثاني إلي المدرسة الناصرية الجوانيّة فأخلا لي حجرة وهي الوسطى من الصَفّ الشرقيّ ، وكَلّسَها لي ، ففرشتُها وشرعتُ أقرأُ عليه « الشرح المختصر » على « التلخيص » للمولى السعد التفتازاني ، بسماع صاحبنا المرحوم المُلاّ علي الشيرازي الكاتب . ولم أزل أقرأ عليه الكتاب إلى أن أتممتُه بحمد الله تعالى . وكان إتمامه في النصف من شعبان سنة أربع وثمانين وتسع مئة بالجامع الأموي وحضر الختم المذكور طائفةٌ من الأفاضل .

ثم شرعتُ في غُرّةِ شوّال في القراءة عليه من بداية خطبة « الشرح المطوّل » إلى أن وصلتُ إلى الكلام على قول الشاعر من شواهد الفصل والوصل .

وقالَ قائلُهم ارسلوا نزاولها فَحَتْفُ كُلِّ امرىءٍ يجري بمقدارِ

فاتفق انّ الشيخ المذكور خرج للنزهة إلى جانب الوادي الغربي بدمشق قُبَيْل العصر ، وكنتُ في صُحْبَتِه . وكان ولداه سيدي عبد الرحمن والمرحوم سيدي أحمد معه أيضاً . وكذلك الأمير أحمد بن شاهين السباهي بدمشق في صحبتنا أيضاً . ولما وصل إلى مقابلة العمارة السليمانية بالوادي المذكور التي عمرت مكان القصر الأبلق ، وَثَبَ ليتخطّى ماء هناك . فلما وثب قال : آه آه ، قلبي قلبي فقلت له : (١٧٥ ب) يا سيدي ما شأنك ؟ فقال : أتخيّلُ ان نياط قلبي قد قطع . ثم تصبر إلى أن أكل الأولادُ بعضَ شيء من العنب الزَيْني ، مع بعض شيءٍ من الخبز الكماج مع قريشة . ولكن كان يتضوّج ويُكْثِرُ التأوّه .

فقال الأمير أحمد بن شاهين له : نرسلُ إلى المدينة نأتيكم بفرس .

فقال : لا بأس . فذهب عبدُه فرج ليأتيه بالفرس . فلم يصبر إلى حضوره ، وقام وقمنا . وقد تَنَغَّصَ العيشُ بسبب ذلك .

فبينما نحن عند المؤيّدية تحت القلعة وإذا بالفرس . فلم يركبها . وكان ذلك يوم الثلاء فوقع ضعيفاً إلى ليلة الاثنين . وتوفي إلى رحمة الله تعالى في النصف الأخير من ليلة الاثنين ثامن عشر شعبان من شهور سنة ست وثمانين وتسع مئة . ودفن في غده عند قبرِ معاوية ، في تربة الباب الصغير . وكانت جنازته حافلة جداً ، حضرها قاضي القضاة الحسامُ الشهيرُ بابن قره چلبي وغيرُه ، وخلف الولدين المذكورين .

وكان قد أوصى بقراءتهما عليّ . فقرءا عليّ .

فأما أحمد وهو الصغير فقد قرأ عليّ « مقدمة الصنهاجي المعروفة بالأجرومية » في النحو ، و « قواعد الاعراب الكبرى » ، وشرع في قراءة « ألفية ابن مالك » ، ثم أدركته الوفاةُ ولم يصل إلى عشرين عاما .

وأما عبد الرحمن فإنه قد نشأ بحمد الله نشأة طيّبة . وقرأ عليّ إلى أن وصل إلى الذروة العُلْيا وسافر . وله ترجمةٌ عظيمةٌ في هذا التاريخ إنْ شاء الله تعالى .

ولمّا توفي والده رحمه الله تعالى فى التاريخ المذكور كان عمره حينئذ في ست أو سبع ، فيكون عمره في يوم تاريخه وهو يوم السبت ثاني شهر رمضان من شهور سنة ست عشرة بعد الألف ستاً أو سبعاً وثلاثين سنة . وهو الآن فريدُ دمشق فضلا ودينا وسكونا ولُطْفاً ونَظْماً . وهو مُدَرِّس أيضاً بالمدرسة الشبليّة ، وبجامع بني أمية كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

نعودُ إلى ذكر والده صاحب الترجمة رحمه الله تعالى .

قلتُ : وكان لشيخنا العمادِ المذكور شعرٌ حسَنٌ ، كاتَبَ أدباءَ زمانه وكاتبوه .

فمن ذالك ما كتب اليه صاحبُنا الأديب ، وصديقنا الأريب ، درويش أفندي الطالوي سبط آل طالو ، مفتي دمشق بموجب الحكم السلطاني هذه القصيدة الفريدة طالباً للجواب ، والله الموفق للصواب :

(١٧٦ آ) عهدَ السرورِ وريعانَ الهوى النَّضرِ | سقاكَ عَهْدُ الحيا رَقْراقَ مُنحَدرِ
وجادَ ربعَكَ وسميٌّ تُكرِّرُهُ | ريحُ الصبا بين مُنْهَلٍّ ومُنْهَمِرِ
وَغرّدَت بربُاكَ الوُرْقُ وابتكرت | بلَحنِ مَعبَدَ تتلو أطيبَ الخبرِ
ولا برحتَ معاناً للحسانِ ولا | رَمَتْكَ أيدي النوى بالحادثِ الغررِ
ولا أغبّتْكَ أرواحُ النسيمِ ولا | عَدَتْ مغانيكَ أخلاقٌ من المطرِ
كم لي بها وشبابي الغضُّ مُقْتَبِلٌ | من منزلٍ آهلٍ بالشوقِ والذِّكَرِ
كم اجتَلَيتُ بدوراً من مَطَالِعِها | كم نيلَ تحتَ سناها مِنْ سنا قمرِ
من كل رُعْبوبةٍ تهفو بمصطبري | قد زانها الحسنُ بين الدلِّ والحَوَرِ
رُودٍ كَسَتْها يدُ الأيامِ ثوبَ صِباً | وصَيَّرَتْها الليالي فِتْنَةَ البَشَرِ
هيفاءَ صَبَّ الصِبا ماءَ الشبابِ على | أعطَافِها وكَسَاها أطيبَ الخَفَرِ
قامت تُعانقُني عِنْدَ الوداعِ وقد | قلَّدتُها من دموعي رائقَ الدُرَرِ
تقولُ والبَيْنُ تغشاها ركائبُه | والدمعُ يقطُرُ فوقَ الخدِّ من حذَرِ

لا تُعتِبِ الدهرَ إنْ حالتْ خلائقه ... فصفوُ رَونَقِهِ لم يَخْلُ من كَدَرِ

وإن تُرِدْ تتقى من صرفه نُوَباً ... فألجأ لِظِلِّ عمادِ الدينِ تَستَتِرِ

مولىً حِماهُ غدا أمْنَ المروع كذا ... جنا به الرَّحبُ مأوى الخائفِ الحَذِرِ

ما زالَ يسمو إلى العلياء مرتقياً ... بسؤددٍ مجدُه سامٍ على الزُهُرِ

حتى امتطى صَهَوَاتِ المجدِ سامية ... تختالُ في حُلَلِ الأوضاحِ والغُرَرِ

بهمةٍ تعتلي كالليثِ ذي أثرٍ ... وعَزمةٍ كمَضاء الصارمِ الذكَرِ

ما فاضلٌ قطُّ جاراهُ إلى أمدٍ ... في البحثِ إلا انثنى بالعِيِّ والحَصَرِ

أقلامُه السُمرُ في بيضِ الطروسِ إذا ... مَشتْ أرَتْكَ فِعالَ البيضِ والسُمرِ

له سجايا كَنَشْرِ الروض ذي زَهَرٍ ... وقد توشَّحَ بالأنهارِ والغُدُرِ

يلقاكَ طلْقَ المُحَيَّا وهوَ مُبتَسِمٌ ... بمنطقٍ وِرْدُهُ أحلا من الصَدَرِ

ما الروضُ جاءتْ له الأنواءُ بالبُكُرِ ... وكَلَّلَتْ دوْحَهُ المُخضَلَّ بالزَهَرِ

جادَ الغمامُ له سَحّاً بوابله ... وأكسبَتْهُ الصبا من رِقّة السَحَرِ

فازدانَ بالنَوْرِ غِبَّ القَطْرِ فهو على ... نَهْرِ الأُبُلَّة حسناً راقَ للنَظَرِ

تخالُ زَهْرَ الأقاحي في خمائله ... زُهْرَ المجرّةِ صِينَتْ عن يد الغِيَرِ

تشدو الحمامُ على أغصانه سَحَراً ... فتبعَثُ الشوقَ في أحشاء مُستَعِرِ

يوما بأحسنَ مرأىً من خلائقه ... ولا بأذكى شذاً من طيبها العَطِرِ

ياعالماً كم جلَتْ أبكارُ فكرته — غُرَّ المعاني لنا في أحسنِ الصُوَرِ
ياابن الكرامِ ومَنْ شادوا بعزمهمُ — رُكْنَ العُلا سامياً في سالف العُصُرِ
ويا عماداً لدينِ الفضلِ يرفعُه — وكادمن ضَعْفه يُلفى على خَطَرِ
إلى ذُراك انتمتْ فاقْبَلْ على دخل — نسيجها يا رئيس البدوِ والحَضَرِ
لازِلْتَ في نِعَمٍ تسمو بسؤددِها — هامُ السماكيْن حيثُ النسرُلم يطِرِ
ما ناح بالأيْكِ قمريٌّ وما سجعتْ — وُرْقُ الحمائم بالآصالِ والبُكَرِ
وما وشى الطرسُ تنميقَ اليراع بما — يزري بوشْي الرُّبى يَبْسِمْن عن زَهَرِ

فكتب له الشيخ الجواب من وزنه ورويه :

أثغرُ حوْراءَ أمْ عِقْدٌ من الدُرَرِ — أم زاهرُ الزَهْرِ أم زاهٍ من الزَهَرِ
أم الحَبَابُ على راحٍ مُرَوَّقةٍ — أم نفحةُ السحرِ لي أمْ نَسْمَةُ السَحَرِ
أمْ نظمُ مَنْ بَهرتْ آياتُ منطقِهِ — فأعجزتْ كلَّ ذي نَظْمٍ ومُنْتَثِرِ
يا نافثَ السحر مِنْ فِيهِ بمعجزة — عقدتَ ألسُنَ أهْلِ البدوِ والحَضَرِ
ويا مُديراً سُلافاً من بلاغته — هلاَّ ترَفّقْتَ بالألبابِ والفِكَرِ
ويا إبْنَ طالو وإنْ طالَ الزمانُ فما — لنا بلوغٌ إلى علياكَ فاقتصرِ
أخذتَ دُرَّ المعاني من مَعادنه — وغُصْتَ في أبحرِ الآدابِ للدرَرِ
وحُزْتَ جَمْعَ المزايا وانفردتَ بها — ولم تَدَعْ لِلْسوى شأواً ولم تذرِ

وجئتَ مِنْ كُلِّ معنًى رائقٍ بَهِجٍ بكلِّ ما قد حلا في الذوقِ والنَظَرِ
كأنه ضَرَبٌ قد شابه شَنَبٌ أو عاتقٌ عابقٌ من ريحه العطِرِ
أهديتَ لي غادةً جلّت محاسنُها وقد تجلّتْ لنا في أحسنِ الصُوَرِ
لها انتسابٌ إلى زُهْرٍ ومُرْسِلُها بحُسنِ مَنْطِقِه يُنْمَى إلى مُضَرِ
حيّتْ فأحْيَتْ بألفاظٍ منمّقةٍ وغازَلَتْنا بلطفِ الدلِّ والحَوَرِ
وأسفرتْ عن سنا برقٍ، وعن شَفَقٍ وعن شِهابٍ، وعن شمسٍ، وعن قمرِ
زارتْ على حينِ أشواقٍ لبهجتها وَمَتّعَتْنا بذاكَ المنظرِ النّظِرِ
وضاع عَرفُ شذاها عند ما بَرَزَتْ مِسْكاً وعطّرَتِ الأقطارَ بالقطرِ (١٧٧ آ)
سألتُها قبلةً أُطفي بها حُرَقاً شبّتْ بقلبٍ بنار الشوقِ مُستَعِرِ
فأومأتْ لشتيتٍ زانَهُ شَنَبٌ وأنعمتْ بنعيم الوردِ والصَدَرِ
ونادمتْني بليلٍ قد سُرِرْتُ به لاكنّه ساءني إذْ مَرّ بالقِصَرِ
وبتُّ أُنشدُ مدحاً في محاسنها ما قاله شاعرٌ في سالفِ العصرِ
يا نزهةَ النفسِ يا مَنْ فاق منطقُها قسّ بن ساعدةَ المشهورَ في السِّيَرِ
إني عجبتُ لمن أنشاكِ رائقةً رقيقةً كحلاءَ كيف لم يَطِرِ
يا مَنْ له نسبٌ كالشمسِ مُشْتَهَرٌ عن شأوه النسرُ يروي أرفعَ الخبرِ
خُذْها إليك وإن كانت مقصّرةً فشأنُ مثلك سَتْرُ العيبِ بالسُتُرِ

وإنْ تكُنْ أوجزتْ في الوصفِ واختصرتْ ... فالعذب يهجو للإفراطِ في الخصر

وإن تكنْ من بليغِ القولِ عاطلةً ... فقد تحلّتْ بعِقْدٍ من مديح سري

فاعذر فإني تركتُ الشعرمن زمنٍ ... لشاغلٍ عنه غشى مُقْلةَ الفكرِ

لازلتَ تسمو على الأقرانِ مرتدياً ... ثوبَ البلاغةِ في أمْنٍ من الحَصَرِ

ماطرّزَ الطرس تنميق اليراع بما ... يزهو على الروضِ وَشّتْهُ يدُ المطرِ

١٣٥

مولانا عبد الرحمن أفندي الفرفوري

هو عبد الرحمن ابن المرحوم قاضي القضاة وليّ الدين بن الفرفور . همامٌ رضع ثديَ المعارف حافلا ، ورقي في مراقب المجد وأصبح لديون المكارم كافلا . وبيته في دمشق بيت القضاء والمعالي . وسلفة سلف الفضائل وما مضى من الليالى . قد رقمت آيات فضلهم في صفحات الايام ، وتليت سور مجدهم عالية على روس الأعلام .

مات والده القاضي وليّ الدين قاضي قضاة الشام ، مسموماً بقلعة دمشق وولده عبد الرحمن هذا رضيع ، فتربىّ في بقايا العزّ الذي كان لوالده المذكور لأنه كان عزيز الدولتَـيْنْ . ورئيس المذهَـبَيْنْ . وقرأ العلوم على ما هو المعتاد ، فيبدأ بالعربية ، ثم بالمنطق ، ثم بالبلاغة ، ثم بالعلوم الشرعية الى أن وصل الى سنّ الثلاثين فصار خطيباً بالعمارة السليمانية التي بناها المرحوم السلطان الغازي سليمان بالميدان الأخضر بدمشق ، مكان القصر الأبلق ، ثم ترك الخطابة وطلب من السلطان (١٧٧/ب) المذكور علوفةَ الصندوق ، على قانون أولاد الموالي والقضاة في دولة آل عثمان . فأعطاه السلطان وأخاه القاضي ولي الدين نحو ثلاثين عثمانياً كلّ يوم في خزينة دمشق ، واستمرت العلوفة معهما . فأما القاضي ولي الدين فاستمرت العلوفة معه الى أن مات .

وأما القاضي عبد الرحمن فإنه لما أراد منصب القضاء أعرض عن العلوفة المذكورة ، لأنه لايجمع بين العلوفة والقضاء في اصطلاح آل عثمان . وتولى

من المناصب قضاء شَيْزَر ، وقضاء المَجدَل ، وقضاء القنيطرة من نواحي دمشق . ثم إنه ترك ذالك كله ، وألقى عن كاهله كَلَّه . وجلس في بيته يكتب ويحرر ، ويذاكر في أنواع العلوم ويقرر ، وانفرد في بيته الكائن بالقرب من البادرائية ، في جوار بيت المرحوم السيد كمال الدين ابن حمزة .

كان لي به اجتماع كثير ،وكان له عليّ في ذالك الاجتماع لطفٌ غزير وكان مبدأ ذالك انه مرّ يوما بالجامع الأموي ، وأنا أدرس الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه عند شباك الكاملية بالحائط الشمالي ، فوقف لحظة يسمع إلقائي للدرس المذكور . فلمّا ذهب الى بيته قال لولديه الفاضلين المرحوم سيدى محمد والمرحوم سيدي الجمال جمال الدين : رأيْتُ اليومَ رجلاً يُدَرِّسُ في الجامع الأموي في فقه الشافعي ،وأظنه قُدْسِياً مارأيتُ أفصح من لهجته ، ولا أبلغَ من عبارته . فقالا له : نعم هذا فلان ، وهو من معارفنا .

فقال : فأرسلوا إليه أحداً يحضره الينا هنا حتي نتصاحب معه .

فأرسلوا إليّ رجلاً من أتباعهم . فدخلت إلى بيتهم المذكور ، فوجدتُ القاضي وولديْه جالسيْن . فلما دخلتُ استقبلوني وفي صدر المكان أجلسوني . فتذاكرنا معهم أنواع الدقائق ، وتجاذبنا في حضرتهم أهْداب الحقائق ، إلى أن رغب كل منا في أخيه ، وتعاقدنا على عهد الأخوة محترزين عما ينافيه . وكنا في كل يوم نجتمع في دارهم المذكورة ، وهم يتفضّلون بالمكارم التي ليست بمنزورة . ولم يكن بيننا سوى مذاكرة العلوم ، والتفحص عما تضمنته من منطوق ومفهوم . وكانت عندهم الكتب التي يعزّ وجودها الحسنة ، (١٧٨/آ) والآثار المستحسنة . ولقد انتفعت بصحبتهم لوجوه مذاكرة العلوم . ومنها الاطلاع على ما عندهم من الكتب التي يعز وجودها على كل

أحد . ومنها أن القاضي عبد الرحمن المذكور كان ينوّهُ باسمي حيث كان ، ويثبتُ على فضائلي أصدق البرهان . ومنها الاستغناء بها مع ما عندهم من الصيانة عن بعض الإخوان الذين ما (١) الخيانة . فرحم الله هاتيك الأجساد ، وأمطر عليها من سيب الرحمة عهد العهاد ، فإنهم كانوا جمالاً للأيام ، وابتهاجاً لأبناء دمشق الشام . وقد أفردت لولديه المذكورين ترجمتين ستأتي كل واحدة في موضعها . ولقد دامت مصاحبتنا معهم أعواماً عديدة ، ومدة مديدة ، ليلا ونهارا . لا يجد أحد منا عن صاحبه اصطبارا . وبالله ثم بالله لقد كان القاضي عبد الرحمن المذكور يأتي المدرسة الناصرية الجوانية وهي بجوارهم عند بيتهم فيجلس عندي في حجرتي بالمدرسة المذكورة ويبث لي ما عنده من حوادث الزمان ، ومن نوائب الحدثان . فإنه كان كثيراً ما يتكدّر لأنه يرى مناصب آبائه في يد الغير وهو منها محروم . فكانت لذلك تعتريه الهموم ، وكان يخطر له ما لقي والده قاضي القضاة من تعصب الدهر وجفاه . وما لقيه من التفتيش الذي أتى على غالب أملاكهم ، وفرّق بين عقود أسلاكهم ، فكان يتأوّه نارا ، ويقدح في تأوهه شرارا . وكان كثيراً ما ينشد قول القائل :

من يَتَمَنّي العُمرَ فليَدَّرِعْ صبراً على فَقْدِ أحِبّانه
ومَنْ يُعَمَّر يَلْقَ في نَفْسِهِ ما يتمنّاهُ لأعـــدائه

وكان قد رأى في بعض التواريخ قول القائل :

الحمـــدُ لله على أنني لستُ بذي مالٍ ولا ضَيْعه
فالماء أفنى ماء دِيباجتي وصرتُ بالضَيْعَةِ في ضَيْعه

---

(١) بياض في جميع الأصول .

فكان يقول :

الحمدُ لِله على أنّني أصبحتُ ذا مالٍ وذا ضيعه

فالماء أفنى ماء ديباجتي وصرتُ بالضيْعة في ضيعه

(١٧٨ ب) وبالجملة فقد كانت له مكارم أخلاق ما ملكها غيره من أبناء زمانه ، غير أنه كان مبتلى بالعمارة والتخريب ، وكان يعمر الشيء إلى أن يصل إلى حد الإتمام . ثم يعنّ له أن يغيّره فيخربه بالتمام . وهلم جرّا . وكان يضيع لذلك أموالاً كثيرة ولاكنّه مع ذالك يجد بالاشتغال بالبناء سلوة عن أحزانه . واشتغالا عن أبناء زمانه . وكان رحمه الله تعالى كاتباً شاعراً ، ناظماً ناثراً . فمن شعره ما أنشدنيه في بيته المذكور في سنة خمس وثمانين وتسعماية :

ناهزتُ خمسين ولم أتّعِظْ وشاب فَوْدي منذراً بالرحيل

ولم أقدّم عملا صالحا فحسبي الله ونعم الوكيل

ولما فات الخمسين كان ينشد البيت هكذا جاوزت خمسين ولم أتعظ .
وله أيضاً من قصيدة كتبها الى قاضي العسكر مطلعها :

إنّ أبنَ فرفورعلى طردِهِ عن بابكم باقٍ على عَهْدِهِ

داعٍ لكم مُثْنٍ عليكم كما يعلمُهُ السيّدُ من عَبْدِهِ

ولما أنشدني قوله ناهزت خمسين الى آخره أنشدته لي في ذلك ارتجالا :

أذاقني الدهرُ صُروفَ النّوى وصرتُ من جَوْرِ الليالي ذليلْ

ولم أُقدّمْ عمَلا صالحاً فحسبيَ اللهُ ونِعْمَ الوكيلْ

ولما مات ولده سيدي محمد في التاريخ المذكور في ترجمته في حرف الميم وَجدَ عليه وجداً عظيماً ، وتأسف لفقده تأسفاً جسيما . وانقطع

عن الناس انقطاعاً كاملاً ، وهجر الخلائق هجراً شاملاً ، اللهم إلاّ رجلاً يأنس به في حال انفراده ، ويبث له من أوجاع الدهر ما في فؤاده . دخلت عليه مرة وهو من الدهر يتوجع ، وكبده من الحزن كادت تتقطع . وهو ينشد بصوت حزين ، قد مزجه بالوجد والأنين ، هذه الأبيات :

يا واحداً ما كان لي غيره بعدك وآ قلّةَ أنصاري

يا مُشْتَكى حُزْني ويامُنْتَهى سُؤْلي ويا حافظَ أسراري

الدارُ من بعدك قد أصبحتْ في وحشةٍ يامؤنس الدارِ (١٧٩ آ)

جارُك قلبي كيف أوحشْتَهُ والله أوصى الجارَ بالجارِ

وكان رحمه الله تعالى عارفاً بالنغمة وباصطلاح الموسيقى ، حتى انه كان يخلو بنفسه ويدفع عنه الوحشة بصوته الحسن .

وكان قد قرأ على عدة مشايخ منهم الشيخ الصالح ، الوليّ الفالح ، الشيخ أبو الفتح الشبستري الذي كان قاطناً بالخانقاه الشميصاتية . جوار جامع بني أمية ، ومنهم الشيخ المحقق الشيخ أحمد القزويني الشهير بالسعيدي الذي كان قاطناً بدمشق بمحلة القيمرية ومنهم المولى العلامة الشيخ علاء الدين بن عماد الدين الشافعي ، وغيرهم من علماء عصره .

وتخرج به جماعة منهم ولداه المذكوران .

ولمّا مات دفن بجوار تربة القطب الرباني سيدي الشيخ أرسلان خفير دمشق ، في التربة التي كان والده قاضي القضاة ولي الدين ابتدأ عمارتها هناك ، وهي موجودة الى الآن وكانت وفاته في سنة احدى وتسعين وتسع مئة وكنت نظمت قصيدة تعرضت فيها للقاضي عبد الرحمن المذكور بعد أن ذكرت شيخنا العماد المذكور في حرف العين . رحمهم الله تعالى أجمعين .

١٣٦

المولى عبد الرحمن بن مرشد الحنفي (١)

هو من أهل مكة حرسها الله تعالى ومن السكان بها ومفتي السادة الحنفية بها زارني بالمخيّم الشامي في باب المعلّى ، وجلس عندي من أذان العصر إلى أن شارفت الشمس الغروب وقام فقمت له مودّعاً ، والى محل ركوبه مشيّعا . وهو الآن عين مكة وعالمها ، واليه يرجع محكومها وحاكمها ، وأرسل اليه قاضي مكة المولى صالح أفندي ابن المرحوم المولى الأعظم الأفخم الخواجا سعد الدين بن حسن جان بك مكتوباً يأمره فيه بأن يقوم مقامه في قضاء مكة ، فصدرت منه طفرة ، وهي أنه أرسل عند ورود المكتوب إليه الى قاضي مكة السيد محمد بن السيد محمد المجنون ، وكان السيد المذكور متولياً قضاء مكة بالاستقلال ، بأني توليت القضاء لا بطريق النيابة بل بأمر السلطان الى حين حضور صالح أفندي . فتزحزح عن سنن الحكومة فصدر له ألم(٢) عظيم بذلك ، وصار السيد المذكور يشيع بأن الحكم الذي صدر له في النيابة المذكورة مزوّراً ، وأنه صدر لغيره ، وصدر الاشتباه من اتفاق الاسم ، فإن في مكة رجلا [١٧٩/ب] يقال له عبد الرحمن وهو روميّ يعظ بمكة ، وكان قد تولى النيابة بمكة عن أخي صالح المذكور وهو المولى محمد أفندي المفتي يومئذ

(١) هذه الترجمة في ه ب وردت بعد ترجمة عبد الله بن الهاني . وفي ه ، ب « الشيخ عبد الرحمن بن مرشد المرشدي الحنفي ، مفتي الحنفية . اجتمعتُ به في مكة ، وهو من أهلها ، ومن السكان بها زارني ... » .

(٢) ب « أمر » .

بقسطنطينية المحميّة . فقال السيد محمد المذكور ومَنْ نحا نحوه : انما جاءت النيابة لعبد الرحمن الرومي الواعظ . فاشتبه الحال بعبد الرحمن العربي المفتي ، وصدر من السيد محمد المذكور تعصب على عبد الرحمن المرشدي المذكور بسبب النيابة المذكورة وكان يقول : أنا أُعزَلُ بمجرد قول رجلٍ من العَرب ، ويقول بالتركية بره عرب .

فقلتُ له يوماً وقد استهان بالعرب كثيراً : يامولاي أنت إن صحّ نسبك فأنت أشدُّ الناسِ علاقة بالعرب والعربية ، لأن بني هاشم هم صميم العرب ولبّ العربية

فقال : لنا مدة تزيد على ست مئة سنة قد فارقنا العرب .

وبالجملة فالشيخ عبد الرحمن المذكور واسطة عقد الحنفيّة . بمكة المحميّة . واختبرته فرأيت عربيته ماكنة . ورأيت حركته في فهم العبادات ساكنة . وقد شرح « نظم متن التلخيص » للشيخ العلامه ، المجتهد الفهامة ، الشيخ الأسيوطي شرحاً لا بأس به . وله « إنشاء » لطيف .

ولقد ودعني عند الرحيل من مكة الى باب مكة ، وأظهر محبة ومودّة . سلمه الله تعالى .

وكان رحيلنا من مكة في اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة الحرام من شهور سنة عشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية ، ونزلنا بالقرب من حدود الحرم من الجانب الشمالي ودخلنا دمشق يوم الثلاثاء خامس عشر صفر الخير من سنة إحدى وعشرين من الهجرة النبوّية . على صاحبها(١) ألف ألف سلام وتحيّة .

---

(١) ب ، « مهاجرها الف الف تحية » ، هـ « على صاحبها الف الف تحية » .

١٣٧

الشيخ عبد الرحمن العمادي

الشيخ الفاضل ، جامع أشتات الفضايل ، وارث العلم عن أصله . الذي عزّ وجود مثله ، هو(١) المفتي يومئذ بدمشق على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه الشيخ عبد الرحمن ابن أُستاذنا الإمام الهمام ، شيخ مشايخ الاسلام ، فخر علماء الأنام ، المولى الأعظم العماد الحنفي . أجزاه الله تعالى على عوائد برّه الخفي .

تولى الشيخ عبد الرحمن المذكور تدريس المدرسة (١٨٠آ) السلطانية السليمية ، بصالحية دمشق المحمية(٢) . وباشر التدريس بها في يوم الأحد ثالث ذي الحجة الحرام ، من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، على مهاجرها ألف ألف صلاة وسلام وتحية ، حيث كان قاضي دمشق حينئذ حضرة المخدوم المسمى بشيخ محمد ابن شيخ الاسلام محمد أفندى ابن شيخ الاسلام المسمى بشيخ محمد بن إلياس الشهير بچوي زاده ، بلّغه الله تعالى الحسنى وزيادة . وعلوفتها في كل يوم خمسون درهما عثمانيا . ومعيده فيها الشيخ لطفي بن يحيى بن الشمس المنقاري الحلبي » الأصل ، الدمشقي المولد والمنشأ . وذهب للتدريس بها في يوم الأحد المذكور أعلاه وكان كاتب الحروف الفقير الحقير ، المعترف

---

(١) « هو » ساقطة من ب ، هـ .

(٢) في ب هـ « المحمية ، وتولى تدريس المدرسة المذكورة في التاريخ المذكور أعلاه ، حيث كان قاضي دمشق . . . »

بالمقصود والتقصير ، الحسن بن محمد البوريني حاضراً للدرس . وكان الكلام على قوله تعالى في سورة يس وجاء ﴿ رَجُلٌ مِنْ أقصى المدينةِ يَسْعَى ﴾[1] الى آخر الايات المتعلّقة بقصة حبيب النجار . وكان حضّار الدرس من فضلاء دمشق جماعة مستكثرين : منهم المعيد المذكور . ومنهم الشيخ يوسف ابن أبي الفتح حفيد شيخ العارف المشهور ، الشيخ منصور ، الشهير بخطيب السقيفة . ومنهم الشيخ الصالح إمام المدرسة السليمية الشيخ أيوب المقري الفاضل . ومنهم الشيخ الفاضل الشيخ أحمد بن المرحوم الشيخ ابراهيم الشهير بابن محب الدين وهو ابن خالة المدرّس المذكور . ومنهم الشيخ محمد بن علاء الدين الامام الطرابلسي الحنفي . وحضره أُناس آخرون من الفضلاء والصلحاء وحضره أيضاً فخر الأصلاء ، وذخر النبلاء ، عبد اللطيف چلبي ابن المرحوم محمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن قاضي القضاة وليّ الدين ابن قاضي قضاة مصر والشام الشهاب بن الفرفور .

ولمّا تمّ الدرس بعد أذان الظهر قرأنا الفاتحة ، ودعونا الله تعالى ، وصلّينا الظهر ، وسرنا الى قصر القاضي أكمل الدين ابن مفلح الذي تملّكه بعده وزاد فيه زيادة حسنة القاضي يوسف بن يوسف بن كريم الدين ، رئيس الكتاب ، يومئذ بمحكمة الباب ، بدمشق المحميـــة ، والقصر المذكور في مقابلة دار الحديث الأشرفية بالصالحية . وإنه الآن قصرٌ عليه المحاسن . (١٨٠ ب) وجرى في نواحيه ماءٌ غيرُ آسِن . يترآى منه الروضُ الأريض ، ويتمشى بين غصونه النَسيمُ المريض . فأقمنا به بقية يومنـــا وكان يوماً مشهودا ، وكان وقته بعون الله تعالى مسعودا . ومدّ في القصر المذكور سماطاً حافلاً ، وكان لنفائس الأطعمة كافلا . وجلسنا للمذاكرة ، وتجاذب أطراف المشاعرة .

---

(١) سورة يس ، الآية

فقلت ، وقد صعدت من سلم المكان المذكور وهو عالٍ الى الغاية ، كثير الدرج الى غير نهاية :

أصبحتُ شيخاً كبيراً لا أستطيع النهوضا

فقال المدرس مولانا الشيخ عبد الرحمن مجيزاً :

وَقَدْ رماني زماني بما يذودُ القَريضا

أُلقي القريضَ فألقى دون القريضِ الجريضا

فقال الشيخ يوسف المذكور أعلاه مجيزا لذلك :

لا يطّبيني مَحَلٌ لو كان رَوضاً أريضا

ما إن تمنيتُ شيئاً إلا وجدت النقيضا

وقال الشيخ عبد الرحمن :

آهاً لبِيضٍ ليالٍ غازَلْتُ فيهنّ بِيضا

فقلتُ بعد هذا البيت :

وشِمْتُ أجفانَ لَحْظٍ سَلّتْ من السُّودِ بِيضا

سُقْياً لأيامِ وَصْلٍ وَرَدتُ فيها البريضا

فقال المدرّس :

مَعَ كلّ يوسُفِ حُسْنٍ قد كنتُ فيه حَريصا

ما لاح للغيد إلاّ وَجدْن فيه المحيصا

فقال الشيخ يوسف :

أيّام ماءُ ملامي من لاعجِ الوَجْدِ غيضا

وقال مولانا الشيخ عبد الرحمن :

كم زرتُ فيها حبيباً وقد عَدِمْتُ البغيضا
وكم يَدُ الوصلِ فيها أسْدَتْ نداً مُسْتَفيضا (١٨١ آ)
واهاً لها مِنْ ليالٍ لو أمكنتْ أنْ تؤوضا
أقضي بهن حقوقاً فاتَتْ وكانَتْ فُروضا

وقلتُ :

مُذْ شِمتُ بارِقَ ثغْرٍ للدمع أضحى مفيضا
ركبتُ من خيلِ شوقي طِرفاً من الدهر رِيضا
أرجو لصحةِ جسمي طَرفاً صحيحاً مريضا
فالعظمُ ممّا أُلاقي أمسى كسيراً مهيضا
شاهدتُ من بَرْقِ شيبي عند الصباحِ وَميضا
يا ربّ لُطفاً بعبدٍ يشكو زماناً عَضوضا

وقال المدرّس :

أوهى عمادي وأبقى طَرْفَ اعتمادي غضيضا
وكم عوارض دهرٍ زادت لدي العروضا

أغْرَتْ عليّ ذوي الجهـــلِ قَضَّهم والقضيضا
لما رأوني أُجَلّي في المشكلات الغُموضا
وإنْ أتوا بمقالٍ أظهرتُ فيه الدُحوضا
حباهمُ الدهرُ رفعاً وسامَ حَظّي حَضيضا
لكنْ من الله أرجو نَصْراً وجاهاً عريضا
فالله إن شاءَ أضْرى على الأسودِ البعوضا
وفضلُه فاضَ حتى عمَّ الأنامَ فيوضا

ومما أنشدني المولى المدرّس المذكور من لفظه لنفسه هذه القصيدة الفريدة ، ومـــن خطه نقلتُ يوم الجمعة ثامن ذي القعدة الحرام مـــن شهور سنة سبع عشرة بعد الألف :

سأطمس آثاراً هوايَ أثارَها وأنفضُ من ذَيْلِ الفؤادِ غُبارها
لقد آن صحوي من سُلاف صَبابةٍ فقد طال ما خامرت جَهْلاً خُمارها
(١٨١ب) هجرتُ الهوى والزهرَ حتى اشتياقه وطيبَ ليالي اللهو حتى أدّكارَها
وعفّيْتُ سُبلَ الهزْلِ بالجد مقلعاً وعَفّتْ مسرّاتٌ جنيْتُ ثمارَها
أثامٌ كُفيتُ اليوم بالتركِ شرّها لعلي غداً في الحشر أُكفى شِرارَها
قَطَفْتُ أزاهيرَ الصّبابةِ في الصبا وقدْ صار عاراً أنْ أشمّ عَرارَها

فلو صائداتُ القلب أُقبِلْنَ كالمها وقبّلْنَ رأسي ما قبلتُ مَزارَها

وقد كنتُ أودَعْتُ الحجى فاستردّه إلى النفس شيبٌ قد أعاد وَقارَها

وكان شبابي شَبَّ نارَ صبابتي فمُذْ لاح نورُ الشيبِ أخمدَ نارَها

ترى شيبتي ما عذرها لشبيبتي وقد سبقت قبل الكمال عذارَها

تبسّم ثغرُ الشعر فيها تعجّباً لها إذ رأى لَيْلَ الشَّبال نهارَها

فما زارَ وكر الشعر فيها غُرابُهُ ولا دار حتى استوطن البازُ دارَها

عسى الآن ءا قد عثرتُ إنابة يقيل بها للنفس ربّي عِثارَها

عسى رحمة أو نظرة أو عناية يتم سعودي في صعودي منارَها

عسى نفحة من نورِ نورِ معارفٍ تهبُّ فتختارُ الفؤاد قرارَها

ويشرحُ صدري نورُ علم مُقدّسٍ يُريني أسرارَ العلومِ جِهارَها

وأُمنح ألطافاً من الإنس أبتغي خَفَاها فيأبى الوَجْدُ إلاّ اشتهارَها

ويُكشَفُ عن عينِ البصيرة حجبُها بأنوارِ عرفانٍ تزيحُ اسْتِتَارَها

فيظهر لي سرُّ الحقيقة مُشْرِقاً على ظُلَمِ الكونِ التي قد أنارها

فأحظى بحالاتٍ من القُرْب لم يَنَلْ فتًى باجتهادٍ فضلَها وفخارَها

ولطفُ إلهي قطبُ دائرة المنى فإنّ عليه في الأمور مدارَها

وله أيضاً في المعنى :

قد شابَ فَوْدي حين تابَ فؤادي فكأنَّما كانا على ميعادِ
حسنُ الخواتِم أرتجي من مُحْسِنٍ قد جادَ لي قدماً بحسن مبادي
وعماديَ التوحيدُ فهو وَسيلتي في نَيْلِ ما أرجوه يوم معادي
إنْ قيلَ أيٌّ سفينةٍ تجري بلا ماء وليس لأهْلِـها من زادِ
قُلْ رحمةُ الرحمن مَنْ أنا عبدُهُ تَسَعُ العبادَ فمَنْ هو ابنُ عِمادِ

١٣٨

الشيخ عبد الله المصري الحنفي [1] (١٨٢ آ)

هو الشيخ الصالح الفاضل ، والعالم العامل الكامل ، عبد الله المصري الحنفي ثم الدمشقي . ورد الى دمشق في حدود سنة خمس وسبعين ، فسكن في صالحيتها بالمدرسة العمريّة . وكان يحفظ كلام الله تعالى ، غير أنه كان من الفقر في رتبة لا منتهى لمداها ، ولا أمد لمنتهاها . وكان حالَ إقامته بالصالحية يتقوّت بخبز المدرسةِ العمرية . ولم يزل على ذالك إلى أن ورد إلى دمشق قاضي القضاة محمد بن سنان ، فلازمه وكالمه ، وحادَثَهُ وباسَمَهُ ، وقال له : بلغني أنك مالكيّ المذهب ولست بحنفيّ . فقال له : ليتني كنت مالكياً ، فإن مذهبي لو كان مخالفاً لمذهبكم لما لُمتُكُم على عدم الالتفات إليّ ، ولكن جمعتم عليّ الإعراض والموافقة في المذهب . فضحك قاضي القضاة من كلامه . وعلم بذلك طريق اقدامه ، وسبيل مرامه ، وميّز بين وداعه وسلامه .

وكانت له مهارة في علم النحو ، وفي بعض فقه الحنفية .

وكان حسن الأخلاق . مطاوعاً لما تقول به الرفاق ، مثابراً على ما يكون به الارتفاق ، مُؤثراً لما يكون سبباً للائتلاف والوفاق . وكان ضاحك السن بين أصحابه ، عادم الكلفة في معاشرة أحبابه .

سكن خارج دمشق في محلة القنوات وصار إماماً بالمدرسة الشاذبكية . وكان مع ذلك يذاكر بعض الطلبة في تعليم بعض الفنون من العربية والفقه

---

(١) هذه الترجمة وردت في ب بعد ترجمة الشيخ علي النكاوري ، .

وما أشبه ذلك ، وكان مع فقره لا يخلّ بضيافة من يمرّ به من الإخوان ، بل كان في الغالب يحضر له ما به ضياء العيون من قرى الخلاّن . وتزوج بدمشق مرة بعد أخرى . وكان يظهر كمال التشوق إلى زيارة البيت الحرام ، والتثام ثرى القبر الشريف ، على جوهره الفرد الصلاة والسلام . وسمعته يلهج بهذه الكلمات :

أرى نفسي بأشواقي رهينهْ   لقبرٍ قد ثوى وَسْط المدينهْ

وللبيتِ الحرامِ وما حواه   من الدررِ المعظّمةِ الثمينـه

فاتفق أنه حجّ سنة خمس وتسعين في ما أظن ، فتوفي بين الحرمين بعد أن حجّ وطاف ، وتشرف بتقبيل الشامة التي زينت وجه المطاف .

قلت : (١٨٢ ب) وقد اتفق مسيرنا إلى جهـة القنوات من محلات دمشق المحروسة ، فأدركتنا صلاة الظهر بمدرسة شاذبك ، فصلّينا هناك ، وإمامُها يومئذ الشيخ عبد الله المصري المذكور . فلمّا سلّمنا عليه وتصافحنا نظم أبياتاً يشير بها إلى الفقير كاتب الحروف حسن بن محمد البوريني ، ولم تكن الأبيات كلها قابلة لأن تودع في هذا الكتاب ، فكتبنا ما ينتظم في سلك النظام ، وحذفنا ما هو من قسم القَتَادِ أو القَتَام .

وهي هذه :

يا عالِمَ العَصْرِ وبَحْرَ النَوالِ   لازِلْتَ ترقى في بروجِ الكمالِ

ولا بَرحتَ الدهرَ في سؤدُدٍ   ممتّعاً بالسَعْدِ في كُلِّ حالِ

شَرّفْتَني في ساعةٍ أشرقتْ   أنوارُها منكم بحسنِ الجمالِ

وأشار إلى طلب الجواب ، فكتبت معتمداً على لطف الملك الوهاب :

أقسمتُ ما لذةُ يومِ الوصالْ ولا وفاء الوعْدِ بعد المطالْ

ولا ابتسامُ الزهر إذْ جادهُ جودُ السحابِ الهاطلاتِ الثّقال

ولا تَثَنّي الغصنُ إذْ هَيْمَنَتْ أرواحُ نَجْدٍ من صَبًا أو شَمال

ولا اجتماعُ الشملِ بعد النوىٰ في غَفْلَةٍ من حادثاتِ الليال

ولا ارْتِوَاء القلبِ من مَنْهَلٍ يروي صدى الظمآنِ مثلَ الزلال

ولا الوفا بعدَ الجفاء، والهنا بعد العنا[1] ، والميلُ بعد الملال

أحسن من أبياتكم إذْ أتتْ تهدي الشفا للقلبِ بعد اعتلال

يا حُسْنَها لما أتتْ تنجلي وتَنْثَني كالخودِ عند الدلال

مولاي عَبْدَ الله يا مَنْ له قدرٌ جليلٌ حَلَّ فوق الهلال

يا جامعَ الألطافِ يا مَنْ غدا بين البرايا مُفْرَداً بالكمال

شرَّفتَ مَنْ أضحى لكم مُخْلِصاً ولم تزلْ ربَّ الوفا والنوال

قرَيْتَنَا ثُمَّتَ أقْرَيْتَنا جوداً وفَضْلاً فاتَ عَدَّ الرمال

هاذا هو الفضلُ وهذا الصفا هاذا هو المجدُ وحسنُ الخصال

مَنْ رامَ أن يُلحقكم في الورى فإنه في الدهر رَامَ المُحال

حالتْ صروفُ الدهرِ دون اللقا والودُّ ما زالَ ولا الحبُّ حال

---

(١) هـ « الفنا » .

[١٨٣ آ] جيدُ المعالي عُطِّلَتْ قبلكم لاكن بكم عَطْلُ الليالي حوال

يا فاضلاً أوصافُ أفضاله ما شانَها الدهرُ بوصفِ اختلال

أبرزتَها في لحظـةٍ والحشا تُرمى من الغيد بوقعِ النبال

حديقـة أمطرت أرجاءها سحائب الأفكار عند انهمال

فكرٌ ولاكن فاقَ حدَّ الظبا ونارُ فَهْمٍ قد عَلَتْ باشتعال

ما ضرَّها إلا قصورُ الورىٰ ولم تُقَدَّم في الليالي الخوال

فاَسْلَمْ وكُنْ يا سيدي واصلاً إلى علـوٍّ ما له من زوال

ما غرّدتْ في الدوح قُمريّة أو حرّكَ الغصنَ هبوبُ الشمال

قلت : وقد خلف ولدين هما محمد وأحمد ، فأمّا أحمد فقد اعتنى بتعلم صنعة السروج ، ولعلّه يكتسب منها كفايته ويسلك فيها ويروج . وأما محمد فإنه سلك طريق الطلب للعلوم ، ولم يكتسب منها إلاّ القليل على قدر القرائح والفهوم . وقد قال الأديب : النجيبُ مِن النجيبِ عجيبُ .

والله تعالى هو السميع المجيب ، وهو اللطيف القريب .

١٣٩

عبد الله المغربي (١)

هو عبد الله بن الهاني المغربي ، شيخ الركب الوارد إلى الحج من المغرب في سنة عشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها ألف الف سلام وتحية . صدفته خارج المدينة المنوّرة في أوائل المحرّم افتتاح سنة إحدى وعشرين بعد الألف ، وكنت مع الركب الشاميّ وارداً إلى طَيْبَة وكان المذكور خارجاً من طَيْبَة ذاهباً إلى بلاده . وكان الاجتماع بين آبار المدينة ومقابر الشهداء على الطريق ، ونحن على ظهور الدواب ، فتصاحبْتُ معه ، فرأيتُه عاقلاً ساكناً . وكان من كلامه أن قال صادَفْتنا بكم السلامة ، وقابلتنا بوجودكم الكرامة .

وسألته عن مسكنه فقال : أنا في الأصل من قيروان الغرب ، ومنزلي اليوم في تونس . وهاذه الخدمة التي أنا فيها من جانب حكام آل عثمان في ديار افريقية .

وصادفتُ معه رجلاً من علماء الغرب من مدينة جرجه يقال له أبو القاسم فقلت له : سمعتُ أنّ في بلدتك قوماً من الناصبيين المبغضين لعلي رضي الله تعالى عنه ، فهل بقي منهم أحد ؟ فقال : لا (١٨٣ ب) وكان جوابه خفيفاً . وبحثتُ معه في المنطق ، وفي شيء من مقاصد البلاغة ، فرأيته متعنتاً في الجواب . متحرفاً عن جهة الصواب ، وحقّقتُ أنه منحرف الاعتقاد . وأنه يظهر زَيْفُه عند الانتقاد ، وعلى الله تعالى الاعتماد .

(١) وردت هذه الترجمة في ب بعد ترجمة عبد الله المصري .

١٤٠

الشيخ عمر القاري

أخونا هذا الشيخ عمر الشهير بابن القاري . سَلَفُهُ كلّهم تجارٌ لهم أموالٌ كثيرة ، وثروة غزيرة ونشأ الشيخ عمر هاذا فاضلاً ، قرأ ودَأبَ وحَصّلَ العربيةَ بإتقان ، والمعاني والبيان ، ونظـر في الأصلَيْن نظـراً كاملا وتفقّه .

فأما العربيه فأستاذه فيها وفي المعاني والبيان شيخنا العلامة العماد الحنفي .

وأما الأصول فقد قرأ « جمع الجوامع » للسبكي ، مع « شرحه للمحلي » على شيخنا العلامة إسماعيل النابلسي الشافعي .

وأمـا الفقه واللغة فقد قـرأ فيه على جماعة منهم الشيخ نور الدين النسفيّ .

وكتب الخطّ الحسن على الشيخ الصالح محمد الحرستاني نزيل دمشق ، وبالجملة فهو من محاسن فضلاءِ الزمان . وله مع ذلك شعر لطيف . ونثر نظيف . ونشأ في نعمة وافرة ، وخيرات متكاثرة . وأبوه محمد القاري كان صالحاً متقشّفاً ، ولم يكن خالياً من فضيلة .

حضرتُ معه على شيخنا الأستاذ العالم العامل للعماد الحنفي في المدرسة الناصرية الجوانية ، وقرأت المعاني والبيان على الشيخ المذكور ، وكان قارئاً لذلك العلم أيضاً .

واجتمعنا أيضاً في قراءةِ « شرح المفتاح » للسيد الشريف الجرجاني

في مدوسة درويش باشا الكائنة خارج دمشق ، في محلة باب الجابية ، على شيخنا الأستاذالعالم الكامل إسماعيل النابلسي الشافعي .

وقرأ في آخر طلبه الحسابَ على الشيخ محمد التنوري الميداني .

وقرأ علمَ الهيئة على الشيخ محمد البغدادي نزيل دمشق .

وهو الآن يغلب عليه المكث في بيته بالقرب من مأذنة الشحم .

ودرّس بالجامع الأموي المعمور ، وبالمدرسة الشامية الجوانية . وهو وجودٌ بين عَدمين ، وَجوهر بين عَرَضَين . لأن والده لم يكن عالما كما ذكرنا ، وكذلك ولده لم يتبع والده ولم يرث طريفه ولا تالده . والشيخ عمر المذكور مع فضيلته التامة ، وعلومه العامّة ، لم يربّ طالباً (١٨٤ آ) يكون به مخصوصا ، وذلك لميلِ نفسه الى الانفراد ، ولعمري إنّ رأيه هو الرأي الذي عليه الاعتماد . أنشدني مرة في منزله لرجل يقال له مكلبة المستنجدي وليس الشعر لمكلبة وإنما سمع المؤذن في آخر الليل يقول :

يا رجالَ الليْلِ جدّوا رُبّ صوت لا يُرَدُّ

مـا يقومُ الليلَ إلاَّ مَنْ لهُ عَزْم وجدّ

قال لي فبكى مكلبة وقال للمؤذن زِدْني فأنشده :

قد مضى الليلُ وَوَلّى وحبيبي قـد تجلّى

قال : فصاح مكلبة ووقع ميتا ، فأصبح الناس على باب داره معتقدين وقطعوا كفنه اعتقاداً .

قلت : ولما ذاكرني الشيخ عمر بهذه الأبيات قلتُ له : سمعتُ من مؤذّنٍ أصله من مدينة بيروت ينشد في ركب الحجيج الشامي آخر الليل عند قيامنا عن منزلة خليص بين الحرمين هذين البيتين :

أقبل الصبحُ ضاحكاً يتجلّى   جلّ ربّي جيشُ الظلامِ تَولّى

يا أُهَيْلَ الحمى توضّوا فصلّوا   أفلحَ اليومَ مَنْ توضّى وصلّى

وكان ذلك في جمادى الآخرة من سنة اثنتين وعشرين بعد الألف .

١٤١

الشيخ علاء الدين الطرابلسي

الشيخ الصالح ، البركة الفالح المقري المحدث ، الحافظ علاء الدين علي الطرابلسي ثم الدمشقي الحنفي ، إمام الجامع السليمي بالصالحية ، من نواحي دمشق المحمية .

كان من الصدر الأول ، وممن عليه في القراءات المعوّل . وكان أولاً تابعاً لمذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله تعالى عنه ، ثم انتقل الى تقليد الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ، وصحب قاضي القضاة ابن عبد الكريم ، وكان القاضي المذكور متعصباً على الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه فوافَقَهُ على مراده ، وتابعه على اعتقاده وقد اجتمعت به في الصالحية ، بدمشق المحمّية يوم الخميس رابع المحرّم الحرام ، افتتاح شهور سنة سبع بعد الألف ، وذلك في منزل صاحبنا الشيخ محمد بن المرزنات الحنبلي . فتذاكرنا شيئاً من التاريخ إلى أن انجرّ الكلام الى ذكر الحسين رضي الله تعالى عنه وما مُحِن به ، (١٨٤ب) وما صار إليه مع مَنْ مَعَهُ من آل البيت النبويّ على صاحبه ألف ألف تحية وألف ألف سلام .

فقال لي الشيخ علاء الدين المذكور رأيت في « ديوان المولد » الحافظ المحدث الشيخ ابراهيم الناجي هذه الأبيات فحفظتُها ، وهي لبعض أهل العراق :

أحسينُ والمبعوثِ جَدِّكَ بالهُدى قسماً يكونُ الحقُّ عنه سائلي

لو كنتُ شاهِدَ كَرْبلا لَبَذَلْتُ في تنفيس كَرْبِكَ فَوقَ جُهْدِ الباذِلِ

وَسَقَيْتُ حدَّ السيف من أعدائكم عَلَلاً وحدَّ السمهري الذابل

لكنني أُخِّرتُ عَنْكَ لِشَقْوَتي فبلابلي بين الغَرِيِّ وبابلِ

هَبْنِي حُرِمْتُ الطَعْنَ في أعدائكم فأقلُّ مِن حُزْنٍ ودمع سائلِ

وُلدَ (١) مولانا الشيخ علاء الدين المذكور على ما أخبرني به من لفظه في التاريخ المذكور في صبيحة نهار الجمعة مستهلّ شوّال سنة خمسين وتسع مئة . وقرأ القرآن على مشايخ منهم والده الشيخ ناصر الدين الطرابلسي إمام الجامع الأموي ، وعلى شيخ الاسلام وليّ الله تعالى الشيخ الشهاب الطيبي الكبير ، وعلى الشيخ عبد الوهاب إمام الحنفية والشيخ شهاب الدين الأيدولي إمام الجامع الأموي على مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وعلى الشهاب الفلوجيّ الامام أيضا بالجامع الأموي على مذهب الإمامِ الشافعي رضي الله عنه . وجمع القراءاتِ السبعَ ثمّ العشرَ أيضا على المشايخ المذكورين أعلاه وقرأ الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه على الشيخ عبد الوهاب المذكور وأخبرني أنه قرأ عليه كتاب (كنز الدقائق) في الفقه بِطَرَفيْه وقرأ (صدر الشريعة) بطرفيه أيضا على شيخه وشيخنا الشيخ نجم الدين البَهْنَسي خطيب الجامع الأموي ومفتي الحنفيه بدمشق . وقرأ عليه أيضا (شرح المنار) في أصول فقه الحنفية ، وقرأ الفرائض على شيخها على الاطلاق الشيخ محمد النجدي الحنبلي الفرضي بالمدرسة العمرية بالصالحية ، وعلى الشهاب العلوي الملقّب بشكاره والد الشيخ يوسف العلوي الشاعر المذكور في هذا المجموع .

---

(١) من هنا الى قوله « قلت : واستمر الشيخ » لا يوجد في ب .

وقرأ علم الحساب والجبر والمقابلة مع الهندسة (١٨٥ آ) على الشيخ عبد اللطيف بن الكيّال الموقت بالجامع الأموي وأخذ عنه كثيرا في علم الفلك ، وأخذ قواعد علم الفلك حتى مَهَر في الفن المذكور على الشيخ العلامة أبي بكر تقي الدين الصهيوني المذكور في تاريخنا هذا . وأخذ الحديث روايةً ودرايةً على شيخ الاسلام ، وبركة الأنام ، ملحق الأحفاد بالأجداد ، الشيخ البدر الغزي المذكور في تاريخنا هذا ، وهو الآن في دمشق واحدها في القراءات والفرائض والحساب والميقات والفلك وحسن الأداء للقراءات .

وأخذ علوم العربية عن شيخنا شيخ الاسلام العماد الحنفي في تاريخنا ، وعن شيخنا شيخ الاسلام الشمس بن المنقار وعرض ألفية ابن مالك في النحو على شيخ مشايخنا شيخ الاسلام الشيخ علاء الدين بن عماد الدين الشافعي رحمه الله تعالى ، وشرح فرائض الكتاب المسمى (بملتقى الأبحر) وسماه (سكب الأنهر على فرائض ملتقى الأبحر) . وألّف مقدمة في علم التجويد سماها (المقدمة العلائية ، في تجويد التلاوة القرآنية) ، ونظم أسئلة تتعلق ببعض المشكلات والألغاز في القراءات العشر وسماها (الألغاز العلائية) وعدّة أبياتها مئة وستة وعشرون بيتا ، ولم يبحث عنها أحد إلى الآن هكذا أملاني في التاريخ المذكور أعلاه من لفظه ، وعمره يوم الإملاء المذكور سبع وستون سنة ، فسح الله تعالى في مدّته .

وليَ تدريس الدولعية بدمشق واليونسيّة بها أيضا ، والكوجانية ، والضيائية وتدريس بقعة بجامع بني أمية . وهو إمام الحنفية بجامع بني أمية . وله به كرسي وعظ في الأشهر الثلاثة ، وغير ذلك من الوظائف الدينية . بارك الله تعالى في عمره ، كما بارك في قدره .

قلت : واستمر الشيخ المذكور مقيماً بالصالحية إماماً في المدرسة السليمية . الى أن توفي في حدود سنة تسع بعد الألف تقريبا ، وكان ينظم الشعر الكثير ، ويرد من النظم موارد باردة في حرّ الهجير . فعليه رحمة الملك القدير ، ورحمنا معه إنه لطيف خبير .

١٤٢

القاضي علي الخفاجي (١)

هو علي بن محمد الخفاجي ولد بمكة المكرمة وسكن المدينة المنورة (١٨٥ ب) على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام وهو يوم تاريخه بدمشق المحمية .

تولىّ القضاء بمدينة عدن باليمن وذلك في سنة عشر بعد الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها الف الف صلاة وسلام وتحيـــة . وكانت توليته من جانب سلطان الاسلام . حامي حمى البيت الحرام ، السلطان أحمد خان . ابن المرحوم السلطان محمد ابن المرحوم السلطان مراد بن السلطان سليم العثماني ، مِلِكِ الأرض ، أطال الله تعالى عمره ، وأعزّ في دين الاسلام نصره .

اجتمعتُ به في دمشق بمنزلي في زقاق النحّاسين على نهر بردى ، داخل باب الفراديس ، وأنشدني للامام الشافعي رضي الله تعالى عنه :

رِزْقي تشتّتَ في البلادِ وإنّني ... أسعى لجمعِ شَتاتِهِ وأطوفُ
فكأنني قَلَمٌ بأنمُلِ كاتبٍ ... وكأنّ رِزْقي في البلادِ حُرُوفُ

وكان ذلك الانشاد والاجتماع في يوم الأربعاء خامس شهر ربيع الثاني من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، على مهاجرها ألف ألف صلاةٍ وألف ألف تحيّة .

---

(١) وردت هذه الترجمة في «ب» بعد ترجمة الشيخ عمر القـــاري ، وقبل ترجمة الشيخ علاء الدين الطرابلسي . وفيها اختلاف في اللفظ

١٤٣

الملاّ علي الكنكاوري [١]

هو علي الكنكاوري الشهير بعزمي . وكنكاور [٢] من توابع همذان . ورد دمشق الشام ، وبها قطن واقام . وكان كاتباً بقلم نسخ التعليق ، وخطه في ذالك حسنٌ الى الغاية .

ومن نظمه بلسان الفارسيّة [٣] :

چه خُوشَسْت آزْ تو گاهي   نَظَري بناز كَرْدَنْ [٤]

بِرُخْ شِكَسْتَه حَالي   دَرِ فَيْضْ باز كَرْدَنْ [٥]

بِرَهَتْ چوخاكْ هَسْتَم   زِ سَرَمْ عنان مَكَرْدَانْ [٦]

نَسِزَدْ زِ خاكْ راهي   دَمي اِحترازْ كَرْدَنْ [٧]

---

(١) في الاصول « النكاوري » . وقد أفادني الدكتور محمد محمدي استاذ كرسي الأدب الفارسي بالجامعة اللبنـانية أن الصواب « الكنكاوري » نسبة الى « كنكاور » بليدة بين همذان وكرمانشاه .

(٢) في الاصول «وانـكاور» .

(٣) هذه الأبيات كان فيها تصحيف كثير . ضبطها لنا الدكتور محمدي ونقل لنا معناها الى العربية .

(٤) معناه : « ما ألطف نظرة متدلّلة منك ، من حين الى آخر »

(٥) معناه : « وفتح باب الفيض لوجه (عاشق) كسير الخاطر »

(٦) معناه : « أنا في طريقك تراب ، لاتحوّل العنان عني »

(٧) معناه : « لاينبغي لحظة التجنب عن تراب الطريق » .

وله :

خاكَمْ بِهَواي طَوْفِ آن كُويْ دُنبالِ صَبا دَويدَني داشتْ (١)

وله :

أشْكِ كَلـگُونَ كَهُ ازْ رَوْنَقِ دامانِ مَنَسْتْ (٢)

كُوهِ وَرْدَمْ مَنْ وُايَنْ لا لهِ وُنُعْمانِ مَنَسْتْ (٣)

وله :

دِلْ هواداز غَمِ دُوسْت شُدُوهُمْ أزْ دوسْتْ (٣)

هَرْدَمْ آيَدْ غمي ازْ نُوْ بِهَوَاداري دُوسْتْ (٤)

وُلد تقريباً في سنة اثنتين وسبعين وتسع مئة .

قلتُ : وقد عرض طاعونٌ عظيم في سنة ثمانية عشر بعد الألف ، نسأل الله تعالى السلامة والعناية ، وإزالة ذلك بعونه وعنايته ، ولطفه وحمايته . فاتفق أن الملاّ علي المذكور طُعن في صباح يومٍ ، فما جاء مساؤه إلاّ وقد سلم الروح إلى معدنها الأوّل ودُفن في تربة مرج الدحداح بدمشق المحروسة .

وقد كان ساكناً في محلة القيمرية ببيت محمد أفندي السابقي صاحب دفاتر دمشق سابقا . وكان صاحب الترجمة عديم النظير في خط النسخ التعليق ، وكان يكتب الدواوين اللطيفة الفارسية الرقيقة . وكان له فَهْم سليم في الشعر الفارسي المليح ، حسنَ الخُلُق ، ساكناً ساكتاً إلاّ وقت الضرورة . رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وَبرّدَ بمياه الغفرانِ مضاجعه .

---

(١) معناه : « كان لترابي ركضٌ وراء نسيم الصبا شوقاً للطواف حول ذلك الحي »

(٢) معناه : « دمع الجبل الأحمر من رونق ذيلي »

(٣) معناه : « فأنا جبل الورد وهذه سوسني وشقائقي »

(٤) ذكر لي الدكتور محمدي أن معنى هذين البيتين لاينقل الى العربية بدقة ، وإنما يدرك بالفارسية بسهولة .

١٤٤

الشيخ عبد النافع الحموي الحنفي[1]

نشأ هذا الرجل بمدينة حماه ، ولم يكن شيء سوى الفضل قد صانه وحماه لأن والده كان من آحاد الناس ، ولم يكن متصفاً بشدةٍ ولا نجدةِ ولا باس . ونشأ ولده هذا ذكياً لبيباً قد حاز من الفضل حظاً وافراً ونصيبا . طبيعته تنظم الشعر الرقيق ، وتنثر الدرّ الذي بنحور الخرائد يعجب ويليق . وحصل من الفقه طرفا صالحاً ، وكان طِرف هجوه في ميدان القباحة جامحا . ولم يكن الى غير السفاهة جانحا . فلذلك لم يكن في عمره ناجحا . وذلك أنه كان خامل الذكر في بداية أمره ، وكان ساقط الرتبة في أول عمره َفخدَمَ القاضي محمد بن الأعوج بإقراء أولاده القران ، فحماه في حماة عن أن تصل اليه يد العدوان . وجعله كاتباً في محكمة المدينة المذكورة . وألقى عليه أثواب القبول وشرّف حججه المسطورة .

ثم إنه ترقّى (١٦٨ ب) الى أن أفتى على مذهب النعمان ، وانفرد بالفتوى من حمص الى معرّة النعمان . وشاع ذكره في الأقطار . ونقل الناس بعض ما قاله من الأشعار ، لكن كان بذيّ اللسان ، لا يحفظ الإحسان بل لا يهجو في الغالب إلا من أحسن إليه ، ولا يخص بهجوه القبيح إلاّ من أمطر سحابَ إحسانه عليه .

اجتمعتُ به في مدينة طرابلس الشام ، حين ساقني اليها الملك العلام وشاقني منها برقها البسام . وبعثني من دمشق اليها باعثُ الشوقِ والغرام

---

(١) وردت هذ الترجمة في ب بعد ترجمة الشيخ عبد الله المغربي .

فكان يصلني بالزيارة على الدوام . ولم تكن مصاحبته في الأكثر إلاّ غيبة الأنام . وكان المفتي في طرابلس حينئذٍ مصطفى العكاري ، فكان يحطّ عليه ويجاهر بالمخاصمة ولا يداري . وصدرت بينهما مخاصمة ، أدّت الى المكالمة ، وكادت تصيرُ الى الملاكمة . وقد شرحت ما دار بينهما من الخطاب في هذا الكتاب . فانظره فإنه من العجب العُجاب .

قال لي في طرابلس : كان القاضي عبد اللطيف ابن القاضي محب الدين الحموي نزيل دمشق قاضياً في حماه ، وكان أميرها الأمير حسن بن الأعوج . فتظاهرا ، وتناصرا ، وتعاضدا وتساعدا . ووافق ذالك جفوة من القاضي المذكور الشيخ عبد النافع ، فكتب الى الأمير حسن هذين البيتين مشيراً إلى مظاهرة القاضي ، وصدور الحال بينهما على التراضي :

تخذتَ وَلِيّاً جاهِلاً ذا مَذَلّةٍ ... وقد كُنتَ لا ترضى وليّاً منَ الذُلّ

وَمَنْ يَتّخِذْ نسجَ العَناكِبِ دِرْعَهُ ... فَسَهْمُ مُعاديه غنيٌّ عن النَصْلِ

قال : وقعت بيني وبين عبد اللطيف المذكور محاورة ؛ أدّت إلى مكابرة ؛ في أثناء مكاثرة . فكان من قول عبد اللطيف له : وأنت أيْشَكْ ؟ يريد شتمه بالتركية . مخلوطة بالعربية . يعني أنت أيُّ أشك وأشك بلغة التركية الحمار . وقصد عبد اللطيف بذلك أن يُظهر أنه قاضٍ من جهة سلطان الروم فيريد أن يتكلم بلغتهم .

وقد نقلت مقالته مفصّلةً في الرحلة التي سميتُها « المنازل الأنسية في الرحلة الطرابلسية » (١٨٧ آ) وقد مدحني عند لقائه لي في طرابلس بهذين البيتين :

نظر الله لهذا الزمن　　يسمي ابنِ الوَصي الحسَنِ
اسمُهُ والذاتُ والفعلُ معاً　　حَسَنٌ في حسَنٍ في حسَنِ

واجتمع في طرابلس بعبد النافع المتصوِّف الجاهل الحمصي ، فكان ابن سيفا الأمير يوسف يودُّ هذا الحمصيّ أكثر من ذلك الحموي . فاتفق أنّ الأمير المذكور أرسل لعبد النافع الحموي مالاً من مرتَّبه على صدقات السلطنة بطرابلس الشام ، فأخذها الرسولُ الى عبد النافع الحمصي لاشتراك الاسم . فلما وصل الخبرُ الى عبد النافع الحموي قصد الأمير المذكور ، وقال له : يامولانا ! اشتراك الاسم قد يضرُّ ، وهذه دراهمي ذهبت إلى عبد النافع الحمصي ، لذلك فلابُدَّ من تمييزٍ يكونُ سبَبَ رفع الاشتباه بيننا .

فقال له الأميرُ : أنظر وصفا مميّزا .

فقال له يا مولانا ، أنا أكونُ عبد النافع الشاعر — يشير الى أن يكون ذاك عبد النافع المشعور ، لأنه حمصيّ ، والمشهور أن أهل حمص مشعورون في العقل لنقصانهم فيه .

قال فضحك الأميرُ الى الغاية ، وأرسل ماله الذي ذهب الى عبد النافع الحمصي .

كتب اليّ ، وأنا بطرابلس ، هذا اللّغز في بدرٍ ، وهو قولُهُ :

أمولاي بدرُ الدين ذا العلمِ والعلى　　وشمسَ الملا ، والفاضلُ الكاملُ البحرُ
نحاكم فقيرٌ سائلاً كشفَ مُشكلٍ　　فمن كلِّ عُسْرٍ عند حضرتكم يُسْرُ
عن اسمٍ ثلاثيٍّ مُسمّاهُ مُفْرَدٌ　　ولم يخلُ مـن آثاره أبداً قُطْرُ
يهلُّ بلا صوتٍ ويولدُ راكعاً　　ولم يَلْحَقِ الامَّ التي ولدتْ ضُرُّ

ومولدُه لم يَعْدُ وقتاً معيَّناً ولكن تخطّى أُفقَهُ العصرُ والدهرُ
ويبلغُ ثُلْثَ الأربعين أشُدُّهُ ويهرمُ إذما زيد عن ثلثها العُشْرُ
يسيرُ بلا رِجْلٍ ولم يَعْلُ مَرْكَباً وما فاتَهُ في السَّيْرِ برٌّ ولا بَحْرُ

فكتبت اليه الجواب ، ورسوله واقف بالباب :

أمولاي يا مَنْ وصفُه المجدُ والفخرُ ومَنْ جُودُه بحرٌ وجودُ الحيا قَطْرُ
ويا مَنْ له في كُلِّ علمٍ غلامةٌ ويا مَنْ له في المحفلِ القلبُ والصدرُ
(١٨٧ب) بعثتَ قريضاً بل أزاهيرَ رَوْضةٍ غدا دونها زهرُ النجومِ أو البدرُ
وشرّفتَ قدري بالسؤالِ وإنما جَبَرْتَ فؤاداً كان مِنْ وَصْفه الكَسْر
وراسلْتَني والقلبُ فيه حرارةٌ وما حالُ قلبٌ كان في ضِمْنِه جَمْرُ
ولكن ضياءُ الفضل لاح من الذي بعثتَ وإنّ المسكَ في طيِّه النَشْر
فصعّدتُ طرفي في سماء كمالِهِ فقابَلَني من أُفْقِ إقباله بدرُ
فيا بَدْرَ حُسْنٍ قد بدا في علوها يلوحُ لأبصار الانامِ ولاستر
طلبناك في ليلِ السُطُورِ تشوّقاً وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدْرُ
على أنَّ مَنْ أنشاك بدرٌ مُكَمَّلٌ ترقّى له قَدْرٌ على مَنْ له قدرُ
فلا زال يُحيي مَيِّتَ الفضلِ دائماً بلفظٍ غدا من دون رُتْبَتِه الدُرُّ
مدى الدهرِ مالاحتْ بروقٌ من الحمى فهاجتْ مُحِبّاً ليس في قلبه صبْرُ

قلت : وعبد النافع هذا لسانه صِلٌ ، وليس له وفاءٌ لصديق ولا خِلٌ ، يهجو أهلَ الإحسان ، ويمطر سحائب السُمّ من ذلك اللسان . قد تقرَّر أن بني الأعوج سبب استقامته في حماه ، وأنه لم يزل تحت ظلِ والدهم وحِماه . فهجاهم بعد ما رجاهم . فلزم أنّه ضاق عليه حِمى حِماه فرحل عنه الى طرابلس الشام وتعدّاه . وكان رحيله إلى طرابلس بعياله وبأتباعه وأمواله . وكان حاكمها يومئذٍ الأمير يوسف بن سيفا . فمدحه وتقرب الى ظاهر خاطره . وكان له ضيفاً فقبله ظاهرا ، وظنّه طاهرا . فرأى منه ما لا يُرى . وقال : هذا بَرأه الله تعالى أثقلَ من بَرا . فمقته وعبَسَ في ملْقاه ، وأظهر له التعبيس عندما يراه . وأخذ يتعدى على القاطنين بطرابلس الشام . ويتكلّم في حق ابن سيفا بكلمات تذوب منها ودائع الهام . فمنعه الأميرُ المذكور من الفتوى ، وأخذ يترصّدُ له مواقع البلوى . الى أن قضى الله تعالى بنهوض علي بك ابن جانبلاذ الى نواحي طرابلس محارباً لابن سيفا ، جالباً له رُمْحاً وسَهْماً وسَيْفا . وذلك لكون ابن سيفا ابتدأه بالعداوة والعُدوان ، واشترى الإذن بالركوب عليه من حضرة السلطان . وجلب إليه العساكر ، (١٧٧ آ) وجمع له الجماهر ، وتحارب معه على حماه ، فكسر الله تعالى ابن سيفا ومَنْ عاونه في مُناه . ورجع بوأس طمرة وإجـام . وانقلب بسوء منقلب ومرام . فتبعه ابن جانبولاذ الى نواحي بلاده . فترك له طرابلس الشام على مراده . وسار في البحر راكباً سفينه . واستصحب معه أمتعته الثمينة . فدخل بعضُ أقارب ابن جانبولاذ الى طرابلس ناهباً لأموالها . مفرّقاً رجالها عن عيالها . فكان عبد النافع المذكور عنده مِنْ أعوان الظَلَمَه . وخاصم بسعايته كُلَّ مَنْ جارَ عليه وظَلَمَه .

فلزم أنّ ابنَ سيفا ، سارَ به البحرُ الى ساحل حيفا ، ورجع إلى بلاده بعد رحيل ابن جانبولاذ عنها ، وأخْذِ ما أخذه من أهلها ومنها . فلم يكن له همّ سوى إهلاك عبد النافع . وإزالة ماله من الأموال والمنافع . فلم يظفر به لهربه ، بعد خوفه على روحه ورَهَبِه . وقد أخفته في محلّ الغائط امرأةٌ شمطاءُ عجوز . وقالت : هذا من أهل العلم فقتله لايجوز . وخرج من محلّ الخارج ، وغيّر صورته خوفاً أن يقتل كالخوارج وقُتل رجلٌ من أصحابه ، وصُلب قريباً من بابه . وهو محمّد البَعْلي المؤذّن بطرابلس الشام . واستمر عبد النافع خارجا من البلد عليه ظلام ، فوصل مستخفيا الى حلب . والى إبن جانبولاذ أدّاه الهرب . وبقيتْ عيالُه في طرابلس ، وأملاكه في حماه ، وجسمه في حلب . وأنشد فيه بعضُ الأفاضل متمثلا :

في قرى مِصْرَ جسمُه، والأُصيحا ب شآماً ، والقلبُ في أجْيَادِ

فمات في حلب في إحدى الجمُادَيْن من شهور سنة ست عشرة بعد الألف . واستمرت أولادُه في طرابلس مقيمين . والمقدّر واقع لا يفوتُ ﴿ وما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غداً ، وما تَدْري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموتُ ﴾ (١)

---

(١) سورة لقمان ٣١ ـ الآية ٣٤

١٤٥

القاضي عبد اللطيف المحبّي

هو عبد اللطيف ابن المرحوم العلامة القاضي محب الدين ابن تقي الدين الحموي الأصل . قدم والدهُ المذكور الى دمشق الشام واستوطنها ودرّس أولا بالقصّاعيّة الحنفية كما سيُشرح[١] في ترجمته . وقد تزوج بنتَ المرحوم شيخنا الشيخ اسماعيل النابلسي الشافعي مفتي السادة (١٨٨ ب) الشافعية . بدمشق المَحْمِيّة[٢] . والقاضي عبد اللطيف أمّه حموية .

قرأ على أبيه ، ثم على بعض موالي الروم ولازم مفتي الروم المولى شيخ الاسلام محمدأفندي الشهير بچوي زاده . وجاور بمكة المكرّمة ، ودرّس بها ، ثم بعد ذلك سلك طريق القضاء إلى أن صار قاضياً بحماة ، ثم استوطن دمشق وصار قسّامَ العسكر مرارا ، وناب مابيْن عن بعض الموالي . وقد حسنت سيرته في ذلك جداً .

وكان متعفّفاً متورعاً متصلّفاً .

وبنى بيتاً ، وكان موضع البيت خاناً للخرفان بدمشق . وكان َوقْفاً على مكتب الأيتام بدمشق الشام ، فاشتراه وأعطى الثمن لمن أكله . والبيت المذكور في سوق السيور ، في قبلة باب الزيادة من جامع بني أمية ، وسكنه وما سكن فؤاده .

---

(١) ب « يشرح » وقوله « كما سيشرح في ترجمته » لا توجد في هـ

(٢) « المحمية » لا توجد في هـ

درّس بالشاميّة البرانية مع أنه حنفي ، والمدرسة المذكورة مشروطةٌ لِأَعْلَمِ علماء الشافعية . ولقد ابتدأ ذلك (١) والده ، وتبعه ولده (٢) . وقد أُرْسِلتْ للفقير المدرسةُ الشامية البرانية ، من دار السلطنه العلية قسطنطينيّة وكان المرسِلُ لها المولى أحمد أفندي ابن المرحوم القاضي عبد الغني أفندي ، لأنه كان قاضي العساكر في جانب أناطولي ، ودمشق داخلة فيها [ولما وصلنا منشور المدرسة فتحنا بها باب الاغلاق ، وجمعنا الفضلاء على دروسها بعد الافتراق](٣) . ثم سَعى فيها عبد اللطيف چلبي المذكور بالمال . وبالله لقد أرسل إليّ بعضَ توابعه يخاطبني على أن يدفعَ لي أربع مئة غرش وأفرغ له عن المدرسة ، فما قبلتُ ، مع علمي بأن الجاهلَ الاياشي قاضي مكة سابقاً يسعى له عليها ويأخذها ، وذلك لأنه حنفيّ . وما كنتُ أخذتُها إلاّ بشرطِ واقفتها أنها لأعلمِ علماء الشافعية فلو فرغتُ لخالف قولي فعلي .

ثم ان عبد اللطيف چلبي المذكور مات بعد مجيء المدرسة له بنحو أربعة أشهر ، وكنت بالطمع الأشعبيّ أظن أن القاضي يرسلُ إليّ تقريرَ المدرسةِ لموت عبد اللطيف چلبي ، فما فعل ذلك ، بل أعطى المدرسة لشاب حنفي من توابعه يقال له علي چلبي . فإن كان أهلاً لها فقد وقعَتْ موقعَها ، وإن لم يكن أهلاً لها فقد ظلَمَها وظلم أهلَها الذي طابق وصفه شرط واقفتها .

---

(١) في هـ «ولقد ابتدأ هذه الخطيئة والده»

(٢) في هـ زيادة « . . . ولده وتردّى وراءه في واديه ويقوم يوم القيامة بجواب ذلك عند باريه ، وبجواب البيت الذي بناه ، وتحمّل وزره في بناه » .

(٣) زيادة من هـ

كتبَ لصاحب الترجمة الأستاذ العارف (١٨٩ آ) بالله تعالى سيِّدي محمد البكري الصديقي لِمـا بينه وبين أبيه من المحبّة شعراً :

أنت عبدا للطيف ألطف ُعندي من صَباً في صباحِ رَوْضٍ أريضِ

الك أهديت غير شيء ولكن ربّمـا زَانَهُ اليكَ قريضي

وكتبتُ أنا اليه بهذه الأبيات مع رسالة الإمام القشيري رضي الله تعالى عنه حين رَدَدْتها اليه بعد استعارتها منه في شهر رمضان من سنة سبع عشرة بعد الألف :

يا مَنْ له صدقُ المقالَهْ أرسلتُ نحوكم الرسالَهْ

فقطَفْتُ من أزهارها ما يُكْسِبُ الطبعُ اعتداله

وجَنَيْتُ من ثمراتِها ما ليس تصحبهُ المَلاله

من لفظِ كلِّ مكمّلٍ ما شمت في الدنيا كماله

ونصيحة من أهلها يهوى الظلوم بها العداله

هذي ثمارٌ أينَعت مَنْ ذاقَ سكّرها حلاله

هذي هدايةُ مَنْ غدا في الخلق يرتكبُ الضلاله

فيها شموسٌ أشرقتْ وتطلّعَتْ منها الغزاله

فيها كرامٌ جودُهم في الدهر لن تلقى مثاله

يغدو بهـــا ذا همّةٍ　　مَنْ كان يوصَفُ بالسفاله

أضحَوا نزول منازلٍ　　بَسَطَ النّعيمُ بهـــا ظِلاله

وامتدَّ فوقَ صَعيدهم　　حلل تَروقُ بهـــا الغِلاله

مِن نَسْجِ كُلِّ خميلةٍ　　أبدى الربيعُ بها كماله

فاسلم بوصف سعادةٍ　　يبقى ولا تخشى زواله[1]

ثم إن[2] القاضي المذكور في ليلة الاربعاء الثامن والعشرين من صفر الخير لسنة ثلاث وعشرين بعد الألف خرج الى بستان له بقرية جَوْبَر على

---

(١) بعد هذه القصيدة في ب « ولما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرون من شهر ربيع الأول من سنة تسع بعد الألف ورد الخبر الى دمشق على يد ساع مغربي من دار السلطنة العظمى قسطنطينية الكبرى ، ومعه مرسوم شريف . واجب التشريف الى السيّد محمد الشريف ، القاضي بدمشق بأنه عُزل عن قضاء دمشق ، وأعطي قضاء مكة المكرّمة ، وأن قضاء دمشق قد أعطي للمولى نوح افندي ابن المرحوم احمد أفندي ابن روح الله الأنصاري . وكان المولى نوح المذكور قاضياً بمدينه سنانيك (كذا) من بلاد روم ايلي ، وفي ذلك اليوم بعينه تحوّلت المحكمة الى مدرسة نور الدين الشهيد ، وناب في القضاء عن نوح أفندي المذكور عبد اللطيف جلبي محب الدين افندي صاحب الترجمة .

قلتُ : وقد حُمدت سيرة عبد اللطيف جلبي المذكورة جداً في قضاء البلد المعمور ، والله تعالى هو الموفق والمعين ، وبه نستعين في جميع الأمور . اهـ

(٢) في ب : « وفي ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من صفر الخير من سنة ثلاث وعشرين بعد الألف ، من الهجرة النبوية على مهاجرها ألف ألف تحية ، خرج القاضي عبد اللطيف المذكور ، نزيل دمشق المحروسة ، دامت منازلها المأنوسة الى بستان له . . . »

باب دمشق من الجهة الشرقية ، وأكل في البستان المذكور أطعمةً نفيسة وكان القاضي كمال الدين ابن الخطّاب القاضي المالكي خلافةً بدمشق في باب القاضي الكبير في صحبته ، لأنه كان يألفه ، ورجعا قبيل الغروب من تلك الليلة . فصدفتُه قريباً من باب الخضراءِ راكباً وسلّم عليَّ وكان بيننا برودةٌ ، بسبب تدريس المدرسة المتقدّم ذكرها ، وبمجرّد دخوله الى بيته من تلك الليلة . مات فجأة الى رحمة الله تعالى . ونُقِلَتْ أسبابُه ودراهمُه الى بيوت متعدّدة ، وصارت بعد الاجتماع متبدّدة ، ودُفن من الغَد في تربته التي أنشأها بالقرب من جامع جَرّاح بالجانب الشرقي من زاوية المغاربة ولله الحمد على أنه مات راضياً عنا ونحن عنه راضون ، بعد أمور مختلفة والى الله ترجعون . (١٨٩ ب) .

١٤٦

الشيخ عبد اللطيف ابن شيخ الاسلام الشيخ أحمد
الشهير بابن أبي وفا الحنبلي

من بني مفلح الحنابلة المشهورين ، وَرَدوا في الأصل الى الصالحية من قرية رامين من وادي الشَعير من توابع نابلس ، وتفرّعوا بطوناً .

فأمّا الشيخ أحمد هذا فهو من نسل نظام الدين ، وابن عمه القاضي أكمل الدين فهو من نسل ابراهيم ، والكل حنابلة ومن أولاد مفلح .

وأما الشيخ أحمد والد صاحب الترجمة فقد تقدم ذكره في حرف الهمزة (١) ، وعبد اللطيف هذا سافر الى مصر في سنة خمس وعشرة بعـــد الألف تقريباً طلباً للعلم في مصر ، ولا سيما الفقه على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه . فاجتهد وحصّل ، وأجازه علماء مصر بالفتوى والتدريس . ورأيتُ كتابته على الفتوى وردت الى دمشق من مصر قبل قدومه اليها . ورجع الى دمشق في سنة سبع عشرة وألف ، واجتمعتُ به فرأيته وسط الحال ، وإن داوم على الاجتهاد ، يُرجى أن يلحق بالآباء والأجداد .

وقد رأيتُ في يده كتاباً من تصانيف ابن طولون فيه « ذكر مَنْ كان بالصالحية من العلماء الأعلام » ، وفيهم ابراهيم بن عبد الواحد بن علي ابن مرور المقدسي ثم الدمشقي الصالحيّ ، الفقيه الزاهد ، الشيخ عماد الدين أبو اسحاق وأبو اسماعيل أخو الحافظ عبد الغني . ولد بقرية جَمّاعيل

---

(١) انظر الجزء الأول

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وهاجر الى دمشق مع جماعتهم . قال سبط ابن الجوزي : حضرت جنازته ، ورأيتُ الناس الذين حضروها فكان أوّلُهم في جبل قاسيون عند مغارة الدم ، وآخرُهم في دمشق عند باب الفراديس . وقد نقلوا جنازته في الصباح فلم تصل الى محلّ قبره عند الشيخ عمر ، رضي الله تعالى عنهما ، إلا في آخرِ النهار . فخطر في بالي الأبيات التي أنشدها سفيان الثّوريّ في المنام وهي :

نظرتُ الى ربّي كفاحاً فقال لي ... هنيئاً رضايَ عنك يابن سعيدِ

فقد كنتَ قوّاماً إذا أقبلَ الدُجى ... بعبرةِ مُشتاقٍ وقَلْبِ عميدِ

فدونك فاخْتَرْ أيّ قصرٍ أردتَهُ ... وزُرْني فاني منكَ غيرُ بعيدِ

قال : فقلتُ أرجو أن أرى الشيخ عماد الدين وقد رأى ربّه كما رآه (١٩٠ آ) سفيان عند نزول حضرته ، ونمتُ فرأيتُ العمادَ في النوم ، وعليه حلّةٌ خضراءُ وعمامة خضراءُ ، وهو في مكانٍ متّسعٍ كأنه روْضة فهو يرْقى في درج مرتفعة . فقلتُ له : يا عماد الدين ! كيف بتّ ؟ فإني والله نمتُ وأنا متفكرٌ فيك .

فنظر اليّ وتبسّم على عادته وقال :

رأيتُ إلهي حينَ أُنْزِلتُ حُفْرَتي ... وفارقتُ أصحابي وأهلي وجيرتي

فقال: جُزيتَ الخيرَ عنّي فإنّني رضيتُ فما عفوي لديكَ ورحْمَتي
وكنتَ زماناً تأملُ الفوزَ والرضى فُوقّيتَ نيراني ولُقّيتَ جَنّتي

قال : فجلستُ مرعوباً ، وكتبتُ الأبيات المذكورة .

وقد صار صاحب الترجمة قاضي الحنابلة بمحكمة الكبرى أولاً ثم صار قاضي قضاة الحنبلية بمحكمة الباب ، وكان جرياً (؟) في الحكومة ، وكان[1] الوالي وأعيان الشام يعاملوه (كذا) لأجل والده بالاكرام .

---

(١) في جميع الأصول « وكانوا »

١٤٧

الشيخ عبد الحق ابن الشيخ محمد الحمصي
الشهير بالحجازي الشافعي

هو الشيخ الفاضل ، البارع ، الكامل ، كان شاعراً ماهراً ، ظريفاً لطيفاً عفيفاً منقطعاً عن الناس ، غير مخالط لهم في جمعية ولا استئناس .

نظَمَ ونَثر ، وقوي على البداهة فيهما والنظر . وقد مدح المرحوم المولى أحمد أفندي الشهير بابن حسن بك حين كان قاضياً بدمشق الشام سقاها صوب الغمام ، في سنة أربعٍ وتسعين وتسع مئة ، بقصيدة فريدة ، عقودها دُرَرٌ نضيدة . ومطلعها :

سقى الربعَ هطّالٌ من المزن ساكبُ ... وجادَتْ عليه الساريات السواربُ

وحيّاهُ وَسْمِيٌّ من الغيثِ مُمْرِعٌ ... يواصلُ في تسكابهِ ويُواصِبُ

هَدِيّةُ رَجّافِ العَشيِّ كأنّه ... كتائبُ تقفو إثْرَهُنَّ كتائب

وكلّ صَدُوقِ البَرْقِ دانٍ رَبابُه ... تنوءُ فُوَيْقَ الأرضِ منه الهياربُ

تُزَجّيه أنفاسُ الشمالِ وتمتري ... ضروعَ عزاليهِ الصبا والجنائبُ

يروّي بها من سيبه باطن الثرى ... وتُمحى بسُقياه المحولُ اللوازبُ

كأنّ هديرَ الرّعدِ في جنباته ... هديرُ قرومٍ هاجَهُنّ الضرائبُ

(١٩٠ب) كأنّ وميضَ البرقِ لَمْعُ قواضبٍ ... إذا لمعتْ بين الصفوفِ القواضبُ

يشق سناه السحب شَقّاً كـأنه ... كميٌّ دَعَتْهُ للقراع الضرائبُ

كأنّ دموعَ المُزْنِ وهي سوائلٌ ... دموعُ مُحِبٍ فارَقَتْهُ الحبائبُ

فذاك الحيا لا زال في اربع الحيا ... سَرَيا نُها[1] منه الزلالُ الخَضَارِبُ

فتصبح منه الأرضُ مخضرَةَ الرّبا ... مجلّلةً بالروض فيها الأهاضِبُ

ويصبحُ منثوراً بها رَيّقُ الحيا ... كما نَثَرتْ من جيدِها السمطَ كاعبُ

خمائلُ فيها للظبــاء مسارحٌ ... وفيها لأذيالِ الرياحِ مَساحبُ

كأنّ رُباها والرياضُ تحفّهـا ... عرائسُ أبكارٌ عليها الجلابِبُ

تُغازلُنا أزهارُهــا وكأنّمــا ... تُغازلنا فيها الحِسانُ الربائبُ

كأنّ ثغورَ النّوْرِ وهي بواسمٌ ... بأرجائها القُصْوَى نُجومٌ ثواقبُ

تَهَادىٰ ظِباءُ الوحْشِ في عَرَصاتها ... كما تتَهادىٰ في القصورِ العوازبُ

وتبكي بها وُرْقُ الحمائمِ مثلما ... من البين تبكي المُغْولاتُ النوادب

وعهدي بها والآنساتُ خلالهـا ... تُداعب في أرجائها وتُلاعبُ

فأضحتْ[2] خلاءً دارساتٍ رسومُها ... تعفّي عليها الراسياتُ[3] الحواصبُ

أحَلّ بمغناهُنّ بيضٌ كواعِب ... وحَلّ بأقصاهُنّ سودٌ نواعِبُ

---

(١) كذا ويلاحظ أن الوزن مضطرب في هذه الشطرة .

(٢) هـ « فأصبحت » .

(٣) م « الرامسات » .

وأوحشْنَ حتى ليس فيهنّ آنسٌ … وأقوَيْنَ حتّى ما بِهنّ مُجاوبُ

خلا أنّ زُوّاراً من الوحش نُفّراً … تُلازم هاتيك الربا وتُلازبُ

كأنّ الرسومَ الدارساتِ تَصبُّري … عشيّةَ حفّتْ بالقَطِين الركائبُ

كأنّ ضلوعي غدوةَ البينِ غالها … غوائلُ حَتْفٍ في فؤادي نواشِبُ

أليمُ افتراقٍ للجلادةِ موهن … وحرُّ احتراقٍ للحشاشة لاهبُ

وقلبٌ عَراهُ الخَبْلُ حتّى كأنه … لِما قَدْ عراه علّقته المخالبُ

فوآ أسفي لا القلبُ من سكرة الهوى … مفيقٌ ولا من غَيْبَةِ الشوق آيبُ

فَمَنْ لي بحفظِ العهدِ من ذي صبابةٍ … أضاعتْ هواهُ المذنبات العواتبُ

يهبُّ معي من هجعةِ الفَجْر رُبّما … تنال بأشفاع الحدودِ المطالب

فقد تُدْرَكُ الحاجاتُ وهي فوائتٌ … وقد تَصْدُقُ الآمالُ وهي كواذبُ

(١٩١ آ) ومنها :

أحمّلُ[1] صبري الأذى وهو مؤلمٌ … وأُوضح وجهي للردى وهو قاطبُ

وأُبدي لمن يبغي ضِراري تجلّداً … ولو سامني الضيمَ العدوُّ المناصِبُ

ولا أختشي من قاسطٍ سَوْرَةَ الأذى … ولو نزلتْ بي من سطاه المصائبُ

وكيف وفي أقضى القضاةِ كفايةٌ … تُذاد بها عني الهمومُ النواصبُ

يردُّ بماضي عزمه واردَ الردى … إذا غَشِيَتْني بالكروبِ الكرائبُ

---

(١) ﻫ « أحمد ».

وإني بنعماهُ لبؤسيَ زاجرٌ ... وإنّي بذكراهُ لِأُنسيَ جالبُ
هو الصحبُ إمّا خامَ عني صحابتي ... هو الأهلُ إمّا خان عهدي الأقاربُ
هو الأحمدُ المحمودُ في كلِّ موطنٍ ... إذا ليم مَنْ شامت عُلاهُ الشوائبُ
وجامعُ أشتاتِ العلومِ بُعَيدَ ما ... تَفَرَّقن فيها للذهابِ مذاهبُ
تتيهُ المعاني من بديعِ بيانه ... وتُظهر بالإعراب منه الغرائبُ
ويُغني عن الخطيِّ في الروع خطّه ... ويرغم أنف الخطْب إذ هو خاطبُ
ويُخجل نظمَ الدُرّ منطقُه فما ... جموعُ عُكاظٍ عنده والأعاربُ
نماه إلى العلياء قلبٌ أقلّهُ ... من الفضلِ والمجدِ الذُرى والغواربُ
نجارٌ ذكيٌّ أينعتْ عذَباتُهُ ... وفَرْعٌ بهيٌّ طاب منه المناصبُ
له الشِّيَمُ الشُمُّ التي لا ينالُها ... محاولُها حتى تُنالَ الكواكبُ
غواديَ هِبَاتٍ ما يغبّ سكوبُها ... وأوصافُ ذاتٍ لم تشنها المعائبُ
بها تنجلي الظلما وينتقعُ الصَدى ... وتنكشفُ البلوى وتصفو المشارب
ويسهُلُ حَزْنُ الأرض إما ثوى بها ... وتشفى بشمّ التُرْبِ منها الترائبُ
أتى[1] الشامَ لمّا استأسدَ الهمُّ واعتدَت ... بها حُمُرُ البيداء وهي مقانِبُ
فعُدِّلَ ميّالٌ وقُوِّمَ زائغٌ[2] ... ونُوِّلَ سئّالٌ وبُلِّغَ طالبُ

---

(١) « أتى إلى الشام » .
(٢) « رايغ » .

وأنقذَ أهليها من الجورِ بَعْدَما سَقتْهم حُمَيّاها الحُتوفُ الصوائبُ

ومَنْ لم يكن مُستعصِماً بجنابه فللذُلّ منه لا محالةَ جانبُ

أمولايَ يا رُكناً تلوذُ به العُلا ويا غُصْنَ مجدٍ منه تُجنى المناقبُ

ويا حَرَماً يُلفى به الأمْن قاطناً ويَلْقى به الحَرّ[1] الزمانُ المحاربُ

ويا هَيْصَماً يعنو[2] له كلّ هَيْصَمٍ[3] ويا أخشباً تندكُّ منه الأخاشبُ (١٩١ب)

إليك أتت غُرُّ القوافي كأنّها لآلئ إلاّ أنّهنّ عجائبُ

عِذابٌ بأفواهِ الرُّواةِ بدائعٌ حِسانٌ بألبابِ الرجال لواعبُ

قوافٍ كأزهارِ الرياضِ نَضارةً ولكنّها بين الأنام كواكبُ

يُخَجِّلُ مُنشيها بها كُلّ مُدّعٍ ورأيٌ سديدٌ أن يُخَجّل كاذبُ

قسيُّ معانٍ لا تطيشُ سهامُها وأسيافُ فَضْلٍ لم تخنها المضاربُ

ولألأهُ لم تُزهر رياضَ قرائحٍ ولا انبجستْ منها المياهُ النواضبُ

ولا لمعتْ ليَ في المعاني بوارقٌ ولا نشأتْ لي في القوافي سحائبُ

ومِنْ زندكَ الواري[4] اقتدحتُ فضائلي ومن نوركَ السّامي أنجلتْ لي الغياهبُ

---

(١) م « الذخر » .

(٢) م « يعلو » .

(٣) م « هيضماً .. هيضم » .

(٤) ساقطة من « م » .

وإنك بدرٌ في سما الفضلِ زاهرٌ ... وإنكَ نجمٌ في دُجى الليلِ ثاقبُ

أرَيتَ الورى سُبْلَ(١) المكارمِ بعدمَا ... عفا رسمُها وامّحَ(٢) منها اللواحبُ

حُبيتَ مقامَيْ يوشعٍ وابنِ مريمٍ ... غداةَ ثوتْ في عقوَتيكَ المناصبُ

فعادتْ لأبناء الزمانِ حياتُهم ... ورُدّتْ شموسُ المكرماتِ الغواربُ

ألا هكذا فليحرز المجدَ مُحرزٌ ... ألا هكذا فليكسبِ الحمدَ كاسبُ

مكارمُ تبقى والليالي نوافدٌ ... وتخلدُ والأيامَ عنها ذواهبُ

مآثرُ لا الليثُ الهضومُ بجاشع ... جواها ولا القرم الخضمّ محاربُ

هنيئاً لعيدٍ أنت في الدهر عيدُهُ ... مُوافٍ قدوماً أنت فيه مُصاحبُ

قدومٌ أتى تاريخُه خيرَ مَقْدَمٍ ... وعيدٌ به عاد السرورُ المجانبُ(٣)

قَدُمْ واحدَ الدنيا عِياذاً لأهلها ... إذا ما عداها الفادحُ المُتَنَاوِبُ

سَجاياكَ للسارين زُهْرٌ ثواقبٌ ... وأيديكَ للعافين سُحْبٌ سواكبُ

يغضُّ(٤) لديكَ البدرُ والبدرُ زاهرٌ ... ويخجلُ منكَ البحرُ والبحر ثاقبُ

فأنتَ لأهلِ الأرضِ مولىً وموئلٌ ... وأنت لوجهِ الدهرِ عَيْنٌ وحاجبُ

---

(١) ﻫ « بسل » .

(٢) ﻫ « وانمحى » .

(٣) هذا البيت ساقط من ﻫ .

(٤) ﻫ « يغض » .

وهي من غُررِ قصائده المشهورة الطنانة ، وبدائعه التي زيّنت من الشعر مضماره وميدانه .

وقد تخرّج في مبادئه بالمرحوم صاحبنا الشيخ محمد بن فوّاز ، الآتي ذكره إن شاء تعالى في حرف الميم . وكان له صديقاً ومن (١٩٢ آ) بداية أمره رفيقاً . كتب اليه يعتب عليه :

يا غائباً والذنبُ ذَنْبُكْ   مُتَعَتِّباً للهَ رَبّكْ[1]

لا تبعـدَنّ فإنّما   أملي من الأيام قُربكْ

فلأصبِرنّ وأرْضِيَنّ   بما قضاهُ اللهُ ربـك

وبالجملة فقد كانَ صاحب الترجمة من محاسِن دهره . ونوادر عصره ؛ وموته سبباً لتذكُّر الممات من غير مرض ، ووقوع الحمام بغتةً بغير عرض . فإنه لما توفي والده ، وجاء إليه طارفه وتالده ، جمع تلامذة أبيه وأظهر لهم تواضعه مع تأبيته . ووعدهم بالجميل . وأن يخص كلاًّ منهم بنوع من التبجيل . فما أعطاه الزمان فرصة ، ولا خلا به من غُصّة . الى غصة . ولحق والده عن قريب ، ولعمري أنه الولد النجيب .

وللشيخ عبد الحق هذا ولد صغير ، ما فات سن الاحتلام بكثير . وقد أعطاه قاضي دمشق الشام حصةً وافرةً من جهاته . وخصّه بجميل عداته . ولعله يصل الى وصف النجابة ، وأن يفتح الدهر له من الخير أبوابه . وإن قالوا النجيبُ من النجيب عجيب . فلعلِ لطف مولاه أن يخصّه من لطفه بنصيب .

---

(١) م « الله ربك » .

قلتُ : وكنتُ سافرتُ من دمشق الى طرابلس الشام في أواخر سنة ثمانٍ بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . فلما رجعتُ إلى دمشق حضرتْ علماؤها للسلام عليّ فتأخر صاحب الترجمة لمرض كان له قد عرض فكتب اليّ هذين البيتين من نظمه ، الدال على صحيح فهمه :

أَعَدْتُمْ إلينا بَهْجَةً أدبيّةً ... بها افترّ ثغرُ الفضْلِ والعَوْدُ أحمدُ
وأحيَيْتُمُ وادي دمشق بعودةٍ ... أضاء بها فيه مُصلّى ومسجدُ

وكتبَ اليّ أيضاً هذه القصيدة الغرّاء وهي من أبكار أشعاره :

أياسافرَ الوجهِ الذي يُخجِلُ البدرا ... ويا ناعسَ الطّرْفِ الذي أُودِعَ السحرا
ويا مَنْ له قدٌّ إذا ماسَ وانثنى ... رأيتَ قلوبَ العاشقين له أَسْرَى
ويا مَنْ له خطٌّ على الخدِّ كلّما ... بدى لي أقولُ الليلُ في البدر قد أَسْرَى
(١٩٢ب) متى يشتفي من طولِ هجركَ مُغْرَمٌ ... مدامعهُ تَتْرى وانفاسُه حَرّى
إذا قال هذي ليلةُ الهجر قد مضت ... أَتَتْهُ ليالٍ من جفاكَ له أُخرى
لقد كان ذا صبري يعينُ على الجفا ... ومِنْ طولِ هذا الهجر قد فَقَدَ الصّبرا
فدَيْتُكَ يا ربَّ الملاحةِ والبها ... أما آنَ يا مولايَ أنْ تتركَ الهَجْرا
يُرَجّيكَ صبٌّ أنحَلَ البينُ جسمَه ... تَعطّفْ عليه ساعةً واْغنَمِ الأجرا
يحيّيك ما غنّى على الدوحِ ساجعٌ ... ومادام عبدُ الحقِّ يعلو الورى قدْرا

إمام علا حتى تجاوزَ صاعداً ... مقامَ الثُرَيا والسِّماكَيْن والنَّسرا
أبى اللهُ إلاّ أن يدومَ مُبَجّلاً ... تخافُ الليالي منه بَطْشَتَهُ الكُبْرى
وما هو إلاّ البحرُ أصبح فائضاً ... ألستَ تراهُ للورى يبذلُ الدُرّا
فَضَلَّ الذي قَدْ جاءَ يَبْغي محلَّهُ ... دَعِ البغْيَ يا هاذا فَمَنْ يبلغ البدرا
إذا ما دجى ليلُ لإشكالِ مَبْحثٍ ... يُصَيِّرُهُ من ضوء فِكْرَتِهِ ظُهْرا[1]
غدا خاطباً بكر المعالي فنالها ... وصيّرَ جودُ الكفِّ منه لها مَهْرا
إذا ما سخا بالبَحْرِ من فَيضِ فضله ... فَدَعْ عنكَ سُحْباً جهدها تمطرُ القَطْرا
وما مِدَحُ المدّاحِ تحصرُ فضله ... وقطْرُ الغوادي مَن يطيقُ له حَصْرا؟
ولو أنّ ألفاً ينظمون مديحَه ... لما بلغوا مِنْ بعضِ أفضالِهِ العُشْرا
ومَنْ أمَّهُ يَبْغي نَوالَ يمينه ... تَبَدَّلَ بعد العُسْرِ من جوده يُسْرا
فضائلُهُ قد علّمَتْني امتداحَهُ ... فَلَوْلا نَدَى كفّيْهِ لم أنظم الشّعْرا
وهاكَ أخا الأفضالِ دُرّاً نظمتهُ ... تمنى الغواني أنْ يمسّ لها نحرا
وأرسلتُه عقدا من الدرّ مثمناً ... ولا عجبٌ للدرّ إنْ قارن البحرا
تصفحتُ أبناءَ الزمانِ فلم أجد ... سواكَ له أهلاً فصرتَ به أحْرى
تَهَنَّ بإدراكِ المطالب دائماً ... فهذا لسانُ الحال أعلن بالبشرى
ودُمْ مُدْرِكَ الآمالِ مُتّسِعَ العطا ... تجيدُ لك الأيام من لفظها شكرا

---

(١) ساقط من « ه » .

مدى الدهرِ ما غنّى على الدوحِ ساجعٌ … وما بكتِ الأنواءُ مُضْحِكَةً زَهْرا

فكتبتُ له الجواب ، بعناية الملك الوهاب :

أعرتُ خدودَ الغيدِ من مُهجتي جَمْرا … وعلّقنَ في الأجيادِ من مدمعي دُرّا

(١٩٣ آ) وأسأرنَ في قلبي رسيسَ صبابةٍ … وغادرْنَ في خدّي من أدمعي غُدْرا

وبي حَزَنٌ يعتادني ويحثّـه … بكاءُ حمامٍ يصدع[1] القلبَ والصدرا

يغني بأفنانِ الأراكِ مُغَرِّدًا … وينشق من ذيلِ الصبا الطيبَ والنشرا

ومعركُ حربٍ في فؤادي أثاره … من الشوقِ جيشٌ لا يُحاطُ به خُبْرا

على هدف الأحشاء وقعُ سهامه … يُفَوِّقُها للقلب فتّاكةً عذرا

وقالوا تَصَبَّرْ قلتُ شيءٌ جهلتهُ … وكيف يطيق الصبرَ مَن يجهل الصبرا

خليليَّ عوجا بارك الله فيكما … وحُثّا المطايا واقصُدا الرَّنْدَ والسدْرا

فلي فيه خودٌ بالصدودِ تَسَرْبَلَتْ … وقد تخِذَتْ سُمْرَ الرياح لها خِدْرا

ربيبيةٌ ألوتْ بعزم تجلّدي … وأذْكَتْ على الأحشاء من نارها جَمْرا

أبى القلب إلا أن يكونَ مُعذّباً[2] … ومُذ أعلنت[3] شوقي العدا أخذتْ حذرا

وكم حَذّرَتْني من هواها عواذلي … ولا أحسب التحذيرَ إلا بها أغرا

(١) هـ « يصدح » .

(٢) ساقطة من من هـ ، م .

(٣) ب ، هـ « أيقنت » .

أيا غادةً ما كان أطيبَ عَيْشها ... ترى هل يعودُ الوصلُ لي مرةً أُخرى

ألا أيُّها القلبُ الذي لجَّ في الهوى ... الى مَ الوفا ، والغيدُ أزمعتِ الغدرا

فهذي دواعي الشيب تدعو إلى الهُدى ... وقد زجرتْني عن دواعي الصبا زَجرا

وقد شاب كبدي قبل رأسي ولمّتي ... فحتى مَ قلبي لا يفيقُ بهم سُكْرا

وما كان شيبي من تطاول إربتي[1] ... ولكنني لاقيتُ مِنْ دهريَ النُكْرا

وليلٍ كيومِ الحشرِ من فرطِ طوله ... ظننتُ بأنَّ الله لم يخلقِ الفجرا

أبيتُ به والحادثاتُ تنوشُني ... فلا غُلّتي تشفى ولا سَقَمي يبرا

سهامُ خطوبٍ من لحاظِ نوائبٍ ... يسمنَ الحشا ضُراً ويلْحَظْنَني شَزْرا

أرَتْنيَ وجْهاً للمنيّــــة كالحاً ... وأوْدَعتِ الأحزانَ في كبدي الحرّى

ولي نفسُ حُرٍّ لم تخَفْ غائلَ الردى ... ولم تَخْشَ من ذا الدهر بطشته الكُبْرى

ولولاكَ بدرَ الدين ما راق خاطري ... لنظمٍ ولا حرّرْتُ في مدحه سطرا

ولكنّني صادفتُ مدحك واجباً ... وما كنتُ يا مولاي أعصي لكم أمْرا

أتت منك أبياتٌ تحلّتْ بدُرِّها ... صِفاتي ، كروضٍ قد غدا كلّه زهرا

فقلتُ أطال اللهُ عمرك دائماً ... وأعلى لكم بين الورى أبداً ذِكْرا

ولا زلتَ شمساً في سماء فضائلٍ ... تُنَوِّرُ من لألاء غرّتك البدرا (١٩٣ب)

---

(١) م ، ب « ارمتي » .

فيا حَسَناً في ذاته وصفاته ... على أيّ حالٍ أنتمُ بالعلى أحْرا

أتتني عقودٌ من بديع جواهرٍ ... تخالُ سَنا لألائها الأنجمَ الزُهْرا

معانٍ على أعلا المجرّةِ قد عُلَتْ ... ونظم قوافٍ شِعْرُها نيطَ بالشِّعرى

أرى الدهرَ لا يوفيك ما تستحقُّه ... وما عرف الدهرُ الخؤون لكم قَدْرا

فلا تعتبَنْه ما على الدهرِ معتبٌ ... وعُذْراً فأنتمْ خيرُ مَن يقبلُ العُذْرا

١٤٨

الشيخ عيسى ابن الشيخ محمد ابن الشيخ سعد الدين الجباوي السعدي

قد كان ذهب إلى مصر المحروسة مُغاضِباً لأبيه ، بسبب منافسة صدرت بين الشيخ عيسى المذكور وزوجة أبيه بنت الخواجا الجاوير لأمرما . وكان الشيخ محمد المذكور ترضّى ولده المذكور ليمكث في دمشق ويترك السير إلى مصر ، فلم يقبل من أبيه ، وأرجعه غضبان ، فتكلم أهلُ دمشق بأنه لايجد خيراً في سفره . فكان سفره قائداً إلى أجله ، باعثاً على بقاء الناس على عذله . فكان ورود خبر وفاته في يوم السبت الحادي والعشرين من شهر رجب من سنة تسع عشرة بعد الألف ، وذهب أهل دمشق قاطبة إلى تعزية الشيخ محمد المذكور عن ولده ، وقطعة كبده ، وكان يبكي ، ولواقعة ولده يحكي . فيُبكي العيون ، وينكي الفؤاد المحزون ، لكونه أُصيب في أيام شيبه بواحده وعضده وعاضده ، والدهر أبو العجائب ولا تزال حاملته واضعة للغرائب .

الليالي من الزمان حُبـالى مثقلات يَلِدْنَ كُلَّ غريبة

وتحرر أن وفاته بالقاهرة في يوم الخميس الثامن والعشرين من جمادى الآخرة ، من شهور سنة تسع عشرة بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها ألف ألف تحية .

وفي أواسط صفر الخير من سنة عشرين بعد الألف أخذ الضعف يتزايد في ذات الشيخ محمد ابن المرحوم الشيخ سعد الدين الجباوي والد الشيخ عيسى المذكور في هذه الصحيفة ، ولم يزل يتزايدُ السقم به حتى أنه ثقل

ضعفه جداً وكانت علته الشوصة . فلمّا [١٩٤ آ] ثقل جسمه ، وتعـذر حسمه ، ذهب أهل دمشق إليه ارسالا ، وانقطعت منه الأطماع ، وكان للآمال مآلا . فمات إلى رحمة الله تعالى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر الخير سنة عشرين بعد الألف ، وأصبح الناس يطلبونه فلا يجدون ، ويحجون إلى كعبة جوده فيُحرَمون ولا يُحرِمون . هنالك أثقال أهل دمشق إلى بابه يهرعون ، وإلى عزيز جنابه يتحيّلون . أنّ الموت فاته وأنه لم يُعَيّن له ميقاته ، ولعمري لقد كان حاتم زمانه ، وخاتم كرماء أوانه . يعطي ولا يبطي ، ويصيب ولا يخطي .

١٤٩

الشيخ عمر العرضي

هو شيخ الإسلام ومفتي الشافعية بحلب الحمية . ولما حصلت معه المراسلة واتصلت بيننا وبينه المواصلة ، أهدى لنا ثوباً رفيقاً موصلياً لطيفاً ظريفاً، وكتب معه هذه الكلمات بخطه ، المزين بضبطه وهي قوله :

« مولانا علامة الزمان ، أدام الله مجدَكَ ما اختلف الملوان وكَرَّ الجديدان .

قد علم المولى أن قبولَ الهديّة أمرٌ محبوب ، وأنه مسنون مطلوب . وقد وقع الاجماعُ على أنه مقبول ، ولذلك كان من سنة الرسول ، وقد أرسلنا على سبيل الهدية مع الاعتذار ، هذا الثوب الموصليّ مُعلنين في التقصير بالإقرار . والمطلوبُ قبوله ، فإنه مطلوب الحقير ومأمولُه . وذلك هو المطلوب كما يشهد بذلك علّام الغيوب . والسلام عليكم أوّلاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً . والسلام .

١٥٠

الشيخ عبد القادر المصري الكاتب

إمام الجامع الصابوني بدمشق الشام ، سقاها صوب الغمام .

كتب رقعه يتشفع فيها برجلٍ من أصحابه ، ويطلب له قضاءَ أربٍ من أربابه . وفي صدر الرقعة المذكورة هذان البيتان . وهما قوله :

من بَعْدِ إهداء السلامِ الذي فاقَ شذاه المسكَ والعنبرا

وبثّ أشواقٍ نَمَتْ كثرةً وفاقتِ الحــدّ فلن تحصرا

نهدي ذلك لدى مولانا العلامة ، والحبر البحر الفهامة . أسبغ الله تعالى انعامه عليه . ونظر بعين عنايته ورعايته إليه . فالمعروض لدى الحضرة (١٩٤ ب) العلية . والشيم الحسنة السنية . أنّ حاملهـــا من الداعين لجنابكم الكريم ، لا زال محروساً بعناية الله الملك الرحيم . وهو مع ذلك من المنسوبين إلى الحقير ، الداعي على الدوام بغير تقصير . فالمرجو شموله بشريف الأنظار ، ولكم المنة والدعا آناء الليـــل وأطراف النهار . والسلام على الدوام .

١٥١

علي جاويش ابن الحارة الدمشقي

أحد الجاويشية بديوان دمشق الشام المحميّة .

وهو الذي أرسل طلبه حضرة السلطان سليم الثاني ، ابن المرحوم السلطان سليمان العثماني . وذلك لوجود جماله ، وحسن صورته وكماله . وقد اجتمع بالسلطان ، وحضر مجالسه الرفيعة الشان ، ثم أنعم عليه بتيمارٍ بنواحي الشام . واستمر يتصرّفُ به إلى هذه الأيام .

كان حَسَنَ الخلق والأخلاق ، وقد اشتهر حسنه في جميع الآفاق . بحيث أنه خطب من هذه الديار لخدمة حضرة الخنكار . وكانت وفاته في نهار الخميس وقت الضحى ، وصلّي عليه بجامع الأموي بعد صلاة الظهر ، ودُفن بمقبرة مرج الدحداح . رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وغفر لنا وله ولسائر المسلمين . آمين .

١٥٢

عبد الغني ابن الدويدار

وهو من أبناء السلف الماضين الذين لهم أوقاف . فطلع إلى وادي التَيْم لتحصيل بعض حصة في قرية يقال لها كفر مشكا . فنزل عند رجلٍ من أهل القرية المذكورة ، والرجل أخرس أطرش . فيقال إنه قام بالليل لقضاء حاجة له فعثر في الأخرس المذكور فظنه الأخرسُ دابّاً عليه . ويقال انه مارد بغير ذقن ، فقام إليه وضربه بخنجر ، فوقع في مَذْبحه فقتله بعد أربعة أيام ، فدفن في القرية المذكورة ويقالُ أنه أوصى لولده أن لا يتعرض بدعوى على القاتل ، وأن يبقي الدعوى إلى أن يقف مع قاتله بين يديْ الله تعالى ، وصدرت هذه القصة في شهر رجب من سنة إحدى وعشرين بعد الألف .

١٥٣

الشيخ عبد الغني ابن شيخنا الشيخ اسماعيل

عجيبة : مُدَرِّسٌ يقرأ على نائبه في درسه . وذلك ان الشيخ اسماعيل النابلسي بن أحمد الشافعي رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنـــة منقلبه ومثواه (١٩٥ آ) لما توفي إلى رحمة الله تعالى في أوائل سنة اثنتين وتسعين أو ثلاث وتسعين وتسع مئة ، انحلّتْ عنه المدرسةُ الدرويشيّة الشافعية ، في التاريخ المذكور . فطلبتُها من قاضي قُضاةِ دمشق وهو المولى مصطفى أفندي الشهير بابن بستان . فوجّهها اليّ مع كثرة الطالبين لها . ولم أزل ألقي بها الدرس . وكان ذلك الكتاب الذي يُقرأ هناك عندي « شرح المنهاج » المحقّق جلال المحلّي . فلما مضى من التاريخ المذكور خمس سنين أو أقل قليلاً ، كبر ابن الشيخ إسماعيل النابلسي المذكور سِنّاً لا عِلْماً . فقال لي قاضي القضاة ابنُ بستان المذكور : أما يجوز أنك تُسامح هذا الشاب وهو ولد الشيخ إسماعيل في التدريس المذكور ، فإنه ابن شيخك ، والتدريس المذكور له بشرط الواقف . فقلت له : نعم . لكن شرطَ الواقف مقيدٌ بأن يكون أولاد الشيخ اسماعيل متأهّلين للدرس ، وابن الشيخ هذا ليس أهلاً للتدريس . فقال القاضي المذكور : هو فقير جداً . فوقعتِ المسامحة . فأعطى القاضي التدريس لابن الشيخ هذا وكان ذلك مني صادراً بين الرضا والغضب .

فلمّا صار التدريس لعبد الغني ولد الشيخ اسماعيل استناب فيه الشيخ

أحمد بن أبي الوفا الحنبليّ ، وصار المدرس بنفسه يقرأ في متن الآجروميّة ، في علم العربية . وهذا من العجائب فسبحان الدايم الباقي :

وكم قائلٍ مالي رأيتُك راجلاً   فقلتُ له من أجلِ أنّك فارسُ

ولقد خطر لي أن أنشد هذه الأبيات الأربعة وهي أبيات أنشدها الشيخ الإمام ، الفاضل الهمام ، الشيخ علاء الدين بن عماد الدين الشهير بين أولاد العرب بالشيخ علاء الدين الأحدب . وهو عند الأروام كچك مُلاّ . وسبب إنشائه لهذه الأبيات أنه كان مدرساً بالعادلية الصغرى ، فأعطوه بدلها النقوية ، وأعطوا العادلية الصغرى للشيخ الطيبي الكبير . فأنشد عند ذلك الشيخ علاء الدين هذه الأبيات مرتجلاً في شأن عزله ، وأخذِ العادليةِ منه مع غزارة فضله . وهي :

(١٩٥ب) تقولُ العادليّةُ وهي تشكو   أليمَ سُقوطِها بعد العروجِ
أإحراقُ الشهابِ وفقْدُ فضلٍ   ومنْعٌ للعلاء عن الولوجِ
وتفريقُ الأفاضلِ عن دروسي   وجمعٌ للأراذلِ في بروجِ
فقلْ للاعورِ الدجّال هذا   زمانُك إنْ عزَمْتَ على الخروج

بيت :

على أنّها الأيامُ قد صِرْن كلُّها   عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ

١٥٤

عمر چلبي

ابن جمال الدين ابن عبد الرحمن ابن قاضي القضاة ولي الدين ابن قاضي مصر والشام شهاب الدين ابن القاضي محمود من بني قُرْقُور ، بضم القافين .

اجتمعتُ به بمنزلي نهار التاسع والعشرين من شوال سنة إحدى وعشرين بعد الألف ، فرأيتُ معه بَعْضَ أوراقٍ من خطبة والده جمال الدين المذكور . وكان ذا خَطٍ نسيب ، وفضل عجيب . فرأيت منها ورقةً قد كُتِبَتْ هذه القصيدةُ فيها ، وهي قولُ عبد المحسن بن محمود الحلبي جعل الله عاقبته محمودة في العقبى ، فكتبتُها وهي هذه :

تَوالتْ مَسَرّاتُ الصِّبا ثم وَلّتِ … ونيرانُ حزنِ القلب بالشَيْب شَبّتِ

حَلَتْ ليَ أيّامي بشَرْخِ شبيبتي … زماناً ولكن حين مرّت أمَرّتِ

سقى اللهُ أيامَ التصابي صوائباً … إذا ابتسمتْ منها الرياضُ اكفهرّت

فكم رَوضةٍ مرضى إذا القطرُ بَلّها … ومرّتْ بها ريحُ الشمالِ أبَلّتِ

شربتُ بها راحاً تُريح من الأسى … حراماً إذا حَلّتْ بمثلي أحلّتِ [1]

وكم غُمّةٍ يردي النفوسَ حلولُها … إذا ما تجلّت للنفوس تجلّتِ

(١) هذا البيت لا يوجد في هـ .

وكم رزئتْ نفسُ الفتى برزيّةٍ وسالت لديه في البواطي تسلت

وخمّارةٍ تُغلي الشّباب[1] فإن هي اسـ ـتقلّتْ دنانير الرجالِ استقلتِ

نزلتُ بها في فتيةٍ من صحابتي فلما رأتْنا هَلّلتْ واستهلّتِ

ومَنّتْ علينا بالمدام وبالقرى ثلاثاً فقوّتْ مُنّتي منذُ مَنّتِ

تُدير[2] علينا الكأسَ في الدير غادةٌ وتُغْني عن القينات إنْ هي غنّتِ

أقمنا لديها أربعاً وثمانياً فما زالتِ الحُسْنى ولاهي زلّتِ

وملْنا إليها في أمورٍ كثيرة فما أنْ مَلَلْناها ولا هي ملّتِ

سأثني ولا أثني عناني عن الذي به بدأتْ في حُسْنِ فعلٍ وثنّتِ

(١) وردت هذه الكلمة هكذا « الشبا » ووردت في نسخة أخرى « الشبآ » ونرى أن تكون الكلمة « الشباب » وبها يستقيم الوزن والمعنى .

(٢) في الأصل : يدير .

١٥٥

عبد الرحيم ابن الخواجا الأجل تاج الدين

ابن الخواجا الأجلّ الأمجد أحمد الشهير بابن محاسن الدمشقي .

حفظه الله تعالى وحرسه من أعين الحساد ، وجعله من الفضلاء الأمجاد .

وعبد الرحيم هذا سبط كاتب الأحرف الفقير الحسن بن محمد البوريني ، وقد تربّى عندي . وكانت ولادته عندي في منزلي بزقاق النحّاسين بدمشق ، بالقرب من منزل السادات بني حمزة الحسينيّين ، في منزلٍ على بردى . وشرع يقرأ في العربية على الفقير كاتب الحروف ، فابتدأ في قراءة « الآجرّوميّة » في أوائل سنة اثنتين وعشرين بعد الألف ، وختمها بحمد الله تعالى . ثم قرأها ثانياً وختمها بحمد الله تعالى . والحمد لله ثم الحمد لله على أنه فهمها فهماً حسناً .

وقد اتفق أنّنا سرنا إلى بستان في الجانب الغربي من دمشق ، وكان السبط الكريم في صحبتنا ، فدخل رجلٌ من أصحابنا إلى البستان وقصد مجلسنا وفي يده جُلّنارة فوق قامة خضراء . فقال السبط المذكور مرتجلا :

وجُلّنـــارٍ قد بدا　　في غصنه لمن رَمَقْ
كأنّهُ من لُطفِــهِ　　في أُفُقِ الدوحِ شَفَقْ

وقال في ذلك أخونا التقوي تقي الدين الجوهري ، ولد المرحوم العارف الشيخ أحمد الجوهري ، وكان في المجلس مع الإخوان ، فقال مخالباً لمن أتى بالغصن والجلنارة ، وأجاد :

وجلّنارٍ قد حكى تورِيدَ خَدِّكَ النَّدِي
شبهتُه لما بدا على الغصونِ الميّدِ
كأساً عقيقاً صِيغَ في غُصْنٍ من الزَبَرْجَدِ

والمطلوب من الله تعالى له التوفيق على كل حال .

انتهى الجزء الثاني من كتاب تراجم الأعيان
ويليه الجزء الثالث وأوله باب الفاء
إن شاء الله

فهرس الأعلام

في الجزء الثاني من كتاب تراجم الأعيان